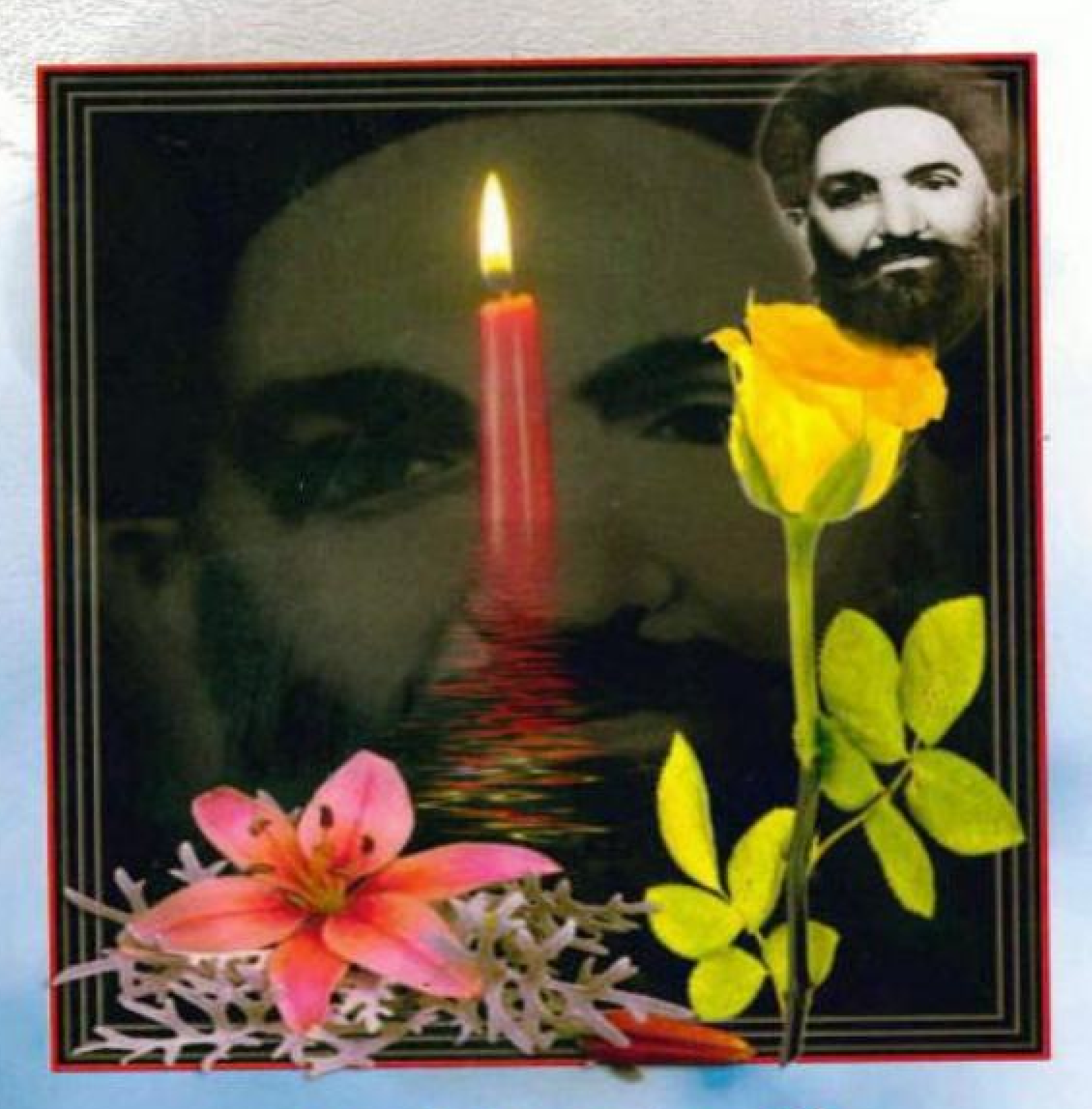
قدوة العارفين

سيرة العارف الكبير سيد حسن المسقطي الموسوي وكراماته



تقي بن حسين الموسوي

دار المحجة البيضاء


قدوة العارفين





سيرة العارف الكبير
السيد حسن المسقطي الموسوي
وكراماته

تأليف
تقي بن حسين الموسوي

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

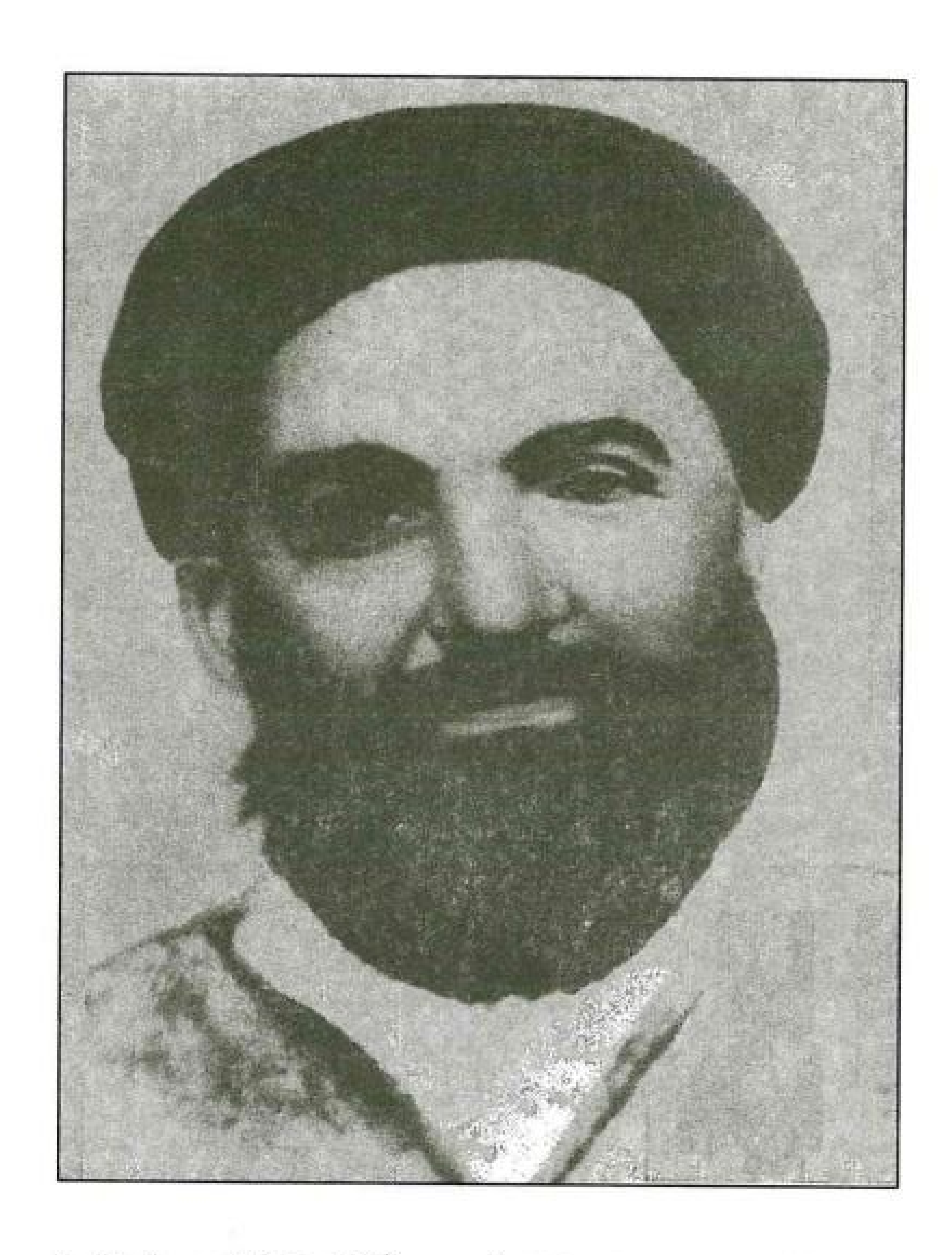


الرويس ـ مفرق محلات محفوظ ستورز ـ بناية رمّال

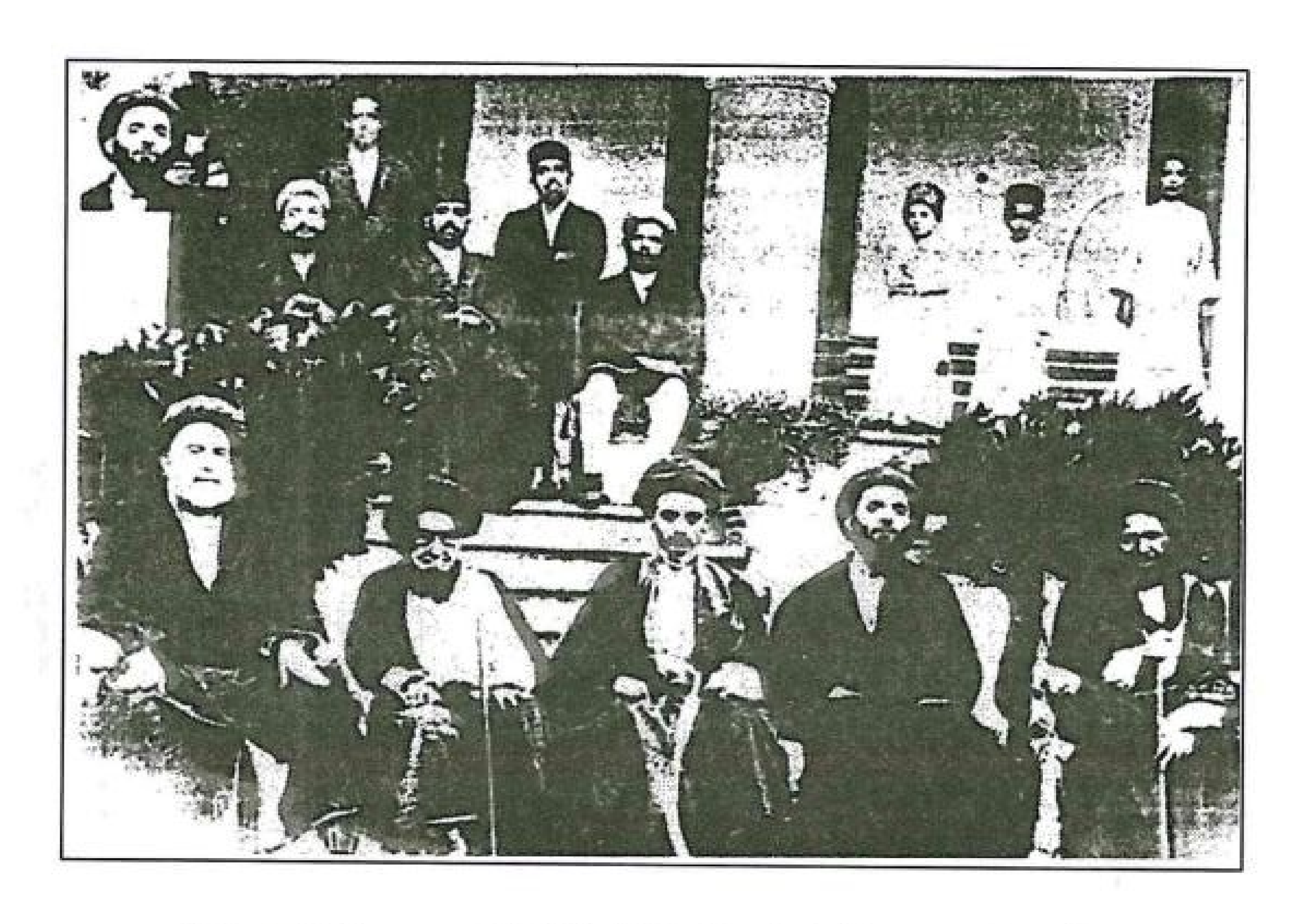
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail:almahajja@terra.net.lb

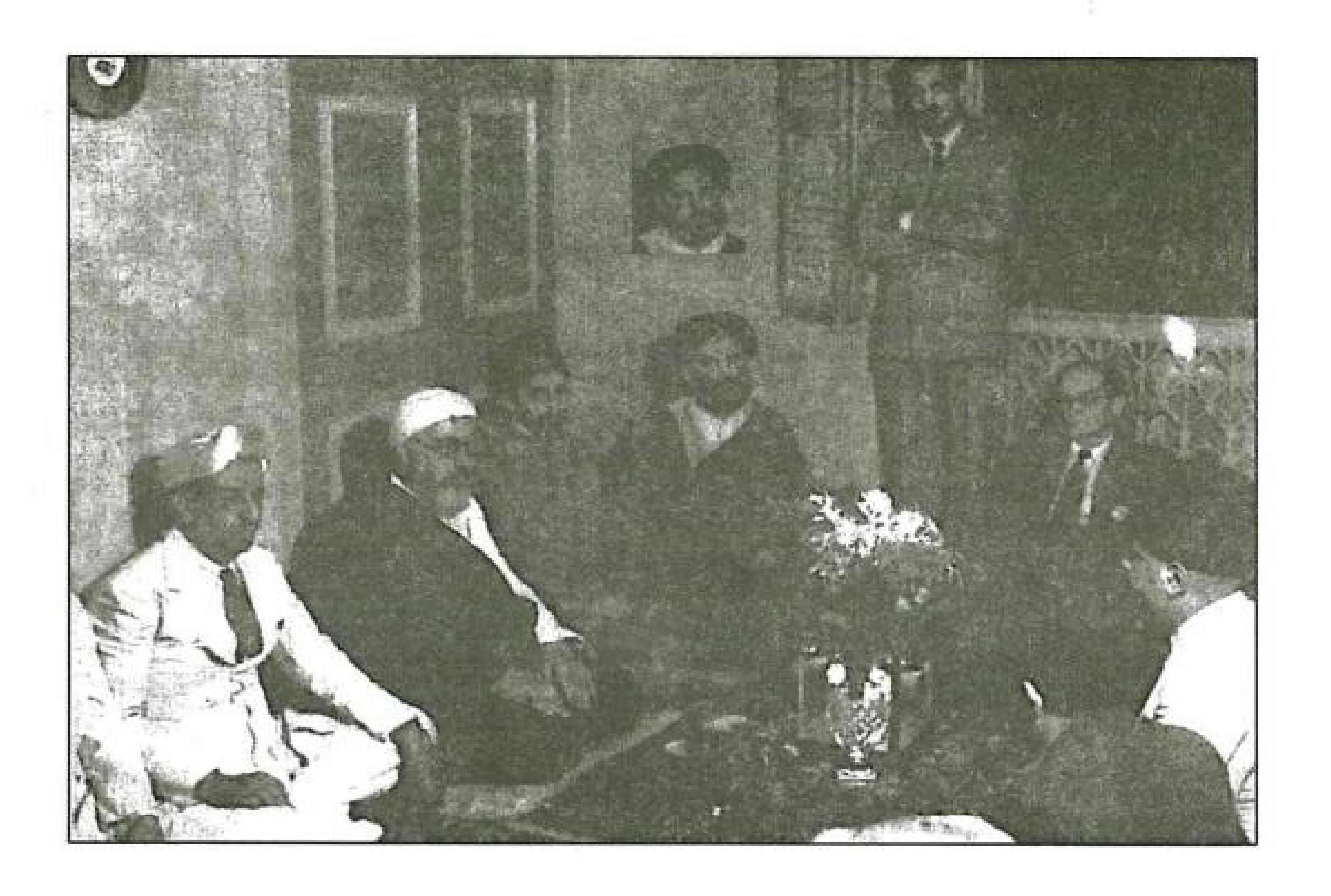
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com



صورة السيد حسن المسقطي الموسوي أخذت خلال الحرب العالمية الثانية، حوالي عام ١٩٤٠ ميلادي أي قبل حوالي ستين سنة.



صورة أخذت للسيد حسن المسقطي بمناسبة زواج أخيه السيد حسين الملقب بـ«العالم» (والد المؤلف) في ١٩٢٠ ميلادي ١٣٣٩ هجري، في جزيرة زنجبار بشرق أفريقيا. والعريس جالس على يمين أخيه السيد حسن المسقطي.



صورة أخذت للسيد حسن المسقطي في مومبي بالهند حوالي عام ١٩٤٠ ميلادي بمناسبة عقد قران أحد المؤمنين. والسيد حسن جالس على يمين الرجل الواقف في الصورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة على الطبعة الثانية

أكتب هذه المقدمة المتواضعة على الطبعة الثانية من كتاب «قدوة العارفين - سيرة العارف الكبير السيد حسن المسقطي الموسوي وكراماته» لكي أسرد بعض الوقائع التي حدثت منذ الطبعة الأولى والتي ترتبط بهذا الكتاب. فإنه من دواعي سروري أن أنقل للقراء الكرام بأن الكتاب قد ترجم إلى اللغتين الفارسية والإنكليزية، ما يؤكد توسع دائرة قراء الكتاب أضعافاً مضاعفة، والذي يوحي بالاهتمام الذي يتمتع به العرفان الإسلامي وسيرة العرفاء في هذا الزمان، الذي أصبحت فيه الحاجة إلى الروحانيات سمة مميزة، لخواء عالم التقدم التكنولوجي من الداخل رغم الانبهارات الظاهرية بهذا النوع من الحضارة.

إن الكلام عن عارف مستغرق في الله هو في الحقيقة كلام عن الله، والاستغراق في الحديث عنه هو استغراق في الله، ومصاحبته مصاحبة الله، ومجالسته مجالسة الله. فلقد أوصى الأنبياء والأوصياء بمصاحبتهم ومجالستهم. فلقد قال المسيح عليه السلام حينما سأله الحواريون: يا روح الله من نجالس؟ قال: «من يذكركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغبكم في الآخرة عمله». وقال النبي محمد صلى الله عليه وآله: «لا تجالسوا من العلماء إلا الذي يدعوكم من الخمس إلى الخمس: من الشك إلى اليقين ومن الكبر إلى

التواضع ومن العداوة إلى النصيحة ومن الرياء إلى الإخلاص ومن محبة الدنيا إلى الزهد». فالعرفاء هم العلماء الراسخون الذين تخلقوا بأخلاق الله، وتحلوا باليقين والتواضع والنصيحة والإخلاص والزهد وتواصوا بها، واختاروا التجافي عن الشك والتردد والكبر والتجبر، والغش والعداوة والنفاق والرياء، ومحبة الدنيا والتهالك على متاعها وزبرجها وزينتها، وانسابوا عنها انسياب المياه الجارية عن منحدرات الصياخيد الملساء، آمالهم عنها مكفوفة، وهمتهم عن زينتها مصروفة، وألحاظهم عن بهجتها مطروفة.

أيا من عاش في الدنيا طويلاً ... وأفنى العمر في قيل وقال

هب الدنيا تقاد إليك عفواً ... أليس مصير ذلك للزوال

وهم ورثة الأنبياء دون غيرهم الذين قال عنهم الرسول الأكرم ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».

فالعارف مصطبغ بصبغة الله، ويتمحور وجوده وقوله ومنطقه، وأفكاره وخواطره واهتماماته، وسلوكه وعمله على الله. فهو في تزكية دائمة، كي لا يبقى في وجوده سوى الله، عملاً بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]. وهو في جهاد دائم، لرفع كل أطياف الظلم عن روحه الزكية، عملاً بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وهو في ذكر دائم، لنفي كل أنواع الخواطر عن قلبه، عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وهو في استغراق دائم في الله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]. وهو دوماً ودأباً مع الله، وفي كثير من الأحيان هو سائح في جذباته الرحمانية، انجذاباً إلى العوالم العليا واستقراراً في أعلى عليين، في عبادة الواحد الأحد انطباقاً مع قول رسول الله ﷺ: «جذبة من جذبات الرحمن تعادل عبادة الثقلين». فإن عمله في الله بهذه الجذبات الرحمانية هي أفضل العبادات وأرقاها وأنقاها وأزكاها.

فإن أردت الفلاح فصاحب في الدنيا من يرغبك عمله وسلوكه في الله، ومن يرفعك كلامه ومنطقه إلى الله، ومن تذكرك اهتماماته القدسية وخلوصه وفناؤه في الله بالله. فمن أحسن عملاً ممن سلك طريقه إلى الله في مصاحبة العارف! فلقد قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «هلك من لم يكن له حكيم يرشده». أما العبارات التي تصف هؤلاء العرفاء بمذاق الصوفية وغيرها ـ تهكماً بهم ـ فهي عبارات مستحدثة لا تنطلق إلا عن جهل، واستكباراً من الأقزام، واستهجاناً لمقام هؤلاء الشامخين. أو كما يقول أبو الطيب المتنبي:

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مراً به الماء الزلالا

وعثرة القدم أسلم من عثرة اللسان، ومعظم الناس أعداء ما جهلوا يهبون مع كل ريح، والاستكبار شيمة الأقزام، والاستهجان والسخرية تحمل المصداقية لقول الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]. يقول الإمام علي عليه السلام في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك أن أعادي لك ولياً». ولكن...

لقد أسمعت لو ناديت حياً   ولكن لا حياة لمن تنادي
ونار إن نفخت بها أضاءت   ولكن أنت تنفخ في رماد

والأحرى وصفهم بصبغة الله والتزكية والجهاد الأكبر وذكر الله ودوامهم على الصلاة ودأبهم على الجذبات الرحمانية، كما ذكرها الله ورسوله، كي تكمم أفواه المضللين إلى الأبد، الذين ساءت ظنونهم بسبب السيىء من أعمالهم وأفعالهم.

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه   وصدق ما يعتاده من توهم

وما مثلهم في قبال العرفاء إلا كما قال الشاعر:

وما بال من أسعى لأجبر عظمه   حفاظاً وينوي من سفاهته كسري

وكما قال غيره:

مهلاً بني عمنا عن نحت أثلتنا   سيروا رويداً كما كنتم تسيرونا

وهل النفس المطمئنة الراجعة إلى ربها إلا كقطرة ماء ترجع إلى المحيط! فإن حقيقة وجودها تنم عن السبحات الربانية والجمال اللاهوتي

والجلال والكبرياء، كما أن قطرة ماء زلال، التي رجعت إلى أصلها، تنم عن حقيقتها التي هي ماء رجع إلى ماء. ولأن الله هو مبدأ وجودنا، فإن تمايلنا إلى المبدأ يفصح عن نفسه بتمايلنا إلى العرفاء وحبنا واتباعنا لهم. ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فقبل أيام راجعني أحد الشباب الذي كان قد قرأ هذا الكتاب وتأثر به، وقال لي إنه قد سمع من جده، الذي كان من مريدي السيد حسن المسقطي، الكثير من كرامات هذا السيد. وأيضاً أن عمه (والد زوجته) كان قد خدم السيد في صباه، ولا زالت ذاكرته تذخر بذكريات حية عن هذه الشخصية الفذة، الذي هو نسيج وحده، لا يشق غباره ولا له قرن يجاريه. ثم ذكر لي بعضاً من هذه الكرامات، فقلت له إني أريد أن أصدر الطبعة الثانية من هذا الكتاب، فما هو رأيه إن أنا ضمنت هذه الكرامات الجليلة في فصل خاص أضيفه إلى الكتاب؟ فوافق الشاب الكريم على هذا الاقتراح.

الخير يبقى وإن طال الزمان به   والشر أخبث ما أوعيت من زاد

وهناك أيضاً من الكهول الذين سمعوا بكرامات السيد حسن المسقطي من آبائهم الذين خدموه في طفولتهم. وهناك أيضاً من الشيوخ الذين تزيد أعمارهم عن الثمانين الذين شاهدوا هذه الكرامات بأنفسهم. فأحببت أن أضيف إلى الكتاب هذه الروايات الشخصية أو المنقولة. لذلك فلقد أضفت في الطبعة الثانية من هذا الكتاب فصلاً خاصاً سميته «روايات متفرقة عن كرامات السيد حسن المسقطي قدس سره» ووضعت هذا الفصل مباشرة بعد فصل «سلطان سيد حسن المسقطي على المطر» سائلاً وداعياً وراجياً من الله عز وجل لي الرحمة الواسعة والرعاية والعناية والقبول، وأن يسبغ على السيد حسن وعلى أجداده الطاهرين صلاة خالدة الدوام، عدد قطر الرهام، وزنة الجبال والآكام، ما أورق السلام، واختلف الضياء والظلام. فما هذه الكرامات التي ذكرتها إلا غيض من فيض، ونلخصها كالآتي:

١ ـ كرامة تثبت جوده وكرمه، حتى أنه ليهب الفقراء ثيابه التي عليه.

٢ ـ كرامة علمه الغيبي بجنابة الآخرين ونجاستهم.

٣ ـ كرامة قيام الليل والبكاء والنحيب بين يدي ربه.

٤ ـ كرامة طي الأرض وزيارة الإمام الحجة ﷺ له، بل هبته هذه الكرامات للآخرين.

٥ ـ كرامة تواضعه أمام أولياء الله، والذهاب إليهم أينما كانوا حتى على قمم الجبال وفي كهوفها، والالتذاذ بمصاحبتهم.

٦ ـ كرامة منطق الطير والتخاطب مع الحيوانات.

٧ ـ كرامة علمه الغيبي بمحل وجود أولياء الله في الجبال والكهوف، والسياحة في جوف الليالي لزيارتهم.

٨ ـ كرامة التنبؤ بالغيب بمن هم من أهل الجنة وبمصيرهم.

٩ ـ كرامة التنبؤ الدقيق بتكاليف المهن، وخلق النفس الأبية عنده.

١٠ ـ كرامة علمه الغيبي بمعصية الآخرين وبما في جيوبهم من نقود وبنيتهم للرشوة.

١١ ـ كرامة قراءة الأفكار والعلم بنية الآخرين.

١٢ ـ كرامة العلم الغيبي بما في جيوب الناس من نقود الربا وصراحته في الله، والإطلاع على ذلك بفضل التشويش الذي عكر صفائه أثناء الصلاة.

١٣ ـ معجزة بقاء الطعام على حاله رغم العدد الكبير من الضيوف الذين أكلوا منه، تماماً كمعجزة الرسول ﷺ في يوم الخندق في بيت جابر بن عبد الله الأنصاري (رض) ومعجزة المسيح ﷺ.

١٤ ـ كرامة المواعيد بينه وبين الإمام الحجة ﷺ والمراسلات فيما بينهما.

والتسعة الأخيرة من هذه الكرامات أي من البند ٦ إلى ١٤ رواها لي الفاضل حسين بن علي بن عبد الحسين حفظه الله.

وفي مساء الثامن من نوفمبر ٢٠٠٦ تلقيت دعوة من طهران لحضور

الندوة الثامنة عن العرفاء، وقد اختصت هذه الندوة بسيرة السيد حسن المسقطي قدس سره، وطلبوا مني إلقاء محاضرة عن هذه الشخصية الربانية.

وبهذه المناسبة أرى لزاماً علي أن أستدرك ما فاتني في الطبعة الأولى من الكتاب من ذكر أولئك الذين شجعوني على تكميل هذا الكتاب. فلقد كنت قد بدأت كتابة هذا الكتاب، وجمعت بعض الروايات والمعلومات عن السيد، وعقدت ندوة عن السيد حسن المسقطي في مسجد الإمام علي بن أبي طالب في الوادي الكبير.

وأتبع ليلى حيث سارت وودعت   وما الناس إلا آلف ومودع

وفي يوم من الأيام رآني أحد النخبة من المثقفين والشعراء المتألقين في عمان في إحدى المساجد، وأوصل لي رسالة شفوية من العلامة السيد محمد حسن ابن آية الله العظمى السيد علي ميرزا القاضي ـ أستاذ السيد حسن ومعلمه الرباني ـ مضمونها أن أكتب كتاباً عن السيد حسن المسقطي. ولا أعلم من أين عرف اسمي واستعدادي لكتابة مثل هذا الكتاب!

وقد علمت أسماء أن حديثها   نجيع كما ماء السماء نجيع

وبعد ذلك اتصلت مع العلامة السيد محمد حسن في طهران، فزارني ثلاث مرات في مقري هناك، وأثراني بمعلومات قيمة عن أبيه وعن تلميذه ومريده السيد حسن المسقطي، وشجعني على تكميل هذا الكتاب. وقد أهداني في تلك الزيارات كتابه القيم «صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف» الذي كان له دور كبير في إثراء معلوماتي عن هؤلاء العلماء الأجلاء الذين تخرجوا من مدرسة النجف الأشرف، والذين تحلق الناس حولهم في حياتهم وبعد مماتهم.

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم   قطينا لهم حتى إذا أنبت البقل

وفي خلال هذه الزيارات علمت بأنه هو الذي شجع المرحوم العلامة آية الله السيد محمد حسين الحسيني لكتابة كتابه الشهير «الروح المجرد» عن سيرة العارف الكبير السيد هاشم الحداد ـ أحد تلامذة السيد علي ميرزا القاضي قدس سره. وعلمت بأنه يشجع الكثيرين على الكتابة عن تلامذة

ومريدي السيد علي ميرزا القاضي، لتثبيت هذه الوقائع المهمة وسير هذه الشخصيات النادرة وهؤلاء الأعلام من النجف الأشرف في سجل التاريخ. فجزاه الله عن هذا المسعى الإلهي الرباني خير جزاء، وجعله فخراً لدنياه وذخراً لآخرته. ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٣٩ ـ ٤٢].

تقي بن حسين الموسوي

٢٠٠٦/١٢/١٩

المقدمة

«لقد بعثت إليكم ركنا من أركان الدين الإسلامي ودعامة من دعائم المعرفة والحكمة». هذا ما كتبه المجتهد الأكبر في زمانه السيد أبو الحسن الاصفهاني من النجف الأشرف في العراق إلى جماعة الشيعة في مسقط ومطرح ومنطقة الباطنة كلها من سلطنة عمان.

ذاك هو السيد حسن المسقطي الذي ورد إلى هذه الديار في سنة ١٩٣٠ ميلادية في أواخر عهد السيد تيمور وأوائل عهد السيد سعيد بن تيمور بن فيصل بن تركي آل سعيد.

فكان كالمزن الزاخر بالبركات، والسحب الحبلى بالخيرات، قادما من النجف الأشرف إلى سماء مطرح، مغدقا الودق على أهل عمان كما فعل سابقا بأهل العراق. فبدأ عهد ألهب حماس الدين والثقافة في مطرح ومسقط والباطنة جميعها. وظهر منه العلم النافع، والمعرفة الربانية، تعمان الباحثين عن الحق والحقيقة من أهل هذه الديار.

وأما الكرامات وعلم الغيب فهي لا تعد ولا تحصى، برزت بإذن الله كالمطر المنهمر، من هذا العالم العارف الرباني الزاهد الحكيم، كما ذكره القرآن الكريم في سورة الجن في آخر آياتها: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾.

وعندما بدأت التحقيق عن هذا الرجل العظيم، لم يكن في كنانتي إلا بعض الروايات الشفوية عن أفراد الجيل القديم، اما من أولئك الذين توفوا

ورحلوا عن هذه الدنيا، أو أولئك الذين كانوا في شرخ شبابهم عند قدوم السيد حسن، والآن يزيدون قليلا عن الثمانين من عمرهم، وقد خدموه في أوائل قدومه إلى هذه الديار، بل لقد امتزجت دماؤهم ولحمهم وعظامهم بتعاليمه ومكارم أخلاقه. حتى أني عندما نشرت كتابي «السموات السبع»، وذكرته على جلد الكتاب باسم «السيد حسن»، لم أكن أعرف أنه يعرف في الأوساط العلمية باسم «السيد حسن المسقطي»، إلا عندما نبهني إلى ذلك الشيخ هلال بن حسن اللواتي الذي يدرس في الحوزة العلمية في قم، وطلب مني أن أصححها في الطبعة الثانية.

وعندما قطعت شوطا من تحقيقي، اكتشفت بعون الله جل وعلا، أنه قد ألفت بعض الكتب عن أستاذه العارف الرباني الكبير السيد علي القاضي، وزميله العظيم السيد هاشم الحداد. ولحسن الحظ أشرقت هذه الكتب كثيرا من الجوانب الغامضة في حياته ـ طبعا من وجهة نظري ـ فلقد كنت أجهل كثيرا من جوانب حياته قبل قدومه إلى مسقط. فساعدتني هذه الكتب القيمة على اكتشاف هذه الجوانب من حياته ـ وأشكر الله على ذلك ـ واكتملت الصورة عندي تقريبا.

وقد بدأ اهتمامي بهذه الشخصية العظيمة منذ نعومة أظفاري، فقد كانت الروايات التي تروى عنه هنا وهناك، قد هزت كياني هزا، وكهرب مغناطيسه جميع وجودي، وغرزت شخصيته في أعماق روحي العوالم الملكوتية التي كان يعيش فيها، وصبغت عوالمه الغيبية كل حياتي بصبغتها العرفانية. وقد وقع كل هذا على الرغم من أني لم أره في حياتي قط ـ والأذن تعشق قبل العين أحيانا ـ وكان تأثيره علي عظيما، حتى أني تزوجت ابنته لأجل العشق الذي كنت أكنه له، وأنجبت منها أربعة أولاد.

ولقد حاولت أن أكتب عنه كل شيء يمت إلى حياته المعنوية بصلة ـ حسب مقدوري واستطاعتي ـ وبالإضافة إلى ذلك، فلقد نقلت عن هذه المصادر التي ذكرتها المعلومات الكثيرة عن حياته في النجف الأشرف، وعن أستاذه العظيم الذي تتلمذ على يديه، وعن زملائه في العرفان، وحتى

عن طريقته في السير والسلوك، وأسلوب أستاذه في تربية السالكين، وعن رؤيته العرفانية الواسعة. فالعشق الواله الذي حمله السيد حسن بالنسبة إلى أستاذه ومربيه، يثبت إثباتا، مدى ترويه من رحيق أسلوب الأستاذ، ومن رؤيته الشفافة الواسعة في أعماق الوجود البحت البسيط. فلقد وجدت لزاما علي أن أسلط الضوء على جميع جوانب حياته المعنوية والعرفانية.

وطبعاً لم أركز على الجوانب الشخصية كثيرا، فمثل هؤلاء لا يعيشون لأشخاصهم، فأعيانهم مفقودة، وآثارهم في القلوب موجودة. ومثل هؤلاء تفانوا في خدمة الله، وفنوا في ذات الله، فهم والله يمثلون بكل وجودهم (بحر الوجود)، ولم يصيبوا من (قطرة الماء) قطميرا ـ التكاثر يعبر عنه بقطرات الماء، كما أن وحدة الوجود يعبر عنها بالبحر، وما أسهل ضرب الأمثال بالماء لتوضيح الأساسيات في الوجود البحت البسيط ـ فهم قد استغنوا عن عالم التكاثر، وفنوا في وحدة الوجود، واستأنسوا بالله وهاموا بحبه، ولم يكن ذاك طارئا على حياتهم، فهم والمحبوب كمن فقد ضالته ثم وجدها، ولقد هاموا بالمحبوب منذ أن سمعوا نداءه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فأجابوه بكل شوق وهيام: ﴿بَلَىٰ﴾ ولم يكن هناك ظهور للنفس. فلقد وجدوا ضالتهم التي فقدوها وافتقدوها، فلما تراءت لناظريهم تذكروا النشوة التي كانوا فيها. وما أصدق الشاعر في بيان حالتهم:

وأخذك ميثاق الولا حيث لم أبن	بمظهر لبس النفس في فيء طينتي
وهمت بها في عالم الأمر حيث لا	ظهور وكانت نشوتي قبل نشأتي
وسر «بلى» لله مرآة كشفها	وإثبات معنى الجمع نفي المعية[١]

فهم والله ـ كما وصفهم جدهم علي بن أبي طالب عليه السلام في حديث الشراب ـ «إن لله شرابا لأوليائه إذا شربوا سكروا وإذا سكروا طابوا وإذا طابوا ذابوا وإذا ذابوا أخلصوا وإذا أخلصوا طلبوا وإذا طلبوا وجدوا وإذا وجدوا وصلوا وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم».

(١) التائية الكبرى المسماة بنظم السلوك لابن الفارض.

فمثل هؤلاء تساموا عن الجوانب الشخصية من حياتهم، لا يستأنسون بذلك، فلقد أوحشتهم العوالم، ولم يتخذوا غير الله مؤنسا وأنيسا. فهم والله كما ذكرهم جدهم الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك، حتى عرفوك ووحدوك، وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك، حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجأوا إلى غيرك، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك، لقد خاب من رضي دونك بدلا، ولقد خسر من بغى عنك متحولا».

وطبعا لا مناص من أن أعترف، بأني لا أعرف الكثير عن حياته في شبه القارة الهندية، وعن مريديه هناك (اللهم إلا المرحومين الحاج محمد خميس والأستاذ جواد الخابوري الذين تتلمذا عليه في مسقط وهاجرا معه إلى الهند، والمرحوم الشيخ رشيد ترابي الخطيب المفوه المعروف في جميع شبه القارة الهندية، والذي كان يتمتع بشعبية واسعة، وتبث محاضراته مباشرة من وسائل الإعلام في الهند وباكستان)، ولا أعرف الكثير عن تعاليمه وأسلوب تربيته للسالكين الهنود. إلا أني أعرف باليقين بأنه كان كثير السياحة في مناطق الهند المترامية الأطراف، وعلى الأخص حيدراباد دكن وكشمير. فلقد كان عنده في الهند أصدقاء كثيرون ـ أو على الأصح مريدون كثيرون ـ متعطشين لتعاليمه السامية.

وإني متأكد أن التحقيق في هذه الناحية من حياته يحتاج إلى كثير من الوقت والجهد. . . وطبعا إلى كتاب مستقل، نسأل الله أن يوفقنا إلى ذلك التحقيق وإلى تأليف مثل هذا الكتاب ـ ببركات دعاء المؤمنين في كل أنحاء العالم. إلا أن النزر اليسير من المعلومات التي توفقت إلى حصولها من معارف هؤلاء الأشخاص الثلاثة - الذين رحلوا عن هذا العالم الفاني - ذكرتها في مواضع مختلفة من هذا الكتاب.

وما أشبه قصة سيد حسن المسقطي بقصة أفلاطون عن السرداب المظلم، والشخص الذي أتى الى السرداب من العالم الخارجي، والتي

أشرنا الى بعض تفاصيلها في هذا الكتاب. يقول العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان ـ قدس سره: «وأفلاطون هو صاحب حكمة الإشراق، وكان رئيسا لسلسلة الرواقيين، وكان يحصل له انكشاف للحقائق والمعارف الإلهية بواسطة الرياضات والمجاهدات الباطنية عن طريق تصفية الباطن»[١].

وما أقرب اشتباه الأمثال! كما يقول مولانا علي عليه السلام. ومجمل القصة أن جماعة من الناس كانوا يعيشون في سرداب مظلم، قد ولدوا فيه وترعرعوا في داجيات غياهب دهاليزه، ومدلهمات أزقته الضيقة، وحنادس[٢] غرفه الكثيرة، قد مد الظلام رواقه[٣] الأسود في أغوارها، وعسعس الليل في جميع كهوفها وأوكارها، وتشابهت غياهب جبها في كل مسالكها وأطوارها. فهم لم يروا النور في حياتهم، ولم ينلهم شعاع دافئ من ضوء الشمس، ولم يطل عليهم سلسبيل بارد من نور القمر.

واستمرت حالتهم على هذا المنوال، الى ان أتى إليهم شخص من العالم الخارجي، وبدأ يتكلم إليهم بأشياء غريبة لم يعهدوها في حياتهم ـ عن عالم مشرق جميل، وروضة تزهر بالورود الحمراء، وتنتشر عليها الأنوار البيضاء، وعن حقول خضراء مترامية الأرجاء، وعن القبة الزرقاء مزينة بالنجوم الزهراء، وعن الشمس وحرارتها وضيائها الذي يبهر العيون، وعن القمر ونوره الذي يلهم العاشق المفتون، ويثير دفائن الإبداع في الشاعر المحزون، وعن عبير المسك والورود والأزهار والرياحين، وعن صفير البلابل وخرير الجداول، وعن أنهار جارية ومناظر خلابة ساحرة، وعن غابات خضراء تظللها الأشجار الباسقة، وتغرد فيها الطيور الصادحة، وترقص وتشدو وتروح وتغدو في ألوان خلابة زاهية، وغيرها الكثير من عجائب وغرائب لم تعهدها آذانهم من قبل.

---

(١) كتاب «الشمس الساطعة» صفحة ٣٨٩ لآية الله الراحل السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني - أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسية.

(٢) الحنادس = المدلهمات = الغياهب = الظلمات.

(٣) رواق الليل = مقدمه وجانبه.

فرابهم أمره وأهمهم همه، فبرموا[1] به واستثقلوا ظله، وامتعضوا منه امتعاضا شديدا. وظنوا بأنه يفعل ذلك ليتغفلهم عن أموالهم، ورفعة جاههم ومقامهم، وليختلس من غفلة الناس وسذاجتهم غرة، وينصب الحبائل لاستلاب الجيوب، وامتلاك أزمة الأمور. وإن أحدهم ليؤثر أن يتخطفه الطير أو يسقط عليه كسف من السماء على أن يستكين لإغراءاته، أو يسكت على مؤامراته، فهم ينهون عنه وينأون عنه.

إلا أن ثلة منهم أظهروا الاشتياق الى هذا العالم الجديد الذي يتكلم عنه، وكبر هذا الشخص في ذرعهم[2]، وألهب بيانه الشيق حماسهم، وأثار أشواقهم ودفائن أمنياتهم، فأقبلوا عليه في شوق وغرام، يستمعون الى لذيذ كلامه ولطيف بيانه، وسلوا[3] عن شهوات نفوسهم، وانقطعوا الى السلسبيل العذب من كلمات حبيبهم. إلا أن كبار القوم، ومن ورائهم الأكثرية العالمة الجاهلة، لم يستسيغوا تلكم التحولات، ورأوا في السماء غمامة دكناء يوشك أن تنفجر بالصاعقة الكبرى. فعمدوا الى المبادرة بإخمادها، وعندما لم يفلحوا وأعيت حيلتهم في إسكاته، صمموا على إبعاده من أوساطهم.

وما أقرب اشتباه الأمثال! وأشبه العارف بذاك الشخص الذي أتى من العالم الخارجي، ونزل الى السرداب في ليلة حالكة الجلباب غدافية الإهاب[4]!!

كذلك السيد حسن ظهر في النجف الأشرف، وبدأ يتكلم الى الطلاب في صحن الإمام علي عليه السلام في حرارة وحماس بالغين، وفي فصاحة وبلاغة منقطعتي النظير. وانبرى له من هنا وهناك معترضون يحتجون على بيانه، فبذهم بكلامه وغلب جميع المجادلين والمعاندين بحججه وبراهينه. فمالت ثلة منهم الى كلامه البليغ والى الحكمة الكامنة فيه كمون النار في

---

(١) برم به = سئمه وضجر منه.
(٢) كبر في ذرعه = عظم وقعه عنده.
(٣) سلا عنه = نسيه، طابت نفسه عنه وذهل عن ذكره وهجره.
(٤) الغداف = الغراب الأسود، الإهاب = الجلد.

الزند. فالتهبت أرواحهم شوقا الى النعيم المقيم، وسلوا عن سقط المتاع وتوافه الأمور.

إلا أن كبار القوم لم يحتملوا ذلك فحاولوا إسكاته، وانضم إليهم الأكثرية العالمة الجاهلة، تختلق شتى الانتقادات، وترميه بالسهام الجارحات، وتصوب اليه من فظائع الاتهامات. وعندما لم يبد انصياعا ولم يسكت، بل استمر في أداء الأمانة وتبليغ الرسالة، عمدوا الى إبعاده من أوساطهم، بحجة المهاجرة الى بلاد الله الواسعة لتبليغ الدين وترويجه.

وشاءت الأقدار أن يأتي السيد حسن الى مسقط حيث احتضنته الأرض الطيبة، واستقبلته القلوب البكر الصافية، وأخذت تتجمع في عشه وتتآخذ كما تتآخذ الأفراخ[1] في أعشاشها.

وتجمعت حوله حفنة من الاصدقاء المحبين له ولأسلوبه في الحياة، ومن المريدين العاشقين لله، الذين رفعهم السيد حسن الى شرفاته الشماء التي تطاول أفلاك السماء، والى ذرى آمالهم وأمنياتهم في الوصول الى الله. فتعلقوا به تعلق الأفراخ بأعشاشها والفصيل بأمه، حتى أن بعضهم انصاع الى أوامره بالسفر الى النجف الاشرف والتلمذة عند أستاذه ومربيه، حيث سافر وبقي في كنف الولي المرشد الى ما شاء الله. وأن بعضهم لم يحتملوا مفارقته عندما سافر الى الهند، وتركوا أوطانهم وهاجروا اليه واتبعوه اتباع الفصيل في اثر أمه.

وبقي الآخرون في أوطانهم كأنهم سكارى من رشفة خمره، وحيارى في عظيم أمره، يتهامسون بعميق أسراره، وكشف الغيب ومعجزاته، وخوارق عاداته وكشفياته، ينقلونها من جيل الى جيل، ومن صدر الى صدر، حتى انغرس حبه وأثمر غرسه وامتد عليهم ظله، كالشجرة التي ابتدأت بذورا وتعمقت جذورا، وترعرعت وريقات خضراء نامية، وأغصانا غضة لينة، وأزهارا طرية وثمارا جنية، ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ

(١) تتآخذ الأفراخ = آخذة بعضها بأعناق بعض.

﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ ثم نمت شجرات مؤلفات ومختلفات، صنوان[١] وغير صنوان، ترقص فوق بساط الأزهار، وتحت ظلال الأثمار، تغني فوق أغصانها الأطيار، وتشدو على باسقاتها البلابل بشجي الألحان والأوتار، وتزقزق خلال أوراقها الخضراء العصافير في بهجة وفرح وسرور وحبور.

وما هذا الكتاب إلا إحدى ثماره ولطيفة أزهاره، فلقد نمت شجرة العرفان عندنا، ونحن أطفال صغار، نحبو على أرض الأحرار، وتغذت من همسات الأجيال وزمزمة[٢] الرجال، وكنا نصغي الى القصة الخالدة عن عالم قريب بعيد، وجمال الوجه الرشيد، وعن الملأ الأعلى والسموات العلا، وعن فتوحات العارفين وأكوان المفلحين، فكانت تنفض عنا غبار الشهوات، وهيمنة الغرائز والرغبات، وتقبل بنا على شرف الحرية من قفص الدنيا الدنية، وعلى أسرار المعرفة ومغاليق الحكمة، نخترق بها حنادس الجهالة ومهاوي الضلالة.

وعندما ظهرت في مسقط آثاره، وانجلت أسراره، وتوطدت ههنا بنيان الوحدانية، وأمطرت مطر الرحمانية، ذاع صيته، وانتقلت أخباره الى النجف الاشرف، والى الحوزات العلمية في قم ومشهد ولبنان والبحرين والأحساء وحيدراباد وممبي وكشمير ولكنور، مهد العلوم في أرض الهند المترامية الأطراف. فسموه لذلك بالسيد حسن المسقطي، لانتماء هذه الدوحة الباسقة من العلم والمعرفة والعرفان الى بلاد مسقط وربوع الباطنة ومطرح. ولا زالت بصمته واضحة بينة على ربوع هذه البلدة الطيبة، فالقلوب الصافية تميل الى مناهل العرفان، ورياض المعرفة والغدران[٣]، وأودية الحق والغيطان[٤]، وعيون العلم التي لا تنضب، ولا تغيضها[٥]

(١) صنوان = توأمان من الشجر يشتركان في جذع واحد.
(٢) زمزم المغني = ترنم، وزمزمت به شفتاه = تحركت.
(٣) الغدران = الأحواض.
(٤) الغيطان = الحقول الخضراء.
(٥) يغيض الماء غيضا = ينقص وينضب.

الكثرة من الرواد والماتحين[١] والشاربين والواردين.

وكما في قصة أفلاطون عن السرداب المظلم، فقد رافقته قلة من المريدين في رحلته المقدسة، ألا هي رحلة السير والسلوك، عبر الدهاليز الحالكة والأزقة الضيقة، الى مقامات شاب فيها غراب الليل، ونصلت حنادسه من خضابها، واشتعل المبيض في مسودها، وأخذ الفجر يمسح عن وجهه صبغة الظلام، وطار نسر الصباح وحلق عاليا في الفضاء، وترفرفت أجنحة النور، وتزقزقت العصافير والطيور، وقصفت[٢] أجنحة الطير، وانسابت أشعة الفجر، ونشرت الشمس من تحت الأفق، أشعتها الساحرة الملونة بأطياف قوس قزح، على نمارق المروج الممهدة[٣]، وبساط الطبيعة المنبسطة، وعلى الغيطان الخضراء، والرياض الغناء، والبساتين الفيحاء[٤]، وبدأت أنامل الشفق ترسم بليقتها[٥]، وتصور بريشتها أنواع الفنون على سماء الصباح، الذي استيقظ من بعد سبات، وأشرق من بعد الغياهب والدياجير[٦]، وتثاءب من بعد نوم طويل، وتحرك من بعد ركود ثقيل.

واستمروا في الرحلة المقدسة، حيث فتح الله لهم كنوز الذهبان[٧]، ومعادن العقيان[٨]، ومغارس الجنان، وثنوا أعطافهم[٩] نحو المعطي، وسلوا عن العطاء، وتعطفت[١٠] الأمور عليهم في ذرى ملك ثابت، يطاول عنان السماء، وأفلاك القبة الزرقاء، ويضرب بجرانه[١١]، ويتسع نطاقه. وقد

(١) الماتحون = الذين يستخرجون الماء من البئر.
(٢) قصف = صوت الأجنحة.
(٣) النمارق الممهدة = الفرش الواسعة.
(٤) البساتين الفيحاء = الواسعة.
(٥) ليقة الدواة = صوفتها.
(٦) الغياهب = الدياجير = الظلمات.
(٧) الذهبان = الذهب.
(٨) العقيان = الذهب الخالص.
(٩) ثنوا أعطافهم نحوه = اتجهوا نحوه، ثنى = طوى، أعطاف = جوانب.
(١٠) تعطفت الأمور = سهلت، تعطف = انحنى ومال، تعطف عليه = رق له وبره.
(١١) ضرب الملك بجرانه = ثبت واستقر.

فلق الله لهم أسماع باطنهم وبصائر أفئدتهم، يفضي إليها الوجود بالأسرار، وتهمس إليها الأكوان بجواهر علم الأحرار.

وأختم كلمتي بما قاله سماحة العلامة الراحل آية الله السيد محمد الحسين الحسيني قدس سره في كتابه «الروح المجرد» صفحات ١١٠ ـ ١١١ ـ ١١٢ ـ ١١٣ كالآتي:ـ

وكان السيد هاشم يذكر السيد حسن المسقطي كثيرا في كلامه ويقول: كان له حرارة زائدة وتوحيد رفيع، وكان أستاذا في البحث وتدريس الحكمة، وكان متفوقا ومبرزا في المجادلة، فلم يكن أحد ليجرأ أن يجادله أو ينازعه ويبحث معه أمرا، إذن لكانت الإدانة من نصيبه.

وكان يجلس في الصحن المطهر لأمير المؤمنين عليه السلام فيدرس الطلاب درس الحكمة والعرفان، فكان يثير الحماس والهيجان بحيث كان ينفخ في طلابه روح التوحيد والخلوص والطهارة بدروسه المتينة المحكمة، ويسوقهم الى الإعراض عن الدنيا والاتجاه صوب العقبى وعالم التوحيد الحق.

ولقد نقل أتباع المرحوم آية الله السيد أبي الحسن الاصبهاني قدس سره له: إن السيد حسن لو استمر في دروسه فإن الحوزة العلمية ستنقلب الى حوزة توحيدية، ولأوصل جميع الطلاب الى عالم الربوبية الحق والى حقيقة عبوديتهم.

لذا فقد منع تدريس علم الحكمة الإلهية والعرفان في النجف، كما أمر السيد حسن بالذهاب الى مسقط للتبليغ وترويج الدين.

الى أن يقول:

وحين وصل مسقط كان له حظ في التبليغ والترويج وجعل أهل مسقط بأجمعهم من المؤمنين الموحدين، ودعاهم الى الصدق والإخلاص وإهمال الزخارف المادية والتعينات الصورية والاعتبارية، فعرفه الجميع على أنه مرشد الكل وهادي السبل، وأذعن أمام عظمته العالم والجاهل والعوام والخواص.

الى أن يقول:

نعم! لقد أبعدت حوزة النجف السيد حسن المسقطي، ولم تعلم هذه الحوزة الضالة المتحيرة أي جوهر ثمين فقدت! وأي رجل توحيد، وأي شخصية إلهية، وأي أسطوانة علم وسند فضيلة أضاعت! ولو علمت لكان جهلا بسيطا، ولكنه ـ ويا للأسف الشديد ـ الجهل المركب! فالسيد حسن أينما ذهب، الى مسقط أو الهند أو البحر أو الصحراء، فهو مع الله والله معه، وهو الساجد الراكع والملبس بلباس الإحرام ظاهرا وباطنا، وهو الداخل في عالم الولاية ومع الولي المطلق.

تقي بن حسين الموسوي
٣٠ يوليو ٢٠٠٢

الشجرة المباركة[1]

وأما نسبه الشريف فيرجع إلى الإمام موسى الكاظم عليه السلام وهاكم الشجرة المباركة: سيد حسن ابن سيد أسد الله ابن سيد محمد باقر ابن سيد أسد الله ابن سيد محمد باقر الشهير بحجة الإسلام ابن سيد محمد تقي ابن سيد محمد زكي ابن سيد محمد تقي ابن سيد شاه قاسم ابن السيد الأمير أشرف ابن سيد شاه قاسم ابن سيد شاه هدايت ابن السيد الأمير هاشم ابن السلطان السيد علي القاضي ابن سيد علي ابن سيد محمد ابن سيد علي ابن سيد محمد ابن سيد موسى ابن سيد جعفر ابن سيد إسماعيل ابن سيد أحمد ابن سيد محمد (نقيب طوس) ابن سيد أحمد المعروف بالمجدور ابن سيد محمد ابن سيد قاسم الملقب بالأعرابي ابن سيد أبي القاسم حمزة (الكوفة) ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام على زين العابدين ابن الإمام الحسين السبط ابن الإمام علي زوج فاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد رسول رب العالمين عليهم أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) كتاب «طبقات أعلام الشيعة» (القسم الأول من الجزء الثاني) - الكرام البررة من القرن الثالث بعد العشرة - تأليف الشيخ محمد محسن آغا بزرك الطهراني، المؤلف الشهير لكتاب «الذريعة في وسائل الشيعة» - تعليقات فضيلة العلامة الحجة السيد عبد العزيز الطباطبائي - الطبعة الثانية ١٤٠٤ هجرية - صفحات ١٩٢ - ١٩٦ (السيد محمد باقر المعروف بحجة الإسلام الاصفهاني - جد جد السيدين حسن المسقطي وحسين العالم) - وصفحات ١٢٤ - ١٢٦ (السيد أسد الله الاصفهاني).

دور السيد حسن والسيد حسين في حياة الأمة

وإذا كان أهل هذه الديار يعتزون بالعرفان والروحانيات، والتثقيف والتربية الدينية، والانطلاق في المعرفة والثقافة، فإن الدعامة فيها هو هذا العارف الكبير، والزاهد الحكيم، وأخوه الذي خلفه، وتولى أمور الدين من بعده لحوالى خمسين سنة، السيد حسين المعروف بالعالم، واللذان يستحقان الذكر الجميل والثناء النبيل.

ولعل الجيل الجديد قد نسوهما أو تناسوهما لبعد العهد، ولكن الجيل القديم لا يفتئون يذكرونهما بالخير والثناء الجميل، ويشكرونهما على الخدمات الغالية بل الخالدة، لأنها النافعة في حياة الدنيا وفي حياة الآخرة: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [(١)]. فجدير بنا أن نذكرهما، وخاصة للجيل الجديد، ونذكر خدماتهما وتعاليمهما وكراماتهما، حتى يبقى نبراس ذكراهما وهاجا في أذهان المؤمنين. ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [(٢)]. فالتعليم بالأسوة والقدوة أجدى وأبقى أثرا.

ونحن هنا في مقام ذكر السيد حسن المسقطي، وندع ذكر السيد حسين العالم لكتابنا التالي، إن شاء الله، وإذا مد الله سبحانه وتعالى في عمرنا بفضله وكرمه.

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٤.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١.

نبذة من حياة سيد حسن الشخصية

إن حياة السيد حسن زاخرة بالأحداث الغيبية، وبالكرامات التي توجه الله بها، ونحن في هذه العجالة، ورغبة منا في اختصار الكلام، نعرض على القراء الكرام نبذة عن حياته، من التي جمعناها من الروايات الشفوية عن الناس الموثوقين بهم، الذين عايشوه ورافقوه في حياته، والشذر اليسير من الروايات التي دونت عن حياته ومقاماته الرفيعة ـ وما أقل ما دون عن حياة هذا الرجل العظيم ...

ولد في العراق في مدينة كربلاء حوالى سنة ١٨٩٧ ميلادية، وتوفي في الهند في مدينة حيدراباد دكن حوالى سنة ١٩٤٨، ويوجد قبره الشريف في مقبرة المؤمن في حيدراباد، وهو أول قبر على اليمين عند دخولك بوابة المقبرة، مكتوبة عليه هذه الآية الكريمة: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [1].

ولقد تتلمذ على علماء كثيرين آخرهم عالم الأخلاق والحكمة السيد علي القاضي. وكان لهذا العالم الفذ، والولي المرشد، والعارف الرباني الكامل المكمل، أثر كبير في حياته، ألهب فيه نار العشق الإلهي، فهام بالله هياما وكان العشق الإلهي هو المذهب الغالب عليه وعلى جميع وجوده وملته المتميزة لا يميل عنها قيد أنملة. وما أكثر ما علمه أستاذه العظيم هذا الدعاء: «إلهي ارزقني حبك وحب ما تحبه وحب من يحبك والعمل الذي يبلغني إلى حبك واجعل حبك أحب الأشياء إلي». ولله در الشاعر:

وعن مذهبي في الحب ما لي مذهب وإن ملت يوما عنه فارقت ملتي

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٧.

هو الحب إن لم تقض لم تقض مأربا من الحب فاختر ذاك أو خل خلتي[1].

وهاجر بكل وجوده إلى أستاذه كما هاجر لوط عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام وأصبح فانيا في أستاذه كما فعل لوط عليه السلام. هذا الأستاذ الذي منحه علما نافعا ألا وهو ميراث وعلم النبيين والصديقين، وأجلى له في مرآته الحقيقة الساطعة التي طالما كان يفتقدها وكانت ضالته في حياته. فورد التلميذ سبيل الأستاذ وشرع في تطبيق تعاليمه السامية على نفسه. وصدق الشاعر حيث قال:

منحتك علما إن ترد كشفه فرد سبيلي واشرع في اتباع شريعتي
جنى ثمر العرفان من فرع فطنة زكا باتباعي وهو من أصل فطرتي
فإن سيل عن معنى أتى بغرائب عن الفهم جلت بل عن الوهم دقت
بمرآة قولي إن عزمت أريكه فأصغ لما ألقي بسمع بصيرة[2]

فعاش بقية حياته عاشقا ولهانا، لا يرى إلا الله، ولا يسمع إلا كلامه، ولا ينطق إلا بلسانه، يعيش في الانقطاع الكلي إلى الله، والتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود ـ كما جاء في الحديث القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت بصره الذي يبصر به، وسمعه الذي يسمع به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يسعى بها، فبي يبصر وبي يسمع وبي ينطق وبي يبطش وبي يسعى، وإن استعانني أعنته، وإن دعاني أجبته».

ولقد تزوج السيد حسن من نرجس بنت السيد محمد تقي ـ المرجع الديني في الهند ـ وأنجبت له مصطفى (الذي يقيم الآن في الولايات المتحدة الأمريكية) ـ وكان قد أقام برهة في طفولته في مطرح مع والده ـ ثم أربع بنات من بعده: صديقة وزكية وطاهرة ورضية. وتزوج ثانية من إحدى العمانيات واسمها سكينة (حفيدة ملياني خديجة)، أثناء إقامته في مطرح، إلا أنه لم ينجب منها ذرية.

(١) التائية الكبرى المسماة بنظم السلوك لابن الفارض.

(٢) التائية الكبرى المسماة بنظم السلوك لابن الفارض.

ظهوره في النجف الأشرف

روى لي ابن عمتي المرحوم السيد مهدي ابن السيد جواد (وهو آنذاك في الخالص في العراق) أن عمي السيد حسن كان له شأن عظيم في النجف الأشرف، وقد وهبه الله الفصاحة والبلاغة منقطعتي النظير، وحماسا وحرارة ربانية يلين لها الحديد، وتخضع لديها النفوس، وكلاما ينفذ إلى أعماق القلوب. وكان يحضر محاضراته حوالى خمسمائة من طلاب العلم في صحن الإمام علي عليه السلام. وكانت لديه هيبة البلاغ، وقوة الإقناع، تثير الحماس والهيجان بين الطلاب. وبدأ هناك جو يختلف عن الأجواء التقليدية، فخشيت كبار القوم من هذه الموجة العرفانية، والمسحة الربانية، وأرسلوه إلى مسقط.

وتأكيدا لهذه الرواية قرأت في كتاب «الروح المجرد» [1]: «وباعتبار أن المرحوم السيد حسن الاصبهاني المسقطي، وكان من أعاظم تلامذة المرحوم القاضي، وله علاقات ممتدة وحسنة جدا مع السيد هاشم الحداد، قد رحل عن الدنيا. . . وكان السيد هاشم يذكر السيد حسن المسقطي كثيرا في كلامه ويقول: كان له حرارة زائدة وتوحيد رفيع، وكان أستاذا في البحث وتدريس الحكمة، وكان متفوقا ومبرزا في المجادلة، فلم يكن أحد ليجرأ أن يجادله أو ينازعه ويبحث معه أمرا، إذن لكانت الإدانة من نصيبه.

وكان يجلس في الصحن المطهر لأمير المؤمنين عليه السلام، فيدرس الطلاب درس الحكمة والعرفان، فكان يثير الحماس والهيجان، بحيث كان ينفخ في طلابه روح التوحيد والخلوص والطهارة بدروسه المتينة المحكمة، ويسوقهم

---

(١) صفحة ١١٠ إلى ١١٣ للمرحوم سماحة العلامة آية الله السيد محمد الحسين الحسيني.

إلى الإعراض عن الدنيا والاتجاه صوب العقبى وعالم التوحيد الحق.

ولقد نقل أتباع المرحوم آية الله السيد أبي الحسن الاصبهاني قدس سره له: إن السيد حسن لو استمر في دروسه فإن الحوزة العلمية ستنقلب إلى حوزة توحيدية، ولأوصل جميع الطلاب إلى عالم الربوبية الحق وإلى حقيقة عبوديتهم.

لذا فقد منع تدريس علم الحكمة الإلهية والعرفان في النجف، كما أمر السيد حسن بالذهاب إلى مسقط للتبليغ وترويج الدين.

ولم يكن للسيد حسن أدنى رغبة في الخروج من النجف الأشرف، وكان فراق المرحوم القاضي بالنسبة له من أصعب الأمور والمشكلات، لذا فقد ذهب إلى أستاذه السيد القاضي وقال له: أتسمحون أن أستمر في الدرس وأتجاهل منع السيد وأستمر في الجهاد في طريق التوحيد؟!.

فرد المرحوم آية الله القاضي عليه: اذهب من النجف إلى مسقط حسب أمر السيد! إن الله معك، وسيهديك ويأخذ بيدك حيثما كنت فيوصلك إلى المطلوب الغائي ونهاية درب السلوك وأعلى ذروة في قمة التوحيد والمعرفة.

وهكذا فقد سافر السيد حسن إلى مسقط، وكان اصبهاني الأصل ومعروفا بالاصبهاني ثم عرف بعد ذلك بالمسقطي. وكان لا يرد في طريقه إلى مسقط فندقا أو دار ضيافة، بل كان يأوي إلى المساجد. وحين وصل مسقط كان له حظ في التبليغ والترويج وجعل أهل مسقط بأجمعهم من المؤمنين الموحدين، ودعاهم إلى الصدق والإخلاص وإهمال الزخارف المادية والتعينات الصورية والاعتبارية، فعرفه الجميع على أنه مرشد الكل وهادي السبل، وأذعن أمام عظمته العالم والجاهل والعوام والخواص. وكان آخر عمره يعيش دوما مرتديا لباسي الإحرام.

وكان أن دعوه للذهاب إلى الهند، فأجاب دعوتهم وشد الرحال إلى تلك الديار في سبيله إلى المقصود. ولم يكن كذلك ليحل في طريقه بالفنادق بل كان يذهب إلى المساجد فيبيت فيها، ثم وجدوه في الطريق

بينما كان يسافر من مدينة لأخرى، في مسجد من المساجد مرتديا نفس ثوبي الإحرام وقد فارق الحياة حال سجوده.

«ولولا الأجل الذي كتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب وخوفا من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم. فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون. قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة.

صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة، تجارة مربحة يسرها لهم ربهم. أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها. أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا، يحزنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم.... ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، ويقول: قد خولطوا، ولقد خالطهم أمر عظيم»[(١)].

نعم! لقد أبعدت حوزة النجف السيد حسن المسقطي، ولم تعلم هذه الحوزة الضالة المتحيرة أي جوهر ثمين فقدت! وأي رجل توحيد، وأي شخصية إلهية، وأي أسطوانة علم وسند فضيلة أضاعت! ولو علمت لكان جهلا بسيطا، ولكنه ـ ويا للأسف الشديد ـ الجهل المركب! السيد حسن أينما ذهب، إلى مسقط أو الهند أو البحر أو الصحراء، فهو مع الله والله معه، وهو الساجد الراكع والملبس بلباس الإحرام ظاهرا وباطنا، وهو الداخل في عالم الولاية ومع الولي المطلق!.

«والمعروف أن آية الله الاصبهاني إنما بعثه إلى مسقط ليخلي الحوزة العلمية في النجف من أساتذة الفلسفة المرموقين، وليبعده عن حلقة القاضي، بينما هو (رحمه الله) ما كان يرغب أبدا في مغادرة النجف

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩١ خطبة همام طبعة مصر ـ مطبعة عيسى البابي، مع هامش الشيخ محمد عبده، ج ١، ص ٣٩٦-٣٩٧ .

الأشرف ومفارقة أستاذه، إلا أن السيد القاضي ـ قدس سره ـ أمره بالمغادرة سريعا، وامتثال أمر آية الله الاصبهاني.

وعلى أي حال، فقد سافر السيد مع مكانته العلمية وجلالة قدره إلى مسقط، وزاول هناك أعماله ووظائفه الدينية والإرشادية على أحسن وجه، وإن الشيعة من أهل مسقط يذكرونه وينقلون عنه مآثر وكرامات... ومن مساعيه نشأ جمع من الشبيبة اتجهوا نحو الدراسات الإسلامية، ومن ثم الأخلاقية والعرفانية، ولا يزالون.

وذاع صيته هناك، وذهب اسمه إلى الهند... وله على ما نقل عدة سفرات إليها، والاجتماع بمجموعة الطلبة المتواجدين هناك، في مدرسة كانت تسمى حينذاك (مدرسة الواعظين)، تخرج منها جمع كثير من الطلبة والوعاظ والخطباء.

وفي أواخر أيامه دعاه الأمير نظام آباد صاحب حيدرآباد دكن وصاحب المكتبة المعروفة... وقد أجاب دعوته بعد إلحاح كثير، وسافر حوالى سنة (١٣٥٠ للهجرة) إلى بمبي... وكان يتخذ المساجد محلا للاستراحة والبيتوتة... وفي بمبي حين كان ينزل في أحد المساجد في طريقه إلى حيدرآباد... وجد ميتا وهو في حالة السجود بعد صلاة الصبح، ودفن جوار ذلك المسجد... وله مزار معروف.

وكانت مراسلاته لا تنقطع مع صديقه السيد القاضي، وإنما أقول صديقه لأنه (قدس سره) ما كان يرضى أبدا أن يقال لأحد منهم تلميذ، وكان يمنع من ذلك أشد المنع، ويقول عن مجموعته: إنهم علماء أعلام، ومشايخ وفقهاء من الطبقة الأولى. وكان لخبر وفاته أسوأ الأثر في نفسه، فقد مرت عليه أيام وهو لا يتكلم وغارقا في التأمل والتفكير...»[١].

---

(١) كتاب «صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف» صفحة ٢٤٣ ـ ٢٤٤ لسماحة العلامة محمد حسن ابن السيد علي القاضي.

ويقول سماحة العلامة آية الله السيد محمد الحسين الحسيني[1]: «قال سماحة السيد محمد حسن القاضي ـ أدام الله أيام بركاته ـ ابن المرحوم القاضي أعلى الله درجته: لقد أبرق بنبأ رحلة المرحوم المسقطي إلى سماحة السيد أبي الحسن الاصبهاني، فأرسل البرقية التي تتضمن نبأ الوفاة بيد أحدهم إلى المرحوم القاضي، وكان قد اتخذ غرفة في مدرسة الهندي. وكنت في صحن المدرسة مع العلامة الطباطبائي والشيخ محمد تقي الآملي وغيرهما من تلامذة القاضي، فلم يجرأ أحد منهم أن ينقل خبر رحيل المسقطي إلى الغرفة العليا ويوصله إلى المرحوم القاضي، فقد كانوا يعلمون أن هذا النبأ غير محتمل بالنسبة للمرحوم القاضي، لفرط علاقته بالمسقطي، لذا فقد اختاروا السيد هاشم الحداد لإيصال الخبر إليه، فلما نقل إليه النبأ التفت إليه المرحوم القاضي قائلا: أعلم بذلك!».

ويقول سماحة العلامة آية الله السيد محمد الحسين الحسيني[2]: «لقد كان بحث الحكمة والفلسفة شائعا ورائجا في الحوزات العلمية للشيعة والمعتزلة، خلافا للأشاعرة الذين لم يكونوا يبحثون في المطالب العقلية. لذا فقد حاز متكلمو الشيعة قصب السبق والظفر والتفوق طيلة أكثر من ألف سنة ماضية، وقد تخرج من هذه الحوزات علماء وفقهاء أمثال هشام بن الحكم، والسيد المرتضى، والشيخ المفيد، والخواجة نصير الدين الطوسي، والعلامة الحلي، وميرداماد، والملا صدرا الشيرازي، والقاضي نور الله التستري، وأخيرا السيد مهدي بحر العلوم، والآخوند ملا محمد كاظم الخراساني، والحاج الميرزا محمد حسن الاشتياني، وابنه الحاج الميرزا أحمد الاشتياني، والحاج الميرزا مهدي الاشتياني، والآخوند الملا حسين قلي الهمداني، والسيد أحمد الكربلائي الطهراني، والحاج الميرزا محمد حسن النائيني، والحاج الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والحاج الشيخ محمد حسين الاصبهاني الكمباني، والحاج الملا مهدي

---

(١) في حاشية كتابه «الروح المجرد» صفحة ١١٢.

(٢) في حاشية كتابه «الروح المجرد» صفحة ١١٣ إلى ١١٥.

النراقي، والحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي، والشيخ محمد باقر الاصطهباناتي، والشيخ أحمد الشيرازي، والحاج الميرزا فتح الله المشهور بشيخ الشريعة الاصبهاني، والحاج السيد أحمد الخونساري، والحاج الشيخ محمد علي شاه آبادي، وتلميذه الميرزا القائد الكبير الفقيد للثورة الإسلامية آية الله الحاج روح الله الخميني، والحاج الميرزا أبو الحسن الرفيعي القزويني، والسيد حسين بادكوبه أي، وتلميذيه أستاذنا الأكرم العلامة الطباطبائي، وأخيه الحاج السيد محمد حسن الإلهي التبريزي، وغيرهم ممن يضيقون على الحصر والعد، أولئك الذين كانوا حماة للدين والقرآن ولشريعة سيد المرسلين والأئمة الطاهرين.

وبناء على هذا الأساس فإن البحث التفسيري للقرآن الكريم وتدريس الحكمة والفلسفة والعلوم العقلية وحوزات العرفان والأخلاق هي من الضرورات اللازمة لهذه الحوزات الفقهية لا تنفك عنها. وكان المرحوم آية الله السيد عبد الهادي الشيرازي يتأسف ليلة في مجلس خلوة ويقول: كان هناك في النجف الأشرف حين قدمت للدراسة اثنا عشر حوزة رسمية لتدريس الأخلاق والعرفان، والآن ليس هناك حتى حوزة واحدة.

نعم، لقد استمرت هذه الحوزات فعالة بتدريس الأبحاث القرآنية والتفسيرية والأخلاقية والعرفانية والحكمية والفلسفية إلى زمن النهضة الدستورية، ثم سعى الاستعمار الكافر:

أولا: إلى إنهاء وجود النجف كمركز علمي وفقهي وإلى نقل الحوزات وتفريقها إلى أماكن أخرى.

وثانيا: لإنهاء تدريس القرآن والتفسير والعلوم العقلية والفلسفية من الحوزات الشيعية ليصبح علماؤهم كالأشاعرة من العامة والاخباريين والحشويين يهتمون بالظواهر في حين يبقى المحتوى واللب خاليا فارغا، وذلك لئلا يثور عليهم أحد أو يقف بوجههم، ولتهبط قدرة وإمكانية البحث والتفكير والمسائل العقلية والعلمية في الحوزات، فتتغلب عليها خططهم ودسائسهم المموهة.

وإلى هذا اليوم فقد استأصل بحث التفسير والبحوث القرآنية وبحوث الحكمة والفلسفة والعرفان استئصالا تاما، فصار العلماء الأعلام والفضلاء العظام يعدون تدريسها من الأمور الوضيعة.

وقد نقل المرحوم آية الله الشيخ مرتضى المطهري للحقير عن سماحة آية الله الحاج السيد رضي الشيرازي ـ دامت بركاته ـ أنه قال: قلت لأحد المراجع العظام المشهورين والمعروفين في إحدى سفراتي الأخيرة إلى العتبات المقدسة: لماذا لا تبدأون درس التفسير في الحوزة؟ قال: ليس ذلك ممكنا مع وضعنا وموقعنا الحالي! قلت: لماذا كان ذلك ممكنا للعلامة الطباطبائي حين جعله درسا رسميا في الحوزة العلمية لقم؟!

قال: لقد قام بتضحية حين فعل ذلك (أي أنه ضحى بنفسه)! أورد هذا المطلب هنا ليعلم الجميع أن أساس مدرسة التشيع قائم على التضحية، وعلى العلماء العظام والفضلاء الفخام أن يكونوا السباقين في هذا المضمار، وإلا فما الفرق بين حوزاتنا مع حوزات العامة من الحنابلة والشافعية والمالكية والحنفية الذين يشغلون أنفسهم بالأبحاث والمسائل بدون الاستناد إلى مسألة الولاية؟.

ويذكر العلامة السيد محمد حسن القاضي في كتابه [1] ضمن تعليقه على بيت من شعر أبيه السيد علي القاضي:

خذ يا ولي فإني خائف قلق   مني الكلام لأهل الشك والريب

«... وهذا ما يتفق كثيرا للإنسان أثناء الحديث إذا كان لا يريد أن يصرح بكل ما عنده ويحاول أن يرمز في حديثه أو يشير إلى بعض جوانبه.

هذا عن القلق، أما لماذا الخوف؟ تعلم ذلك... لأن مثل هذا الكلام بالنسبة لأمثاله من الذين كانوا يرمون بالتصوف والعرفان كان يحمل على أنواع من التوجيهات والتي كانت غير مرغوب فيها في تلكم الفترة بالذات.

---

(١) صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف صفحة ٣٧-٣٨.

جمع آية الله العظمى السيد أبو الحسن الاصبهاني المتوفى (١٣٦٥ للهجرة) علية القوم من الروحانيين والعلماء. وكان يومذاك زعيم الطائفة، والمبسوط اليد في النجف الأشرف، وحث المجتمعين ودعاهم بصورة جدية إلى طرد الفلسفة والعرفان من الحوزة العلمية، وقد شمل هذا المنع حتى العلماء المختصين بدراسة الفلسفة، فامتنعوا من التدريس، أو كانوا يدرسون بصورة سرية، دون أن تعلم بهم الجهات المختصة بمطاردة هذه الدراسات.

والعرفان كان يدرس من قبل جماعة من علماء الأخلاق، المعروفين بحلقهم وتلاميذهم واجتماعاتهم، وكثرة ترددهم على مساجد الكوفة والسهلة، وهؤلاء أخذوا في التكتم، وعدم التظاهر، والالتزام في كلامهم أن لا يفسر بتفاسير عرفانية أو صوفية ـ كما كانوا يعبرون ـ مع أن مجالسهم ما كان يحضرها إلا الأخصاء، مع العلم أنهم ما كانوا يراقبون أو يخافون من أحد. . . إلا عدم رغبتهم في إيجاد التفرقة في صفوف جامعة النجف الأشرف، وما كان من الصحيح أن يبدو معارضتهم لمن انتهت إليه زعامة الشيعة في ذلك الوقت. . . ومن هنا نشأ سبب تكتمه أو خوفه ـ على حد تعبيره ـ وانزوائه وحرمانه. . . وكذلك جل تلاميذه وأصحابه المختصين به. . . وحتى شمل بعضهم النفي والتشريد».

ويعلق السيد السند والحبر المعتمد سماحة العلامة آية الله السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني في الملحق صفحة ٦ من نفس الكتاب على ما أورده السيد محمد حسن القاضي في صفحة ٣٨ بشأن آية الله العظمى السيد أبو الحسن الإصبهاني : ـ

«حتى نص لهم (رحمه الله تعالى وعفا عنه): إعلموا أني أتصرف في سهم الإمام عليه السلام على نهج الملكية (لأنه كان يستدين من تجار النجف ويصرف على الطلبة، ثم تأتيه المبرات) وبما أني خادم الشرع وفقيه أهل البيت فسهم الإمام ملك لي، ولا أرضى أن يصرف منه فلس واحد لمن يشتغل بالحكمة والعرفان، أو أراد إصلاح أمر الحوزة وإيجاد التغيير في

نظمها وترتيبها وامتحان دروس طلابها بتاتا (والنظم عندي في اللانظم)، ثم قام من مجلسه ولم يسمح لأحد منهم بالكلام، ولو بكلمة واحدة.

ثم أردف ...أقول: «ولعمري من أين جاء هذا الأمر؟! وما الذي دعاه إلى أن يتخذ مثل هذا التصميم؟! ويبعد عن النجف الأشرف طريق البحث العقلي على نهج البرهان والقياس الاستدلالي، و(يمنع) المعنوية الروحية من الطلاب وحسن أخلاقهم واستقامة سلوكهم... فأصبحت النجف خالية من العلوم الإلهية وعرفانه جل وعلا، وعرف العامة بأنه وحده العالم العلم ...إلى آخر ما أفاد حفظه الله ورعاه»..

وفي صفحة ١١ من ملحق نفس الكتاب يذكر العلامة الحسيني معلقا على تسفير آية الله العظمى الاصبهاني للسيد حسن المسقطي إلى مسقط للإرشاد والتبليغ، قال: «بل بإخراجه ونفيه من النجف الوطن المألوف (له) ومحل بحثه ودرسه وتشرفه عند السيد القاضي خوفا من كلامه البليغ ومنطقه العميق وعلمه الواسع، حيث كان يرد على مخالفي العلوم الإلهية (الفلسفية) وكانوا يخشون منه أن يحول حوزة النجف حوزة فلسفية وعرفانية إلهية... وإن شاء الله ستؤسس حوزة جديدة في النجف كما يتناسب وشأن المدينة المقدسة».

ولقد كتب الأستاذ عبد الرحمن حاتم بإسهاب في كتابه [١] عن محنة العرفان في النجف الأشرف وعن قصة السيد حسن المسقطي نورد منه ما يلي: ـ «لقد عانى السيد القاضي كثيرا في سبيل تربية ثلة من طلاب العلوم الدينية من الأجواء الراكدة في الحوزة العلمية في النجف، التي كان لها موقف متشنج من تدريس الفلسفة والعرفان.

يقول السيد عبد الكريم الكشميري: كان السيد القاضي مشهورا بالعرفان في النجف، ولذا كان تلاميذه يحذرون من التردد على بيت

(١) قدوة العارفين صفحة ٦٨ إلى ٧٠.

أستاذهم خوفا من ألسنة المعاندين، فكانوا لا يدخلون داره إلى أن يفرغ الزقاق من المارة.

ويقول السيد الكشميري أيضا: كنت يوما واقفا مع السيد القاضي في صحن مرقد أمير المؤمنين عليه السلام فرآني أحد فضلاء الحوزة وأخذ يهز رأسه أسفا على وقوفي مع السيد القاضي.

وكان آية الله محمد علي البروجردي يقرر درس السيد القاضي فمنعه أحد علماء النجف المعروفين من حضور درس السيد القاضي وقال له: لا تذهب إلى هذه المجالس فتتخلف عن الحصول على درجة الاجتهاد في علوم الحوزة في الفقه والأصول. فكان يأتي سرا ويحضر درس أستاذه.

ويقول السيد محمد حسن نجل السيد القاضي: وكان له قدس سره من المعاندين والمخالفين كثرة في النجف الأشرف، وكان رأيه مجاملة ومسايرة المجتمع الذي يعيش فيه فإنه من الحزم أن لا يصرح بشيء من أمثال هذه الآراء التي بظاهرها تنافي ما عليه جماعة العلماء والفقهاء. ولقد ناقشه غير واحد من أخصائه ـ وأنا بالذات ـ فكان الجواب الأخير: أتريدون أن أذكر في التاريخ بأن القاضي خالف فقهاء زمانه، ولا أريد أن أذكر هكذا أبدا.

وإلى يومنا هذا هناك الكثيرون من المعاندين والمخالفين للعرفاء يحصبونهم بحصباء الانحراف، ويحثون في وجوههم تراب الكراهية والسخرية والازدراء، بل ربما رضخوهم بحجارة الكفر حتى كادوا أن يثخنوهم بالاضطهاد، ظانين من عند أنفسهم الغيرة على الدين، وانهم ينافحون عنه، او ربما فعلوا ذلك مشايعة لمذهب او مناصبة لطريقة، تاركين الجهل والعمى يستحكم في نفوسهم. ثم انهم يذهبون في امر العرفاء مذاهب بعيدة مترامية، وينتقدونهم بشتى الطرق والحجج والوسائل، وينثرون عليهم تهمهم جزافا، مرة بالتصوف وأخرى بازدراء الدنيا وتركها وترك زينتها ومباهجها، مستندين إلى أقوال الأئمة عليهم السلام بأخذ نصيبك من الدنيا، ناسين أقوالهم عليهم السلام بما يطابق القرآن الكريم عندما يقول: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ

ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [1]. فهم قد نسوا ابتغاء الآخرة أولا ثم عدم نسيان النصيب من الدنيا، كعادتهم لتبرير أعمالهم وتضليل العامة وتأليبهم على العرفاء، أو كما يقول الشاعر:

حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

ويستعملون الحجج والبراهين المختلفة الواهية لإصدار الأحكام عليهم وكأنها أحكام الدين ـ عينا وبالضبط مثل الأحكام التي أصدرها قاضي الكوفة شريح القاضي لقتل الحسين عليه السلام بحجة أنه خرج على أولياء الأمور، فانقادت العامة إلى حججهم وبراهينهم وفتاويهم الواهية وتألبوا على قتل سبط الرسول صلى الله عليه وآله. والمعروف أن شريح القاضي كان قاضيا متمرسا وطويل العهد بالقضاء منذ عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام. وللسبب نفسه يقول الإمام زين العابدين عليه السلام:

ورب جوهر علم لو أبوح به | لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستباح رجال المسلمين دمي | يظنون أقبح ما يأتونه حسنا

ومع الأسف إن أكثر المعاندين والمخالفين طليقوا اللسان وبذيئوا الكلام ومنطقيون بالظاهر، يستعملون كلمة الحق ويريدون بها الباطل، كما فعل معاوية وعمرو بن العاص في حرب صفين حين رفعا الصحف على الرماح قائلين: «تعالوا نحتكم إلى القرآن». حينها قال علي عليه السلام كلمته المشهورة: «كلمة حق يراد بها باطل».

وهؤلاء المعاندون والمخالفون يزدرون العرفاء والعرفان ويذهبون في أمرهم مذاهب شتى بعيدة كل البعد عن الحقيقة والواقع. والعجب العجاب أنهم يتشفون منهم بابتسامات الهزء والسخرية، مترقرقة عن شفاههم، التي تدل على العجب ويا للعجب! ومعصية العجب هي من كبائر المعاصي ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وإن علموا فأنى لهم أن يكتشفوه في أنفسهم لأنهم لم يباشروا معرفة النفس ولم يدخلوا طريق السير والسلوك ومحاسبة

---

(١) سورة القصص الآية ٧٧.

النفس ومراقبتها. فبالنسبة لهم إن العيوب في غيرهم وليست فيهم البتة كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]. فهم قد استزلهم الكبرياء واستخفتهم الجاهلية الجهلاء، ويقول الله تعالى فيهم: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾[2]. وهم لما يسبروا أغوار أنفسهم ويكتشفوا أفاعي المعاصي والذنوب المتخفية في أعماقهم، فالعجب والكبر قد تسترا على كل ذلك ولا يسمحان لهم بمراقبة النفس ومحاسبتها. فهذه الجيفة تبقى مزمنة فيهم إلى ما شاء الله كما يقول الشاعر:

لا تكشفن مغطئا   فلربما كشفت جيفة

ولقد قال الرسول الأعظمﷺ: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم بأشد من ذلك... العجب العجب». فكأن العرفاء كواكب متلفعة بأردية السحب، ما يستشف منها الناظر بصيصا ولا قبسا، إلا من رحم ربي، من أولئك الذين تساموا عن أنفسهم، فاستقروا فوق مستوى السحب، لا يحجبهم عن النجوم الزاهرة حجب من أنفسهم، ولا ضلالة من كبرهم وعجبهم، ولا ظلام دامس من جهلهم. أولئك الذين ورثوا العدل والإنصاف عن اسم من أسماء الله الحسنى وهو «العادل»، وتجردوا من الظلم في حق رجال الله الصالحين.

وما أعدل أولئك الذين يقولون «لا نعلم» إن كانوا لا يعلمون، أو كانوا في مواقع الجهل والشك والتردد، بعيدين عن مواقع اليقين. وما أبسط هذه الكلمة وأسهلها على الفطرة، وأجدر بها أن تقيهم الظلم العظيم. و«الناس أعداء ما جهلوا» كما قال مولانا عليعليه السلام فبدل أن يعترفوا بجهلهم ويشحذوا همتهم لنيل المعرفة، تراهم يظهرون العداوة والبغضاء للشيء الذي يجهلونه. فإن كبرهم وغرورهم وادعاءاتهم وعجبهم لا تسمح لهم بالظهور أمام الناس بمظهر الجاهل المتعري عن العلوم التي يدعونها

(١) سورة الكهف الآيتان ١٠٣-١٠٤.

(٢) سورة المؤمن الآية ٥٦.

ومظاهر الجاه والفضل التي يتفاخرون بها. وما أبعدهم عن فضيلة التواضع التي يتصف بها الانبياء والصديقون والصالحون!!! وهل يكب الكلاكل على وجوههم، ويلصق بالرغام معاطسهم الا الكبر والغرور والادعاءات، والعجب والعناد والتضليلات! فلأنهم يجهلون الحقائق لذا فإنهم يزدرون العرفان والعرفاء ويستخفون بهذه المعارف المشرقة والحقائق البينة. وأجدر بهم أن يقولوا «لا نعلم» إن كانوا لا يعلمون، وأن يكونوا في مواقع الجد والطلب بحثا عن هذه المعارف والحقائق.

وأذكر الآن الموقف المشرف النبيل لآية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله (رض) حينما أهديته كتابي «السموات السبع» وهو في بيته في السيدة زينب في سوريا. وبعد أيام لقيته مرة ثانية في نفس البيت وسألته عن رأيه في الكتاب. فقال لي (رض) بالحرف الواحد: «لقد قرأت كتابك وأنا لا علم لي بهذه المعارف، ولكنني أضعها في خانة خاصة من ذاكرتي بدون نفي أو إثبات حتى تتبين لي الحقائق، وأذكر انني عندما كنت أدرس في النجف الأشرف كنت أسمع عن معلم الأخلاق السيد علي ميرزا القاضي ولكني لم أتشرف بلقائه». فانظر الى هذا التواضع والسماحة من عالم كبير معروف لا في الأوساط الشيعية فحسب بل في العالم كله! فليتخذه الناس قدوة لطريقة الأسلوب الفكري المتحرر والانفتاح على الأفكار والآراء الأخرى.

أما المخالفون والمعاندون والمجاحدون فقد اتخذوا دينهم هواهم، فلقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [1]. فهم خابطون في فتنة، وقد لبسوا جلابيب التعصب والعداء والشنآن والبغضاء، وألبسوا الدين ألوان هواهم، وهذه الصفات بعيدة عن مكارم الأخلاق التي بعث النبي المصطفى ﷺ ليتممها. قال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

(١) سورة الفرقان الآية ٤٥.

والدين حقيقة مجردة وواقع محض كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾[1]، وهو بريء من هذه الصفات المعوجة ومن شتى ألوان الهوى. ويا ليتهم وقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، وأصغوا اليه مسامع قلوبهم، وولجوا مولج الاولياء واتبعوا مأخذهم، ولم يقفوا ما ليس لهم به علم اتباعا لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[2].

ولتبيين مولج الأولياء ومأخذهم، فرض الله سبحانه وتعالى على العرفاء أن يشهدوا بالحكمة والحقائق الأزلية، استظهارا على المجاحدات، وهداية للعباد إلى العلوم الإلهية، وإفاضة العطيات على القابليات السامية. وهكذا فعل العارف الكبير السيد حسن المسقطي الموسوي، وهذا كان ديدنه خلال سنوات عمره الشريف. ولقد قال مولانا علي عليه السلام: «(وفرض الله) الشهادات استظهارا على المجاحدات». فالمجاحدون والمعاندون هم من الصنف الذين ذكرهم الامام علي عليه السلام في كلامه لكميل بن زياد: «ها، إن ههنا لعلما جما (وأشار بيده إلى صدره) لو أصبت له حملة! بلى أصبت لقنا غير مأمون عليه، مستعملا آلة الدين للدنيا، ومستظهرا بنعم الله على عباده، وبحججه على أوليائه، أو منقادا لحملة الحق، لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة».

فهم أناس لقنون وأذكياء، بل ويتصفون بحدة الذكاء، ولكن لا يؤمن عليهم، يستعملون آلة الدين للدنيا، ويتباهون بنعم الله على عباده، ويتفضلون بحجج الله على أوليائه ويتباهون عليهم، أو أنهم منقادون لحملة الحق، ولكن لا بصيرة لهم في جوانب الحق، يستسلمون للشك في قلوبهم لأول عارض من شبهة. فهم أناس ذووا ذكاء حاد، ولكنهم يسخرون ذكاءهم لخدمة الدنيا من حيث لا يشعرون. فهم يستظهرون بحجج الله على أوليائه، ويصورون الباطل حقا والحق باطلا، ويستعملون آلة الدين

---

(١) سورة الذاريات الآية ٦.

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٦.

لاستجلاب الهمج الرعاع، الذين هم أتباع كل ناعق ويميلون مع كل ريح. وأيضا يتلاعبون بحجج الله بحيث تليط ألعوبتهم هذه بعقول السفهاء، ويتباهون بها على أولياء الله، حتى يخرجوهم من سدة الحياة العامة. فللإستظهار على هذه المجاحدات فرضت الشهادات، حتى تتحقق مشيئة الله في قوله تعالى: ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

وما أبسط كلمة «لا نعلم» وأسهلها على الفطرة، ولكن المعاندين والمخالفين بعيدون كل البعد عن فطرتهم، ويتكلفون في حياتهم وفي الدين بما لا يتجانس مع الفطرة الصافية. قال الله تعالى على لسان الحبيب المصطفى ﷺ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[2]. فالتكلف هو في الحقيقة ستار الجهل والظلم في نفوس البشر، يحدوهم إلى ظلم أنفسهم وظلم رجال الله الصالحين. وقد تنكروا لأولياء الله وأظهروا لهم العداوة والبغضاء، لأنهم كشفوا حقائق الدين وجهل هؤلاء بالدين القيم.

وكم من عناصر جاهلة، الذين لبسوا عباء علماء الدين، قد ظهروا على صفحة التاريخ، واستمرت قصتهم إلى يومنا هذا. ففي التاريخ الإسلامي ظهرت مثل هذه العناصر في زمان النبي ﷺ وأظهروا ازدراءهم إزاء أهل الصفة. فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[3]. وبالمناسبة فإن كلمة «الصوفية» نبعت من كلمة «أهل الصفة» حيث المشهور أنهم كانوا يرتدون الصوف، كأمثال سلمان الفارسي ومقداد وأبي ذر.

ولقد قال العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان ـ قدس سره ـ «قيل إن جماعة في ذلك الوقت تآمروا على النهج العرفاني والإلهي والتوحيدي للمرحوم الملا حسين قلي وكتبوا عريضة انتقاد إلى آية الله

(١) سورة التوبة الآية ٣٢.

(٢) سورة ص الآية ٨٦.

(٣) سورة الكهف الآية ٢٨.

الشربياني ـ الذي كان زعيم المسلمين المطلق في ذلك الزمن ـ وذكروا فيها أن الملا حسين قلي ينتهج طريقة الصوفية. وعندما اطلع المرحوم الشربياني على العريضة، حمل قلمه وكتب:

ليت الله يجعلني مثل الملا حسين قلي الصوفي[1].

وواضح أن هذا الأمر هو عبارة عن خالص الدعاء والمناجاة إلى الله والالتصاق به ليلا ونهارا بحثا عن وجه الله، في مقابل أولئك الذين عشوا عن ذكر الرحمن وغفلت قلوبهم عن ذكر الله واتبعوا هواهم، واستسلموا للشيطان واستكانوا له حيث يملي عليهم من نواضح كيده وبهارج زينته، وكان ديدنهم الإفراط والتفريط، في حين أنهم كانوا يدعون الدين ويلبسون لباسه. ومن بعد الرسول الأعظمﷺ برز هؤلاء على سدة الحياة العامة ودفعوا الأولياء والعلماء الحقيقيين إلى الانزواء دفعا، بحيث انكمشوا عن النشاط الحقيقي في المجتمع، أمثال الإمام علي عليه السلام حيث لزم بيته لمدة ٢٥ عاما وبدأ بتعليم قلة من أولياء الله الصالحين، الذين تأهلوا لمثل هذه الحقائق والمعارف والعلوم كأمثال أهل الصفة رضوان الله عليهم. وهذه هي الانتكاسة العظمى في التاريخ الاسلامي والتي تنبأ بها القرآن العظيم حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2].

وما زالت هذه القصة مستمرة إلى يومنا هذا، فالعلماء الحقيقيون عاشوا مغمورين بل كانوا أيضا مضطهدين في كثير من حقب التاريخ الاسلامي. فلقد انزووا وانكمشوا في نشاطهم على مستوى الحياة العامة، تحت ضغط المدعين الذين كانت تساندهم الحكومات آنذاك. ولا داعي للدخول في التفاصيل، ولكنهم هم الشاكرون القلائل الذين وعدهم الله بأنه

---

(١) كتاب «الشمس الساطعة» صفحات ٢٩٩-٣٠٠ لآية الله الراحل السيد محمد حسين الحسيني الطهراني قدس سره.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

سيجزيهم في الآية السالفة الذكر. وهم عندما أكرهوا أنفسهم على الانزواء والانكماش كان عملهم أفضل الأعمال لقول الإمامعليه السلام: «أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه». فكانت شرورهم مأمونة وخدمتهم للحق خالدة وقلوبهم إلى الله ملهوفة وكان لهم من الله أجر الصابرين المحتسبين. فلقد برز المدعون وأشباه العلماء على سدة الحياة العامة في زمان أئمتنا عليهم السلام ، في حين أنهم صلوات الله عليهم انكمش نشاطهم في الحياة العامة إلا القليل من أمثال الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام في أواخر العهد الأموي.

وما أن بدأ العهد العباسي حتى خططوا استراتيجية لخلق منافسين للأئمة الأطهار بقصد إبعاد عامة الناس عنهم. فنجحوا في ذلك، وعاش أئمتنا عليهم السلام تحت الاضطهاد الحكومي يعلمون مريديهم خفية. أما أشباه العلماء فلقد استحوذوا على العلوم الدينية بدعم من الحكومات، بحيث أصبحت العامة تستقي علومها منهم بدلا من العلماء الحقيقيين والأولياء الصالحين، الذين لم يستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله، بل كانوا للمستحقين منهم سراجا لا يخبو توقده، وبحرا لا يدرك قعره، وأعلاما قصد بها فجاجها، ومناهل روي بها روادها، وبحرا لا ينزفه المستنزفون، وعيونا لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون، كما قال مولانا عليعليه السلام.

فالحديث النبوي الشريف: «كما تكونوا يولّى عليكم» لا يعني الحكومات فقط ولكن أيضا يصدق في مجالات العلم والفقه وجميع العلوم الدينية. فالأمة لم تنضج بعد لتلقي العلوم الإشراقية والمقامات العرفانية، ولو أنها نضجت لصلح كل شيء من بعد النبيصلى الله عليه وآله ولم تحدث الانتكاسة الروحية التي عبر الله عنها بكلمة ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾. فالعطيات على قدر القابليات كما قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، ولا تعطى العطيات إلا لمن يستحقها ويحمل الاستعداد والقابلية لها.

فالأولياء مغمورون ولكنهم يفيضون عطياتهم على من يستحقها من

عباد الله الصالحين، بعيدا عن عناد المعاندين ومخالفة المخالفين، الذين يسايرهم العرفاء ويجاملونهم ولا يدخلون معهم في جدال ونقاش لا طائل وراءه، بل يتحملونهم ويخاطبونهم على قدر عقولهم. فهؤلاء لا يضرون الأولياء والعرفاء شيئا ولكنهم يضرون أنفسهم، بل إنهم بالأحرى يظلمونها، لأن العناد والخصام والاعتراضات والمخالفات تبقيهم في ظلمات الجهل لا يبرزون منها إلى نور المعرفة. أما العارف فهو الكريم الذي وصفه مولانا علي عليه السلام بقوله: «من أشرف أعمال الكريم غفلته عما يعلم». فغفلته عما يتقوله المعاندون والمجاحدون وأنصاف العلماء إنما هو أعلى مظاهر الشرف الذي يتمتع به هذا الكريم.

وأحد هؤلاء الكرماء والمسامحون هو العلامة الطباطبائي ـ صاحب تفسير الميزان ـ «وكان لا يرد بالمثل على الذين كانوا يخاطبونه بالألفاظ المقذعة، وينسبون إليه التهم القبيحة من أجل إسقاط نهجه العرفاني وأسلوبه الحكمي، فكانت كلماتهم تطرق مسامعه فلا يسعى أبدا للرد أو القيام بأي عمل للمواجهة أو المعارضة.

ومعلوم أن أمثال هذه التهم كثيرة وجمة في الحوزات العلمية الجامدة التي لا تتعامل مع القرآن والتفسير والروايات والأخلاق العرفانية والحكمة العقلانية، وبين الجماعات الذين جلسوا حول المائدة السوداء وانشغلوا بالتكالب على الحطام وزيادة الشهرة والصيت والسمعة. فلقد هاجر العلامة من تبريز وحط رحاله في الأعتاب المباركة للسيدة المعصومة أخت الإمام الرضا عليهما صلوات الملك المتعال من أجل إزالة هذه المعاني، وهداية الشباب من الطلاب إلى الأسرار الإلهية والحقائق والمعنويات الدينية. ومن البين أن البعض كانوا لا يستسيغون هذا النهج والأسلوب والسبيل، لذا فقد كانوا يحاولون إطفاء نوره وسحب بساط التفسير والحكمة والعرفان من الحوزة المقدسة العلمية، متوسلين بالتهم المموهة المزورة، ليخدعوا بها عامة الناس بأسلوب ماهر وذكي خاص بهم أتقنوه وتمرسوا فيه سنوات عمرهم.

وحين كانت هذه الأمور والدسائس تصل الى سمعه، كان يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ (مقطع من الآية ٤٣ من السورة ٣٥: فاطر). وهو تماما معنى ومفاد الآية القرآنية الكريمة: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (الآية ٨ من السورة ٦١: الصف). وكانت تصل الى سماحة العلامة رسائل عديدة مليئة بالسب والشتم والتهم والمختلقات الكاذبة والكلام الواهي الفارغ دون توقيع، بحيث سمعنا بذلك وتصورنا أنه لن يطالع بعد الرسائل التي لا تحمل توقيعا.

وعليه قلت له يوما ـ عندما تشرفت بالحضور عنده ـ: لقد وصل الأمر بسماحتكم ـ كما سمع ـ بحيث أنكم تفتحون الرسائل فتنظرون أولا الى محل التوقيع، ثم تضعون جانبا الرسائل الخالية من التوقيع فلا تطالعونه أبدا.

فتبسم بصفاء وقال: أطالع جميع الرسائل! ومع الأسف حتى الرسائل التي لا تحمل توقيعا أطالعها أيضا»[١].

وفي السنوات الأخيرة هب ودب الجهال المتنسكون من هنا وهناك، يتهجمون ظلما وجورا وعدوانا على العرفان والصوفية، ويتطاولون على الشخصيات المعروفة في هذا المجال للحط من أقدارهم، ويهاجمون جهلا وعتوا وطغيانا كل من عرف عنه تمسكه بالعرفان وحلقات الذكر، فكان المرحوم العلامة الطباطبائي يعيب بشدة على مثل هؤلاء. «وكان العلامة يعيب بشدة على بعض المتنسكين من ذوي الظواهر المقدسة الذين صادروا الشرع، فانتقدوا ـ بعنوان الحماية للدين والترويج للشرع المبين ـ جميع أصناف أولياء الله المتمسكين بالمراقبة والمحاسبة، والذين يقومون أحيانا بسجدات طويلة. وكان أول عمل لهم انتقاد وذم بعض أعلام العرفان كالخواجة حافظ الشيرازي ومولانا محمد البلخي الرومي صاحب كتاب المثنوي.

(١) حاشية كتاب «الشمس الساطعة» صفحات ٣٩٣-٣٩٤ لآية الله الراحل السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني قدس سره.

وكان العلامة يعد هذا النوع من التفكير ناشئا من الجهل والجمود والنزوع الى التحجر، وهي أمور تنفر منها روح الشريعة.

وكان يقول بأن التهجم على الفلسفة والعرفان ـ وهما دعامتان عظيمتان من دعائم الشرع المبين ـ ناشئ عن الجمود الفكري والخمود الذهني. ويقول:

يجب الاستعاذة بالله من شر هؤلاء الجهال، فهم الذين قصموا ظهر رسول الله، وذلك في قوله: «قصم ظهري صنفان: عالم متهتك وجاهل متنسك»[(١)].

ويصدق قول الشاعر في هؤلاء الجهال المتنسكين والمعاندين والمجاحدين والمخالفين:

لبسوا العداوة والتعصب إنهم	ظنوا بأن الدين لون هواها
يا غفلتاهم عن حقائق دينهم	وتنكروا لمن استبان صفاها
وتنكروا للأولياء لأنهم	كشفوا حقائق دين رب هداها
فلكم من الجهال ظنوا أنهم	علماء أفذاذ فيا تعساها
ملأوا صحائف عرضها عرض السما	قد سودوا وجها لفي عقباها
يا ليتهم سكتوا وما نشروا ضلا	لتهم لعامة ناسهم ووراها
فالأوليا لولاهم برزوا على	عام العباد لرشدهم ونماها
لكنهم حجبوا لحكمته إلى	يوم الإمام ونصره بشراها[(٢)]

وقال عبد الرحمن حاتم [(٣)]: ويقول السيد محمد حسن نجل السيد القاضي: ومن الغريب أن يعرف المتتبع لأخبار ذلك الزمان من أن الحال قد بلغت هذه الدرجة من السوء والمضايقات، وتتبع الحركات والسكنات،

---

(١) كتاب «الشمس الساطعة» صفحة ١٢٠ لآية الله الراحل السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني قدس سره.

(٢) كتاب «السموات السبع» للمؤلف صفحة ٨٣.

(٣) في كتابه «قدوة العارفين» صفحة ٦٩ إلى ٧٣.

وحتى المبيت في مسجدي الكوفة والسهلة، لأن مثل هذا المبيت في نظرهم يمنع من مواصلة الدراسة والحضور في المجامع، وكذا الالتزام بسائر الأوراد والختومات مثلا، مع أنه ما كان يوصي بشيء كثير يكون سببا ـ كما يزعمون ـ للتأخر في الدروس وعدم الحضور في المجامع.

وأما هو (قدس سره) فقد كان في هذا الزمان قد تجاوز مرحلة الحضور في المجامع الدرسية والبحثية كما كانوا يعبرون.

وقال أيضا: وقد أدركت أيام زعامة آية الله السيد أبو الحسن الاصبهاني، وعلى ما أتذكر فإن في أيامه انتعشت الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وزاد عدد الطلبة فيها، وكثر الواردون إليها من مختلف المدن الشيعية للزيارة ولثم الأعتاب المقدسة ...

وآية الله الاصبهاني مع أن الزعامة انحصرت في أيامه بشخصه الكريم، وكان في النجف الآمر المطاع المبسوط اليد، إلا أنه لم يفكر في شؤون النجف كمدينة تطمح إليها الأنظار من مختلف الأقطار، لأن أمر ذلك كما يبدو كان موكولا للحكام، وقد كان قد طلب منه الابتعاد عن السياسة كليا، على الأخص سياسة البلدة التي كان يقيم فيها، ومن هنا لعله نشأت فكرة إبعاد السياسة عن الدين في تاريخنا الحديث ...

... وقال أيضا: لكنه كان يخالف الفلاسفة والإشراقيين منهم بالخصوص أو على الأصح أنه كان يريد النجف مدينة محضة لدراسة الفقه الجعفري، وللفروع الأخرى من المعارف الإسلامية مواطن أخرى كقم ومشهد الرضا ﷺ، وقد استوفيت القضية شرحا وبسطا في الرسالة التي كتبتها عن الحركات الإصلاحية في النجف الأشرف وفي حوزتها العلمية على الخصوص، وفي خلال ترجمتي للشيخ الأستاذ محمد رضا المظفر.

وفي أيامه (رحمه الله) امتدت مخالفته هذه إلى علماء الأخلاق أو العرفاء ـ كما كانوا يصطلحون ـ وقد سبق ذكر مخالفته مع السيد حسن المعروف بالمسقطي وأمره بالهجرة، أو على الأصح إبعاده من النجف،

لأنه (رحمه الله) كان منهمكا في هذه الشؤون لحد الولع والفتون.

وقال أيضا: جمع آية الله العظمى السيد أبو الحسن الاصبهاني علية القوم من الروحانيين والعلماء، وكان يومذاك زعيم الطائفة، والمبسوط اليد في النجف الأشرف، وحث المجتمعين ودعاهم بصورة جدية إلى طرد الفلسفة والعرفان من الحوزة العلمية، وقد شمل هذا المنع حتى العلماء المختصين بدراسة الفلسفة، فامتنعوا من التدريس، أو كانوا يدرسون بصورة سرية، دون أن تعلم بهم الجهات المختصة بمطاردة هذه الدراسات.

وأما قصة السيد حسن المسقطي... والمعروف أن آية الله الاصبهاني إنما بعثه إلى مسقط ليخلي الحوزة العلمية في النجف من أساتذة الفلسفة المرموقين، وليبعده عن حلقة القاضي، بينما هو (رحمه الله) فما كان يرغب أبدا في مغادرة النجف الأشرف ومفارقة أستاذه، إلا أن السيد القاضي (قدس سره) أمره بالمغادرة سريعا وامتثال أمر آية الله الاصبهاني، فسافر إلى مسقط وزاول هناك أعماله ووظائفه الدينية والإرشادية على أحسن وجه... وذاع صيته هناك وذهب اسمه إلى الهند، وله على ما نقل عدة سفرات إليها... وفي أواخر أيامه دعاه الأمير نظام آباد صاحب حيدر آباد دكن وصاحب المكتبة المعروفة، فأجاب دعوته بعد إلحاح كثير، وسافر حوالى سنة (١٣٥٠ للهجرة) إلى بمبي، وكان يتخذ المساجد محلا للاستراحة والبيتوتة، وفي بمبي حين كان ينزل في أحد المساجد في طريقه إلى حيدر آباد، وجد ميتا وهو في حالة السجود بعد صلاة الصبح، ودفن جوار ذلك المسجد، وله مزار معروف، وكانت مراسلاته لا تنقطع مع صديقه السيد القاضي... وكان لخبر وفاته أسوأ الأثر في نفسه، فقد مرت عليه أيام وهو لا يتكلم وغارقا في التأمل والتفكير.

وعندما وصل خبر وفاة السيد المسقطي إلى السيد أبي الحسن الاصبهاني، أرسل شخصا من قبله إلى مدرسة الهندي لإخبار السيد القاضي بذلك. ويقول السيد محمد حسن نجل السيد القاضي: وكنت في صحن المدرسة مع العلامة الطباطبائي والشيخ محمد تقي الآملي وغيرهما من

تلاميذ السيد القاضي، ولم يتجرأ أحد للصعود إلى غرفة السيد في الطابق الثاني من المدرسة وإخباره بالنبأ، لعلمهم بأنه لا يتحمل سماع هذا الخبر لفرط العلاقة بينهما، فوقع الاختيار على السيد هاشم الحداد لإيصال الخبر إليه، وعندما ذهب إليه وأخبره قال: أعلم ذلك.

وكان السيد القاضي في مجالسه الإرشادية يحذر من الخوض في موضوعات تثير الالتباس في عقول بعض الحاضرين الذين لا يستوعبون معاني الكلام أو لمخالفته لما هو شائع ومتعارف بين الناس. يقول السيد محمد حسن نجل السيد القاضي: وكان قدس سره في بعض الحالات يجتاز الحواجز الموضوعة حوله ـ أو التي وضعها هو ـ ويترك التحفظ والاحتياط جانبا ويصرح بآرائه ويبدي مكنوناته النفسية، وإن كانت هذه الحالات نادرة إلا أنها كانت تظهر في فلتات لسانه، على الأخص أثناء ما كان يتكلم في العشر الأولى أو الثانية من شهر رمضان. وكان الحضور يلوحون بأيديهم أو يخوضون في حديث خارج عن الموضوع مشيرين بأن في المجلس من يحتشم، وقليلا ما كان يكترث لهذه الإشارات إذا كان قد غلب عليه الوجد ...

ويذكر عبد الرحمن حاتم [١] عن قصة الوداع الأخير بين العاشقين: فمثلا عندما أمر السيد أبو الحسن الاصبهاني السيد حسن المسقطي بمغادرة النجف إلى عمان كان ينفجر بالبكاء. وينقل السيد محمد حسن نجل السيد القاضي هذا المشهد بقوله: «كان للسيد حسن المسقطي صديق حميم هو آية الله الشيخ علي محمد البروجردي، ولعلهما كانا يسكنان في دار واحدة، ولا أنسى أن السيد حسن المسقطي عندما أراد أن يودع أستاذه القاضي وصديقه البروجردي اجتمعا في غرفة الأستاذ في مدرسة الهندي، وأخذا يبكيان بصوت عال حتى اخضلت لحيتاهما بالدموع، والأستاذ مشغول بورده لا يرفع إليهما طرفه، وفجأة رفع رأسه وخاطبهما بلهجة شديدة بالفارسية ما ترجمته: «ماذا حل بكما، فولي الله في أي مكان يكون هو

(١) كتاب قدوة العارفين صفحة ٨٤.

ذاك لا يتغير» وكلمات أخرى لا أتذكرها الآن جيدا، فقاما بعد الوداع وخرجا.

وكان السيد حسن كث اللحية، طويل القامة، يلبس عمامة سوداء، فإذا جلس وضعها على الأرض، وإذا قام كانت العمامة بحاجة إلى لفة جديدة، وهو يديرها على رأسه كيفما كان.

وبعد أن خرجا من غرفة الأستاذ كان آية الله الشيخ علي قسام (وهو من أقدم تلاميذ السيد القاضي) ينتظرهما في ساحة المدرسة، فأخذ يعاتبهما على وداع الأستاذ بتلك الصورة من البكاء والنحيب الصاخب، فاعتذرا له بأننا لم نتمالك أنفسنا وخنقتنا العبرة، كما وقدمنا له العذر، فقبل عذرنا بخلقه الكريم وحلاوة حديثه المعهودة المليئة بالنكات الظريفة والنوادر المستطرفة».

وتحضرني بهذه المناسبة أشعار العارف المصري الكبير ابن الفارض رضوان الله عليه تصف لسان حال السيد حسن المسقطي عندما أجبر على ترك أستاذه وزملائه وأحبابه في طريقة السير والسلوك في النجف الأشرف:ـ

ويمنعني شكواي حسن تصبري ... ولو أشك للأعداء ما بي لأشكت

وعقبى اصطباري في هواك حميدة ... عليك ولكن عنك غير حميدة

وما حل بي من محنة فهو منحة ... وقد سلمت من حل عقد عزيمتي

وكل أذى في الحب منك إذا بدا ... جعلت له شكري مكان شكيتي

نعم وتباريح الصبابة إن عدت ... علي من النعماء في الحب عدت

ومنك شقائي بل بلائي منة ... وفيك لباس البؤس أسبغ نعمة[١]

فالصبر والمثابرة عليه وتحمل الأذى في سبيل المحبوب تفتح أبواب الرحمة الواسعة على السالك وتفضي به إلى طريق القرب والزلفى من الله. والصبر امتحان صعب من الله جل وعلا يتحمله السالك ويثبت بذلك أهليته للقاء الله. ولما تحمل من مرارة الصبر يرق له قلب المحبوب وتصاحبه عين

(١) التائية الكبرى المسماة بنظم السلوك لابن الفارض.

رعايته في غدوه ورواحه، ولا يزيده ذلك إلا قربا وزلفى إلى الله سبحانه وتعالى. وما كانت تعتبر كارثة ومحنة يتحول إلى منحة وبركات من جانب الله، وبذلك يقطع السالك أشواطا كبيرة في طريق السلوك. والله سبحانه يمتحن السالك دائما بامتحانات صعبة إلى أن يصل إلى مرتبة عليا من مراتب العروج بحيث يشكر الله فيها على المصائب بدل أن يشتكي منها، وتتحول المصائب روحا وريحانا ومنحة ونعماء، ويكون العبد في هذه المرتبة في معية دائمة مع الله لا يرى غيره ولا يسمع إلا صوته ولا ينشق إلا عطره ولا يلمس إلا كؤوس شرابه ولا يذوق إلا مدامته، ويصبح الشقاء بل البلاء منة عليه ولباس البؤس ثياب سندس واستبرق، وتتحول مرارة الصبر سلاما وبركات عليه وزيادة في القرب والزلفى ونعمة ليس فوقها نعمة. وما أصدق الشاعر في بيان لسان حاله:

وما رد وجهي عن سبيلك هول ما	لقيت ولا ضراء في ذاك مست
فحليت لي البلوى فخليت بينها	وبيني فكانت منك أجمل حلية
ونفس ترى في الحب أن لا ترى عنا	متى ما تصدت للصبابة صدت
وما ظفرت بالود روح مراحة	ولا بالولا نفس صفا العيش ودت
وأين الصفا هيهات من عيش عاشق	وجنة عدن بالمكاره حفت [(١)]

يقول الله سبحانه وتعالى: «ومن صبر وغفر فذلك من عزم الأمور». فالعبد الصالح يحلو له الصبر ولا يحمل في وجوده ذرة من الحقد، فكل وجوده يتنسم عطرا وسلاما وعفوا وتسامحا ورضوانا، فيصبح هول البلايا سلمه إلى السماء وإلى عرش المعرفة والعرفان. وهذا العبد لا يخلد إلى راحة الأرض، وتقابله في سبيل زهور العشق ووروده أشواك المحنة والعناء، وكما قال الشاعر: «ومن طلب العلا سهر الليالي». فالروح المراحة لا تستحق المعالي ولا تستحق العروج عاليا وشاهقا، فهي تخلد إلى الأرض وتطمئن إليها فلذلك تبقى مقيدة في أغلال الأرض وسلاسلها لا تستحق شيئا غير ذلك. وأنى للنفس أن تجتدي العشق والولاء إذا كانت

---

(١) التائية الكبرى المسماة بنظم السلوك لابن الفارض.

تود صفاء العيش! فالروح التي تحب الراحة وتخلد إليها وتنأى بنفسها عن التحديات لا تكون أهلا للعروج، فالسالك يتوخى الله في حله وترحاله ولا يكون له قرار بدون القرب والزلفى ويتحمل في سبيل ذلك العناء والمشقات، بل إنه يتمتع بالمخاطر والمصائب في سبيل الوصول إلى المحبوب. فأمثال السيد حسن لا يسمحون لأنفسهم أن تتعلق قلوبهم بغير الله، وعلى فرض المحال إذا خطرت لهم خاطرة سهوا فهي الكارثة العظمى عندهم فيذكرون الله ويستغفرون لهذا الذنب العظيم ويسألونه أن يبقي قلوبهم بيتا لله وحده لا مكان فيه لغيره! فهل بكاء الأولياء واستعطافهم الله إلا بسبب هذا؟ فهم يفوضون أمورهم إلى الله يصنع فيهم ما يشاء وهم بذلك راضون مرضيون وليس لهم رغبة إلا في الله. ولله در الشاعر حيث يقول:

ولو خطرت لي في سواك إرادة   على خاطري سهوا قضيت بردتي
لك الحكم في أمري فما شئت فاصنعي   فلم تك إلا فيك لا عنك رغبتي
وما سكنته فهو بيت مقدس   بقرة عيني فيه أحشاي قرت[1]

(١) التائية الكبرى المسماة بنظم السلوك لابن الفارض.

من هو أستاذ سيد حسن المسقطي في الطريقة والعرفان

كان أستاذه في العرفان ومربيه في السير والسلوك إلى الله هو السيد علي بن السيد حسين القاضي، وينتهي نسبه الشريف إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام. ولد في تبريز في ١٣ ذي الحجة ١٢٨٢ للهجرة، وهاجر إلى النجف الأشرف في سنة ١٣٠٨ للهجرة (حسب خطه الشريف) ـ كما ذكره نجله السيد محمد حسن [١] ـ، وانتقل إلى رحمة الله ليلة الأربعاء السادس من ربيع الأول سنة ١٣٦٦ للهجرة، ودفن في وادي السلام قرب مقام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف). ومنذ ذلك اليوم لم يخرج من العراق إلا مرة واحدة وذلك إلى المشهد المقدس في إيران. فلقد ذكر نجله السيد محمد حسن[٢]: «ومما يذكر بهذه المناسبة تمسكه وتعشقه بوطنه الجديد النجف الأشرف، أنه منذ أن دخل المدينة المقدسة لم يخرج منها إلا لزيارة سائر العتبات المقدسة كربلاء والكاظمين وسامراء، وذهب مرة واحدة إلى زيارة مشهد الرضا عليه السلام، حوالى سنة ١٣٣٠ للهجرة، وبعد تشرفه بالزيارة عاد إلى طهران، ومكث في مدينة (ري) المعروف بشاه عبد العظيم برهة يظهر أنها كانت قصيرة».

وقد وصفه العلامة محمد حسين الطهراني [٣]: «كان المرحوم القاضي في تهذيب النفس والأخلاق والسير والسلوك في المعارف الإلهية،

---

(١) صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف صفحة ١٨.

(٢) صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف صفحة ٧٩.

(٣) كتاب «الشمس الساطعة» صفحة ٢٦-٢٧.

والواردات القلبية، والمكاشفات الغيبية السبحانية، والمشاهدات العينية، فريد عصره ووحيد دهره وسلمان زمانه وترجمان القرآن.

لقد كان كالطود الشامخ الذي حوى نبع الأسرار الإلهية، يقوم بتربية الطلاب في هذا المجال. يتحلقون حوله في المجالس الخاصة التي كان يقيمها في منزله لأيام وكانوا يستمعون نصائحه ومواعظه وإرشاداته لساعة من الزمن.

وبيمن تربيته في المراحل المختلفة، استطاع أفراد كثيرون أن يتقدموا في مسير الحقيقة، ليصبحوا من أصحاب الكمالات والمقامات، ويدخلوا في الصالحين والأحرار والأطهار، ويتنوروا بنور معرفة التوحيد، ويردوا الى الحرم الآمن، طاوين بساط عالم الكثرة والاعتبار».

ولقد كان السيد القاضي يصرح في كل مناسبة بأن أستاذه الأول في التهذيب الأخلاقي والسلوك العرفاني هو والده السيد حسين القاضي. فلقد كان ـ رحمه الله ـ متفرغا للعبادة ومنصرفا إلى الله سبحانه وتعالى، وقد تتلمذ في العرفان وتربى في المعارج الروحانية على يد (إمام قلي) والذي كان بدوره تلميذ السيد قريش.

وقد ذكر العلامة السيد محمد حسن نجل السيد علي القاضي [١]: «بل كان يذكر أن الذي وضعه على الطريق هو السيد حسين القاضي والده المعظم، الذي كان قد تتلمذ على آية الله العظمى السيد ميرزا حسن الشيرازي (قدس سره الشريف) في الفقه، وقد تتلمذ في العرفان على (إمام قلي) الذي كان بدوره تلميذ السيد قريش ...

إلى أن يقول: قال السيد (محمد الحسين الحسيني الطهراني): السيد حسين القاضي التبريزي، تلميذ آية الله العظمى السيد ميرزا حسن الشيرازي زعيم الشيعة الإمامية، والذي اتخذ مدينة (سامراء) مركزا لزعامته، وهو غني عن التعريف لكثرة مآثره وخدماته الجليلة للتشيع، وتلاميذه البارعين الكثر في فنون الفقه والتشريع الإلهي وأصوله.

---

(١) في كتابه «صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف» صفحة ٢٩٠-٢٩٦.

نعم السيد حسين القاضي كان تلميذه في الفقه والأصول، وهو حين يغادر العتبات المقدسة يستأذن أستاذه للعودة إلى بلاده. . . والأستاذ يأذن لتلميذه بالسفر. . . ويشترط عليه بأن يخصص لنفسه من بين ساعات ليله ونهاره ساعة ينصرف فيها إلى نفسه فقط. . . الأمر الذي يدل على أن الزعيم الشيرازي لم يكن زعيما بالمعنى المصطلح فقط. . . بل هو أب روحي، ومهذب أخلاقي من النوع الممتاز المتعالي المثالي، الذي يندر وجود أمثاله في المجتمعات الإسلامية.

لأنه كان يعرف كل شيء عن تلميذه، ويعلم سلفا أنه سيعود وينصرف إلى عمله في الترويج والتبليغ، والهداية وتعليم الآخرين، والأخذ بأيديهم. وفي نظر الأستاذ ان هذا غير كاف لتلميذ مثل السيد حسين القاضي مهما بالغ في هذا العمل واجتهد. . . بل يطلب منه أن ينصرف إلى نفسه وشؤونها الخاصة، ومراقبتها ومحاسبتها، وأمثال ذلك من الأعمال التي قد يغفل عنها أكثر المولعين بالتبليغ والإرشاد. والحقيقة أن الإنسان وهو على طريق التبليغ بحاجة ماسة إلى هذه الساعة الخاصة ليحاسب نفسه، ويتأكد من صحة اتجاهاتها.

هذا. . . ويقول الكاتب: إن السيد حسين القاضي كان تلميذ (إمام قلي) في العرفان والسلوك بالمعنى الاصطلاحي، فماذا نعرف عن هذه الشخصية العرفانية، الذي يعلن نفسه أمام الميرزا الشيرازي؟

وهذا التعبير (يعلن نفسه أمام الشيرازي) وإن كان فيه شيء من إساءة الأدب، إلا أنه وعلى أي حال هو ما وقع واتفق.

لأن القاضي بعدما غادر العتبات المقدسة وعاد إلى بلده تبريز، اتصل بالإمام قلي، وهو سوقي يعمل في محل تجاري. . . ويتعاطى العمل السوقي على النحو المتعارف في بلدهم، ومثل هذا الرجل ـ بحسب الظاهر ـ لا ينبغي أن يكون مرشدا للقاضي الذي هو تلميذ آية الله العظمى الشيرازي. ولا غرابة في الأمر، فلكل واحد منهما شأن ووظيفة خاصة، وليس أحدهما أمام الآخر بمعنى الضدية، بل الجهات مختلفة.

وقد ذكروا للسيد الشيرازي مآثر جمة، وكرامات تفوق حد الإحصاء، ولعل بعضها تذكر ضمن ترجمة السيد أحمد القاضي التبريزي ونجله السيد حسين القاضي التبريزي ،عمنا وابن عمنا المكرمين المبجلين. . . وإنما تذكر هناك لأن الحديث منقول عنهما تغمدهما الله تعالى برحمته ورضوانه.

قلت: إمام قلي في الظاهر هو رجل سوقي. . . إلا أنه يذكر قصته هكذا ...

إنه كان في أيام شبابه قد ابتلي بعشق مجازي، سلب منه راحته واستقراره، وأصبح لسبب هذا العشق كالمجنون الذي ينسى كل شيء من شؤون حياته في (نخجوان). وبينما هو يسير في بعض الشوارع في مدينته في يوم من الأيام على غير هدى، إذ جاء إليه رجل وأشار إليه بأنه قد ضل الطريق، وأن هذا المعشوق الذي يتبعه وشغل باله إلى هذا الحد ليس بشيء، بل بجب عليه أن يغير مسيره في هذا الحب، وأن الله تعالى قد جعل له الهداية بسبب هذه الكلمة. فانتبه من شبه نوم، وتوجه نحو نفسه، وأدرك الخطأ الذي كان قد وقع فيه. . . وتغير عشقه من العشق المجازي إلى نوع آخر من التبتل والاتجاه والانقطاع إلى الله تعالى. ثم أخذ يبحث عن مرشد ودليل يدله على الطريق. . . فأشير عليه بالسفر إلى الديار المقدسة، مكة والمدينة.

ويتهيأ لهذا السفر، ولم يخل هذا السفر له من بعض العناء والمشقة، إلا أنه يهون الأمر على نفسه بسبب الهدف الذي يرمي إليه هذا السفر.

ويذهب إلى الديار المقدسة بمجرد الإشارة عسى أن يفتح له هناك باب. . . ويظل هناك زهاء أربع سنوات دون أن يحصل على مراده، حتى أشرف على اليأس.

أشير عليه بالسفر إلى مشهد الإمام الرضا عليه السلام، وبقي هناك أيضا شهورا، لم تجده الابتهالات والتوسلات بالأئمة المعصومين عليهم السلام. وأخيرا أشير عليه بالسفر إلى (قزوين)، والتشرف بخدمة (السيد قريش) فيشد الرحال إليه، ويتحمل في سفره ما يتحمل من العناء.

وعندما يصل إلى قزوين، ويسأل عن السيد قريش، تتمثل له خيبة أمله في مسعاه، لأن السيد قريش هذا رجل في مركزية عامة في المدينة، يقصد من طبقات مختلفة من أهل البلد، في الخصومات والقضاء والفتوى وسائر الأعمال التي تناط عادة برجال الدين، والزعماء العابدين في تلكم الأيام.

ومثل هذا الرجل وفي مثل هذه المركزية لا ينتظر منه أن يكون مرشدا، أو شيخا للطريقة، ومعلما خاصا من النوع الذي كان يطلبه، ويبحث عنه في أسفاره وتبتلاته في الأراضي المقدسة ومشهد الإمام الرضا عليه السلام. . . لكنه وجد نفسه مأمورا بملاقاة هذا السيد.

فذهب إلى داره، وجلس ضمن المراجعين في فصل الخصومات وقضاء الحوائج، والخدم يقدمونهم للسيد واحدا بعد واحد، حتى انقضى الجمع، ولم يبق إلا إمام قلي، الرجل الذي لم يعرف أحد من الخدم حاجته وسؤاله ليقدموه للسيد بعد الاستئذان منه.

وبقي هو حائرا لا يدري ماذا يعمل. . . وإذا بالسيد يشير عليه بالتوجه نحوه في الطابق العلوي من الدار الفخمة التي يسكنها. . . فامتثل وصعد. . . وأدخل إلى غرفة، وأخرى، وثالثة، بعيدا عن عيون الرقباء، وخلف الأبواب المغلقة. . . وهناك أدرك إمام قلي أنه بين يدي صاحبه الذي كان يبحث عنه في الديار المقدسة، وأنه أصبح بين يديه لا يستطيع أن يخفي عنه شيئا.

بل كان السيد قريش هذا عارفا بكل مجريات حياته، منذ أن كان مبتلى بالعشق المجازي، ذلك العشق الذي كان قد أخذ عليه كل ما يملك، وسلب عقله ورشده، وإلى هذا اليوم وهذه الساعة التي يتمثل هو بين يديه. والسيد قريش رابط الجأش، قوي الشكيمة والعزيمة، يهون على صاحبه، ويطلب منه التهيؤ للقيام بأعمال خاصة، وأوراد معينة. . . ومما يطلب منه الذهاب إلى تبريز والاستيطان فيها، والاشتغال بعمل تجاري خاص لإجراء معاشه وشؤونه المعيشية، ويكون أحد أفراد المجتمع الذي يعيش فيه، ولا يميز نفسه عنهم بشيء سوى الالتزامات الخاصة والوظائف الشرعية.

ويقول إمام قلي: وسرعان ما عرفت بعد وصولي إلى تبريز، وبعد فترة قصيرة المهمة التي أرسلت من أجلها إلى تبريز. ذلك أن في تبريز كانت جماعة من المتصوفة الضالين، كانوا يقضون أفضل أوقاتهم بلعن - مثلا - (صاحب الجواهر) من الفقهاء... فكان من واجبي أن أنصرف إلى توجيههم الوجه الصحيح، فعملت جهدي لذلك ووفقت، وأصبح جميعهم من أهل التقليد والسلوك الحسن... وأشياء أخرى يطول بشرحها المقام.

هذا هو الإمام قلي أستاذ القاضي في العرفان والسلوك... رجل طويل القامة، يجلله الصمت والسكوت، ولا يتكلم إلا عند الضرورة، يقضي حوائج زبائنه وهو ساكت... يحترمه الجميع ويجلونه... يختلف إليه بعض الرجال المرموقين... يأخذون عنه التعاليم الخاصة... يجلسون عنده بعيدا عن أعين الرقباء والدخلاء، وكأنهم بعض زبائنه. إلا أنهم يقصدونه لحوائج أهم أو أسمى، وأغراض أجل وأغلى.

وينقل عبد الرحمن حاتم [١]: «وبعد رحيل العارف إمام قلي النخجواني إلى النجف الأشرف والسكنى فيها، سمح السيد حسين القاضي لولده السيد علي بالهجرة إلى النجف أيضا، وطلب منه أن يذهب يوميا إليه ويجلس عدة ساعات عنده، إن تكلم أصغى إلى كلامه، وإن سكت نظر إلى وجهه.

وكان إمام قلي على درجة كبيرة من الصبر، فعندما تفشى الوباء في النجف توفي أولاده الواحد تلو الآخر، ومع ذلك لم يبد عليه التأثر والتضجر، وكان لسانه يلهج بشكر الله عز وجل. وحينما سئل عن علة ذلك قال: لقد رأيتم كيف أن ملاك الأراضي أحرار في التصرف فيها كيف شاؤوا، فكذلك هنا... فإن الله سبحانه هو المالك الحقيقي لهؤلاء الأولاد، وهو حر في التصرف بهم كيف شاء، وليس لأحد حق السؤال والاعتراض عليه فيما يفعل».

---

(١) في كتابه «قدوة العارفين» صفحة ٤٠.

شهادات قيمة على عظمة الأستاذ وكراماته

ومما يدل على عظمة السيد علي القاضي شهادة السيد الخوئي الذي شهد بأن النجوم تناثرت عند وفاة السيد القاضي. فلقد نقل عبد الرحمن حاتم[١]: «وقد نقل المحقق السيد عبد العزيز الطباطبائي عن أستاذه السيد الخوئي أن النجوم قد تناثرت عند وفاة السيد القاضي بسبب ما يحظى به المرحوم القاضي من مقام شامخ عند الله عز وجل بحسب تعبير السيد الخوئي. يقول السيد عبد العزيز: فأنكرت على السيد الخوئي كلامه هذا وقلت له: إن هذا أمر محال وأن النجوم لا تتناثر على وفاة أحد. فأجابني السيد الخوئي بقوله: إنكم تنكرون ذلك ولكني رأيت بعيني هاتين هذه الحادثة الكونية العجيبة والإعجازية، ولا أستطيع أن أنكر أمرا هو يقين عندي».

وينقل نفس المؤلف [٢]: «وكان السيد الخوئي ينفرد عن باقي المراجع وأساتذة الحوزة العلمية في الاطلاع على حقيقة منزلة السيد علي القاضي.

يقول آية الله الحسيني الهمداني: ذكر السيد الخوئي أنه بعد وفاة السيد القاضي جاء المرحوم آية الله حسين القمي من كربلاء إلى النجف ليقيم أول مجلس فاتحة على روحه الطاهرة. وكان من المتعارف في النجف أن يقام مجلس الفاتحة لمدة ثلاثة أيام ونصف. وقد شارك في هذا المجلس

(١) في كتابه «قدوة العارفين» صفحة ١٨.
(٢) في كتابه «قدوة العارفين» صفحة ٥٨.

كبار العلماء كالسيد الخوئي والميرزا مهدي الشيرازي وآية الله حسين القمي وآية الله السيد الميلاني.

يقول السيد الخوئي: وبعد انتهاء مجلس الفاتحة في اليوم الثالث ورجوعي إلى البيت، زارني مجموعة من العلماء وعلى رأسهم المذكورون آنفا، فقال لي آية الله القمي: سمعت أن لك علاقة بالسيد القاضي! يقول: فقلت له: إن كثيرا من العلماء لهم علاقة بالسيد القاضي. فقال: كيف كان المرحوم القاضي في نظركم؟ فقلت: من أي جهة تقصدون؟ فقال من جهة مقاماته المعنوية. فقلت له ـ والكلام للسيد الخوئي ـ: تقصدون ما هو مقامه العرفاني والشهودي؟ فقال: نعم. فقلت له: إذا كان ما رأيناه من السيد القاضي له حقيقة عند الله عز وجل فهو سماء وأنت أرض، وإذا لم يكن له حقيقة فالعكس. فقال المرحوم القمي وهو في غاية الدهشة: عجيب!!».

وينقل المؤلف [1]: «ثم توطدت العلاقة بعدها بين السيد القاضي والسيد الخوئي إلى حد أنه أراه في عالم الكشف حياته منذ صغره إلى حين وفاته، فقد كتب السيد نعمة الله الحسيني: سمعت السيد حسين القاضي ينقل عن السيد الخوئي قوله: عندما كنت في النجف مشغولا بتحصيل العلوم الدينية كنت ملتزما بالآداب والسنن والأوراد والأذكار، وكنت أحضر أحيانا المجالس الأخلاقية المباركة للمرحوم آية الله السيد علي القاضي قدس سره، وأنتفع من أنفاسه القدسية. إلى أن قلت له يوما: علمني شيئا أعمل به، فأعطاني عملا وقال التزم به أربعين يوما، فواظبت على أدائه، وفي اليوم الأربعين حصلت لي حالة مكاشفة فرأيت جميع الحوادث وكيفية حياتي ومستقبلي، ورأيت نفسي على المنبر أعطي درسا، ورأيت نفسي جالسا في المنزل والناس تتردد علي، ورأيت إمامتي لصلاة الجماعة، ومراجعات الناس لي، وحالات مختلفة، رأيت كل ذلك كمرآة تسير أمامي حتى وصلت إلى مكان سمعت فيه صوتا من أعلى منارة حرم أمير المؤمنينعليه السلام يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، انتقل إلى جوار ربه

(١) كتاب قدوة العارفين صفحة ٥٧.

الكريم آية الله السيد الخوئي، ثم ارتفعت تلك الحالة عني ورجعت إلى حالتي العادية».

وينقل المؤلف [1]: «وكان السيد القاضي لا يدخر جهدا في إعانة المحتاجين ما استطاع إلى ذلك سبيلا، يقول السيد عباس الكاشاني: عندما كنت مقيما في النجف كان لي صديق في غاية الفقر، فذهب يوما إلى السيد القاضي وقال له: إن الله تعالى قد أولاني الجميل في جميع أموري ـ إلا أني في فقر وفاقة شديدة وأعاني بسبب ذلك من مشاكل جمة، وأرجو منك أن تعينني على حل هذه المشكلة. فمد السيد القاضي يده في جيبه وأخرج صما من النقود وناوله إياها قائلا له: ضع هذه النقود في جيبك وانتفع منها من غير أن تعدها. يقول صديقنا: بقيت مدة من الزمان كلما احتجت شيئا مددت يدي في جيبي وأخرجت المبلغ الذي أحتاجه من غير أن أعرف مقدار النقود التي في جيبي، إلى أن وسوست لي نفسي وأقول: ما عسى أن تكون هذه النقود التي لا تنفد، ومددت يدي إلى جيبي وأخرجتها وعددتها فإذا هي لا تتجاوز عدة فلوس، فأرجعتها إلى جيبي، ولكن بعد مدة يسيرة ذهبت بركة هذه النقود، ووقعت مرة أخرى في الفقر والفاقة. فذهبت ثانية إلى السيد القاضي وقبل أن أتفوه بكلمة قال لي: ها؟ ماذا عملت؟ عددت النقود؟ وأعطاني صما من النقود وقال لي: ضعها في جيبك ولا تعدها كما فعلت في المرة الأولى.

يقول السيد الكاشاني: وبقي صاحبي ينتفع من هذه النقود ما دام على قيد الحياة من غير أن ينقص منها شيء».

ولقد وفق لزيارة بيت الله الحرام وأداء فريضة الحج حوالى سنة ١٣٢٠ للهجرة. ويذكر العلامة السيد محمد حسن نجل السيد علي

---

(١) قدوة العارفين صفحة ٢٨.

القاضي[١]: «مما كان يذكر لنا عن سفره إلى مكة المكرمة، أن أكثر أصحابه في تلكم السفرة كانوا يدخنون، ولا يقوون على الصبر عن استعمال التبغ. . . وكان إدخال التبغ إلى الديار المقدسة أيام حكومة الشرفاء ممنوعا. . . فطلب أصحابه منه أن يودعوا ما لديهم من التبغ عنده. . . لأنه يتكلم العربية، أو لعله يجد الحيلة في إدخالها إلى الديار المقدسة.

فوافق هو مجاملة لهم. . . لكنه بعد أن رأى شدة التفتيش والتدقيق في أمتعة المسافرين تحير، ولم يدر ما يصنع.

يقول: فرأيت أن النجاة في الصدق، وكانت هناك غرفة خاصة يدخل فيها الحجاج مع أمتعتهم، فدخلت الغرفة مع ما لدي من الأمتعة، وحملت حقيبة التبغ بيدي. . . وقام الموظفون بدورهم بالتفتيش الدقيق. . . وعند الانتهاء من عملهم سألوني عن الحقيبة التي كنت أحملها بيدي وعن محتوياتها.

يقول: فأجبتهم بصراحة إنها مقدار من التبغ ...

فصاح الموظف المختص في وجهي قائلا: إنك تهزأ أو تسخر منا. . . اخرج سريعا من الغرفة. . . ولولا أنك سيد شريف لأمرنا بسجنك، فلا ينبغي لمثلك أن يهزأ بموظفي الدولة أو يكذب ...

يقول: فأخرجت أمتعتي من الغرفة سريعا وابتعدت، وصممت على أن لا أكذب مهما كان الحال».

وينقل عبد الرحمن حاتم[٢]: «ويقول آية الله الحسيني الهمداني صاحب تفسير (أنوار درخشان): دعاني العلامة الطباطبائي يوما إلى بيته لتناول طعام الغداء على عقيقة ذبحها بمناسبة مرور عدة أيام على ولادة مولود ذكر له، وكان قد رزق من قبل عدة ذكور ولكن كانوا يموتون في

---

(١) في كتابه: «صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف» صفحة ٢٨٨.

(٢) في كتابه «قدوة العارفين» في صفحة ٦١-٦٢.

أيامهم الأولى، وكان قد حضر الوليمة خمس أو ست أشخاص منهم آية الله الميلاني وآية الله الخوئي والسيد صدر الدين الجزائري.

وقد قال لنا العلامة الطباطبائي في الأثناء: لقد زارنا قبل أيام السيد القاضي ولم أكن حينها في المنزل، فجلس قليلا ثم قال للعائلة عند ذهابه: سيرزقكم الله تعالى في هذه الأيام ولدا ذكرا سموه (عبد الباقي) ليبقى لكم إن شاء الله تعالى، وقد ولد قبل أيام وسميته عبد الباقي على أمل أن يبقى على قيد الحياة.

والسيد عبد الباقي الطباطبائي هو الولد الأكبر للعلامة الطباطبائي، ولا زال على قيد الحياة والحمد لله».

وينقل المؤلف[1]: «ويقول العلامة الطهراني: سألت أستاذنا العلامة الطباطبائي هل تتذكرون شيئا من كلام السيد القاضي عن قائم آل محمد أرواحنا فداه وكيفية ظهوره؟ فأجاب: جاء في الرواية أن القائم عليه السلام عند ظهوره يكون مبدأ دعوته من مكة فيقف بين الركن والمقام وقد أعطى ظهره للكعبة فيعلن عن نفسه، فيجتمع إليه من خواص أصحابه ثلاثمائة وستون شخصا. يقول أستاذنا المرحوم القاضي: فيقول لهم الإمام في هذه الأثناء كلمة فيتفرقون من حوله وينتشرون في أقطار الأرض، وبما أنهم جميعا تطوى لهم الأرض، فيفتشون جميع العالم ويتوصلون إلى أن أحدا غيره لا يملك مقام الولاية المطلقة الإلهية ومأمور بالظهور والقيام وعنده كنوز الأسرار الإلهية وصاحب الأمر، فيرجعون إلى مكة ويسلمون له ويبايعونه. ويقول السيد القاضي: وأنا أعلم تلك الكلمة التي يقولها الإمام لأصحابه فيتفرقون من حوله.

وقد رأيت رواية عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيها: أنا أعلم تلك الكلمة».

وينقل المؤلف[2]: «ويقول السيد الهمداني أيضا: وكانت تمر الأيام

---

(١) قدوة العارفين صفحة ٦٤ ـ٦٥.

(٢) كتاب قدوة العارفين صفحة ٣٢-٣٣.

ولا يراه أحد، وكان يتهجد في الليل ويقضي نهاره بالمطالعة أو التفكير. وكانت غالب زياراته لمرقد أمير المؤمنين عليه السلام في لساعة الثانية بعد الظهر، حيث كان يلتجأ الناس في تلك الساعات في النجف إلى السراديب من شدة الحر. وكان يتعمد في اختيار هذا الوقت لئلا يطلع عليه أحد، ولهذا السبب لم يكن يراه أحد، لا في الحرم ولا في مكان آخر إلا نادرا.

وأما في شهر رمضان فكان يعقد في ليالي العشرة الأولى والثانية مجالس التعليم والأنس. وكان يهرع إليه محبوه من طلاب العلوم الدينية بعد أربع ساعات من الإفطار، ويستغرق المجلس ساعتين. وفي العشرة الثالثة من شهر رمضان كان السيد القاضي يختفي عن الأعين في مكان لا يعرفه أحد، وهكذا كان دأبه إلى آخر سني حياته. ومهما بحث عنه طلابه في الأماكن التي يتردد عليها كمسجد السهلة ومسجد الكوفة وكربلاء لم يجدوا له أثرا.

ويقول العلامة الطباطبائي: كان من عادة السيد القاضي في الأحوال العادية التواجد خلال عشرة أيام إلى عشرين يوما، يلتقي فيها مع محبيه وتلاميذه ويتحدث معهم، ثم يختفي فجأة عدة أيام، فلا يعثر عليه أحد مهما جد في الطلب، لا في المدرسة ولا في البيت ولا في مسجد الكوفة ولا في مسجد السهلة، وينقطع خبره تماما، وحتى عائلته لم تكن تعرف أين يذهب وماذا يفعل. وكان تلاميذه يبحثون عنه في كل مكان يحتملونه فيه بلا جدوى، ثم يأتي بعد عدة أيام ويبدأ دروسه ولقاءاته مع طلابه وأصدقائه، وكانت له عجائب وغرائب أخرى كثيرة، وكان له سجدات طويلة في كل يوم لا يشغله عن الإتيان بها شاغل.

يقول السيد الكشميري: عندما كنت في النجف الأشرف كنت أتشرف بزيارة السيد القاضي في منزله بين الفينة والأخرى، فأجده ساجدا أحيانا، فأدخل الغرفة وأنتظر طويلا لعله يرفع رأسه من السجود، ولكن بلا جدوى، فأخرج وهو لا زال في سجوده.

وكان إضافة إلى السجدات الطويلة يواظب أيضا على قراءة سور المسبحات قبل النوم. يقول السيد الكشميري: كان السيد القاضي يقرأ سور المسبحات في كل ليلة قبل النوم.

وسور المسبحات ـ كما يقول العلامة الطباطبائي ـ هي السور التي تبدأ بـ «يسبح» و «سبح»، وهي خمس: الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن. وأما سورة الأعلى والتي تبدأ بالفعل «سبح» أيضا فهي ليست من المسبحات، وإن ورد ذلك في رواية، ولكن الرواية المعتبرة نصت على هذه السور الخمسة.

وكان رسول الله ﷺ ـ كما في الخبر ـ يواظب على تلاوة هذه السور الخمسة قبل النوم، وحينما سئل عن ذلك قال: إن في كل سورة من هذه السور آية تعادل ألف آية. وفي رواية أخرى أن كل من قرأ المسبحات في كل ليلة قبل النوم فإنه لا يموت حتى يرى رسول الله ﷺ قبل الموت فيريه منزلته ودرجته في الجنه».

وينقل المؤلف[1]: «وكان بشوشا منشرح الصدر ودودا حلو المعاشرة. يقول العارف السيد هاشم الرضوي الكشميري الذي كان من تلاميذ السيد القاضي: عندما كنا نذهب إلى السيد القاضي كان يهب لنا سرورا وارتياحا وانبساطا روحيا ننسى معه جميع مصاعب الحياة ومشكلاتها».

ويذكر أيضا[2]: «ويواصل السيد الهمداني حديثه قائلا: ومن السجايا الأخلاقية الأخرى للسيد القاضي هو ميله إلى الانزواء والابتعاد عن طلب الشهرة، وفي الوقت الذي كان يسعى فيه العلماء والطلاب في النجف الأشرف لحضور دروسه والاستماع إلى توجيهاته ونصائحه كان هو يسعى إلى الاختفاء والابتعاد عن الاجتماعات والتجمعات».

وينقل المؤلف[3]: «ويقول آية الله السيد محمد الحسيني الهمداني صاحب تفسير «أنوار درخشان» أي الأنوار الساطعة: كنت أسكن في مدرسة قوام في النجف الأشرف، وكان للسيد علي القاضي غرفة صغيرة في زاوية

---

(١) قدوة العارفين صفحة ٢٦.
(٢) قدوة العارفين صفحة ٢٧.
(٣) قدوة العارفين صفحة ٤٨.

المدرسة. فتعجبت من ذلك، ثم علمت أنه اختار السكن في هذه الغرفة لضيق منزله وكثرة عياله وأولاده، ليجد الهدوء والخلوة للتهجد والعبادة. وخلال وجودي في مدرسة قوام لم أر السيد القاضي قضى ليله نائما، وكان يحيي الليل بالنوح والبكاء. وقد رأيت في أثناء هذه الفترة القصيرة التي قضيتها معه حالات فريدة لم أرها من أحد غيره سوى النائيني والكمباني.

فكان يختلف عن جميع الأساتذة والطلاب الذين عرفتهم في حوزة النجف في تمام سلوكه وأخلاقه الاجتماعية والعائلية والدراسية. فهو دائم السكوت ولا يتكلم إلا نادرا، وكان يبادر أحيانا إلى الحديث من غير سؤال، وكنت أشعر أنه يعاني أحيانا من صعوبة كبيرة في الجواب، حتى اطلعت صدفة على شيء جلب انتباهي، وهي وجود غدة زرقاء في باطن فم السيد القاضي، فسألته عن ذلك، فامتنع عن جوابي، فأصررت عليه وبينت له أن قصدي هو مجرد التعلم لا شيء آخر، فلم يجبني أيضا، إلى أن خلوت معه في جلسة مرة فبادرني قائلا: يا سيد محمد يجب أن تتحمل مصاعب جمة من أجل طي المسافة الطويلة في السير والسلوك، ويجب عليك أيضا أن تترك أمورا كثيرة، فقد كنت في أيام شبابي وفي ابتداء سلوكي في هذا الطريق، أردت أن ألجم لساني وأسيطر عليه، فوضعت حصاة في فمي مدة ٢٦ عاما لكي أمتنع عن الكلام والحديث الفارغ، وهذه الغدة الزرقاء التي تراها في باطن فمي هي من آثار تلك المرحلة».

ويذكر المؤلف [١]: «ثم بدأت تزداد مكاشفاته على الغيب يوما بعد يوم حتى وصلت حالاته المعنوية في أواخر عمره إلى حد عبر عنها بقوله: لم أستطع جمع المكاشفات والحالات لكثرة وتتابع ورودها.

ويقول آية الله السيد عبد الكريم الكشميري: لقد كان السيد القاضي كله مكاشفة، وقد صار في آخر عمره لطيفا ورقيقا جدا، فكان بمجرد أن يرى الماء يتذكر مصيبة عطش الإمام الحسين عليه السلام ويشرع في البكاء.

---

(١) قدوة العارفين صفحة ٥٢.

ولقد وصل السيد القاضي اثر هذه المجاهدات والرياضات العبادية إلى درجة الفناء في الله عز وجل، فلم يكن يحس ويهتم بما يجري حوله مهما كان ذلك عظيما وخطيرا في نظر الناس».

أحبته في العرفان
سيد هاشم الحداد

كان للسيد علي القاضي تلاميذ كثيرون تربوا على يديه، ومن أشهر هؤلاء بالإضافة إلى السيد حسن المسقطي: السيد هاشم الحداد، والعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، وأخوه السيد محمد حسن الإلهي، والشيخ محمد تقي الآملي، والشيخ بهجت، والشيخ عباس القوجاني، والسيد أحمد الكشميري، والسيد محمد الحسيني الهمداني وغيرهم.

وكان السيد هاشم الحداد من أقرب الناس إلى السيد حسن، وكانت تربطهما زمالة التلمذة وصداقة معنوية حميمة لسنوات طويلة. فلقد كتب العلامة السيد محمد الحسين الحسيني[1]: «وباعتبار أن المرحوم السيد حسن الاصبهاني المسقطي، وكان من أعاظم تلامذة المرحوم القاضي وله علاقات ممتدة وحسنة جدا مع السيد الحداد، قد رحل عن (النجف) سنة ١٣٥٠، فيتضح أن المرحوم السيد هاشم قد اكتسب من فيض المرحوم القاضي أكثر منه بست عشرة سنة. فكم - يا ترى - أفاد المرحوم المسقطي من محضر المرحوم القاضي؟ لو كانت الإجابة ١٢ سنة لاتضح أن رفيقي الطريق هذين قد تشرفا في الحضور في محضر المرحوم القاضي في زمن واحد، أما إذا كان ذلك أقل من ١٢ سنة، فإن السيد الحداد سيكون قد سبقه في الإفادة من محضره».

أما عن كيفية تعرف السيد هاشم مع السيد علي القاضي، فلقد

(١) في كتابه «الروح المجرد» صفحة ١١٠.

ذكر[١]: «نعم، لقد قال السيد هاشم: كنت مشغولا في كربلاء بالدروس العلمية وغيرها من دروس الطلبة، فقرأت إلى «السيوطي» وحين تشرفت بالذهاب إلى النجف للتحصيل، لأفيد من محضر السيد المرحوم القاضي ولأقوم بخدمة المدرسة (المدرسة الهندية: محل إقامة المرحوم القاضي)، ما إن دخلت هناك حتى رأيت أمامي سيدا جالسا أحسست بانجذاب نحوه بلا إرادة، فذهبت وسلمت عليه وقبلت يده، فقال المرحوم القاضي: وصلت!

ثم اتخذت غرفة هناك لنفسي، وبدأ منذ ذلك الوقت ومن هناك باب المراودة مع السيد. وصادف أن كانت غرفة السيد الحداد هي غرفة المرحوم السيد بحر العلوم. وكان المرحوم القاضي يتردد عليها كثيرا، وكان يقول له أحيانا: أخل الغرفة الليلة! أريد أن أبيت هنا لوحدي!

وكان السيد يقول: وبعد عودتي إلى كربلاء كنت أحيانا أتشرف بالذهاب إلى النجف في أوقات الزيارة وغيرها ـ غير الأوقات التي كان السيد القاضي يتشرف فيها بالمجيء إلى كربلاء ـ فذهبت يوما من كربلاء إلى النجف الأشرف وأخذت للسيد خمسين فلسا (جزء من عشرين جزءا من الدينار العراقي) وكان منزل السيد في محلة الجديدة (الشارع الثاني) وكان الجو حارا، فعلمت أن السيد نائم، فقلت في نفسي: إن طرقت الباب استيقظ السيد. فجلست على الأرض جنب باب البيت، وكنت تعبا لدرجة أن النعاس سرعان ما غلبني. ثم استيقظت بعد ساعة فرأيت السيد وقد خرج إلي ولاطفني كثيرا ودعاني إلى الدخول، ثم قدمت له الخمسين فلسا وعدت».

ويذكر عنه أيضا[٢]: «وكان الرفقاء من الكاظمين يقولون: لقد جئنا يوما مع السيد الحداد من كربلاء إلى الكاظمين في سيارة باص صغيرة، فجاء مساعد السائق في الطريق ليجمع الأجرة من المسافرين، فسأل: كم عددكم؟ أجاب السيد الحداد: خمسة أشخاص.

---

(١) الروح المجرد صفحة ١١٤-١١٦.

(٢) كتاب الروح المجرد صفحة ٧١-٧٣.

فقال: كلا، أنتم ستة أشخاص! فكرر السيد العد وقال: بل نحن خمسة! ولقد كنا نعلم أننا ستة أشخاص لكننا تعمدنا عدم قول شيء ليتضح أمر السيد الحداد. قال مساعد السائق من جديد: أنتم ستة!

إلى أن يقول: قال (مساعد السائق): يا سيد! أنت ما تحسب نفسك؟!

وكان الرفقاء يقولون، ولقد كان عجيبا أن السيد الحداد بقي مع ذلك لا يلتفت إلى نفسه، ومع أن معاون السائق يقول له: إنك لا تعد نفسك، إلا أنه كان غارقا في عالم التوحيد والانصراف من عالم الكثرة للحد الذي عجز معه ـ مع هذا ـ أن يلتفت إلى لباس البدن فيعده ضمن الركاب ويضيفه إلى مجموعهم.

ولقد قال السيد الحداد بنفسه للحقير: لم أستطع في تلك الحال بأي شكل أن أعد نفسي، فقال الرفقاء لي أخيرا: أيها السيد! عد نفسك أنت أيضا، فهذا الرجل صادق فيما يقول حين يريد منا أجرة ستة أشخاص. وهكذا فقد أعطيته أجرة ستة أشخاص بغير يقين مني بكلامه ولكن تعبدا بقول الرفقاء. ثم ترجلنا من السيارة للصلاة في مسجد (براثا) وهناك رأيت إمام المسجد الشيخ علي صغير هو الآخر يتشدق بالحديث عن التوحيد والمناداة بنداء: لا هو إلا هو!

وحين قدمنا إلى الكاظمين وذهبنا إلى المغاسل العمومية للتوضؤ، رأيت أنني أجهل التوضؤ. فيا إلهي لماذا أجهل كيفية الوضوء؟! بل اني لا أميز وجها ولا يمينا ولا شمالا. فما العمل والصلاة لا تجوز بغير وضوء؟! قلت في نفسي: فلأسأل عن كيفية الوضوء من هذا الرجل المشغول بالتوضؤ، ثم قلت في نفسي: ما الذي سيرد علي يا ترى؟!

ألن يقول لي، أيها السيد العجوز، ألا تعرف الوضوء وقد انقضى من عمرك ستون سنة؟!

ثم أحسست وأنا أتجه نحوه أن الوضوء جاء تلقائيا، فقد مددت يدي إلى الماء بلا اختيار ولا علم فغسلت وجهي ثم يدي ثم مسحت المسحين

فرأيت ذلك الرجل المنهمك في وضوئه يقول لي حالما لمحني: أيها السيد! الماء هو الله، الوضوء هو الله، لا يخلو من الله مكان!

وكان السيد يقول: كنت أحس أحيانا بخفة الوزن وفقدان الأثر، تماما مثل قشة من التبن الدائرة مع الهواء. وكنت أحس أحيانا بالتجرد من بدني، تماما كما تفعل الحية حين تبدل جلدها وأصبح شيئا آخر، ولقد كان بدني وأعماله أشبه بجلد حية يظهر بشكل كامل كأنه حية واعية يخيل لمن رآه من البعيد أنه كذلك لكنه في الحقيقة ليس إلا جلدا للحية.

وكان يقول: ولقد تكرر كثيرا أن أذهب للحمام، فأخرج منه وقد ارتديت الدشداشة (اللباس العربي الطويل) مقلوبة.

ويضيف: وكان صاحب الحمام يقف دوما خلف الصندوق فيستلم من الواردين نقودهم وودائعهم فيسلمها إليهم عند خروجهم. فذهبت يوما للحمام ودفعت نقودي عند دخولي لصاحب الحمام الواقف خلف صندوقه، فلما خرجت وأردت استرجاع ما استودعته كان مساعده يجلس خلف الصندوق فسأل: أيها السيد، كم تبلغ وديعتك؟

قلت: دينارين! فقال: لا، يوجد هنا ثلاثة دنانير فقط!

قلت: لم تؤخرني؟ خذ واحدا منها لك وأعطني دينارين لأذهب. فلما سمع صاحب الحمام كلامنا سأل مساعده: ما الأمر؟! قال: هذا السيد يقول إن لديه دينارين، وهنا ثلاثة دنانير.

فقال له لقد استلمت منه ثلاثة دنانير بنفسي، هذه الدنانير الثلاثة له، ولا تصغ أبدا إلى كلام هذا السيد لأنه غالبا مضطرب وحاله ليس على ما يرام!

لقد كان السيد الحداد يقول: لقد كنت آنذاك في حال لا يمكنني معه أن أتأخر هناك لحظة واحدة لأتكلم معهم، ولو عطلوني قليلا لتركتهم وذهبت.

وكان يقول: إن علوما في غاية العمق والبساطة والكلية تمر علي في

كل آن، وحين أحاول الالتفات إلى أحدها في اللحظة التالية أشاهد أنها ـ ويا للعجب ـ قد ابتعدت عني فراسخ عدة».

وسئل يوما عن الآية الكريمة: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ما المقصود بالقول الثقيل، وهل أريد به هبوط جبرئيل؟ فيجيب على ذلك (قدس سره): ليس لجبرئيل ثقل أمام عظمة رسول الله ليعبر عنه بالقول الثقيل، بل إن المراد بالقول الثقيل هو: «لا هو إلا هو»!

ويقول السيد محمد الحسين الحسيني[1]: «فخطر ببالي في شارع العباسية البيت الذي كتب على باب مدخل سرداب قبر محيي الدين (بن عربي)، وهو من أبيات محيي الدين نفسه:

ولكل عصر واحد يسمو به   وأنا لباقي العصر ذاك الواحد

وكان يقول: لقد قرأت هذا البيت هناك، فما أعظمه من ادعاء ادعاه محيي الدين!

قال حضرة السيد (هاشم الحداد): «لا عجب في الأمر مطلقا، فقوله هذا قول عادي ومعهود ولا اختصاص له بمحيي الدين وحده، بل إن كل من وصل إلى عرفان الله وفني فيه صارت هذه نغمته. وذلك لأنه لا وجود لمحيي الدين في عالم الفناء بل الله هو الذي يتكلم، وجلي أن الله سبحانه لا اختصاص له بزمن دون زمن، فقد كان موجودا دوما وسيبقى دوما».

ونظير هذا المعنى، معنى بيت ابن الفارض وهو آخر بيت من تائيته الكبرى، لكن محيي الدين يعد نفسه الفارس الوحيد في ميدان التوحيد لجميع العصور اللاحقة، في حين أن تلميذه ابن الفارض يعد نفسه كذلك لجميع العصور السابقة، فيقول:

ومن فضل ما أسأرت شرب معاصري   ومن كان قبلي فالفضائل فضلتي

وأقول: ويحمل على هذا الأساس كلام الكثير الذين صدرت منهم

---

(١) الروح المجرد صفحة ٤٢٥-٤٢٧.

جملات وعبارات كمثل «أنا الحق»، أو «ليس في جبتي سوى الله»، أو ما جاء في خطبة «البيان» و «التتنجية» عن أمير المؤمنين عليه السلام، على افتراض صحة الخطبة وصحة أسنادها وإسنادها إلى أمير المؤمنين عليه السلام، ومع أن التفوه بهذا الكلام يمثل قول الحق، ولكن لم يعهد من الذين رقوا إلى الكمال تعبيرات كهذه تدعى بالشطحات والطامات.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العارف الأكبر، لكنه لم يتفوه بمثل هذه التعبيرات، وإلا لقال بدلا من قول ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عبارة «قل أنا الله أحد».

ولقد كان أمير المؤمنين عليه السلام تلميذه الأول في نهجه ومدرسته، فلا يصح أن يتفوه بكذا وكذا في خطبة عامة أمام الناس، وعليه فإن سند هذا النحو من الروايات مخدوش ومرفوض لهذا الدليل.

بلى، لا إشكال في هذا النحو من التعبيرات في المجالس الخاصة مع بعض الأحبة والأعزة من الأولاد أو الأصحاب لتعريف ذات الحق ووصول عبد الله إلى مقام الفناء في الله، بالرغم من أن أسناد الخطبة يجب أن تتم وإسنادها يجب أن يثبت، لأن مجرد الإمكان لا يصح دليلا على الوقوع والتحقق. كما أن المطالب التي وردت بهذا الشأن عن با يزيد البسطامي ومنصور الحلاج دليل على عدم كمالهما».

وذكر أيضا[1]: «ولقد قال المرحوم السيد القاضي لي يوما: أيها السيد هاشم! لا تفش السر فتبتلى! سيأتي يوم يأتون إليك فيه من الأطراف والأكناف فيقبلون عتبة بابك. وكان يقول: لقد قمت خلال عمري كله بإفشاء سر ما لمرة واحدة فقط، وكان ذلك في الحقيقة نابعا من الحياء، ولا أزال حتى الآن أعاني من ذلك بعد مرور عشرات السنين.

إن أساس مطالب منصور الحلاج هي نفس مطالب سائر العرفاء،

---

(١) الروح المجرد صفحة ٤٢٨.

وليس لديه شيء آخر دونهم، لكنه كان مفشيا للأسرار الإلهية فأوقع خلقا من الناس في الفتنة والفساد، فصعد برأسه إلى المشنقة.

أو كان يقول: لقد نقل العطار مطالب عن الحلاج لو رآها أي عارف أو سمعها فلن يمتدح أسلوبه ونهجه فيها، فهو يقول في جملتها: أنكر أغلب المشايخ الكبار طريقته وقالوا: لا قدم له في التصوف، عدا عبد الله الخفيف والشبلي وأبي القاسم القشيري وجملة المتأخرين الذين قبلوه إلا ما شاء منهم. وكان أبو سعيد أبو الخير قدس الله روحه العزيزة، والشيخ أبو القاسم الجرجاني، والشيخ أبو علي الفارمدي، والإمام يوسف الهمداني رحمة الله عليهم أجمعين، لهم سير في طريقته ونهجه، إلا أن البعض توقف في أمره وطريقته.

ويقول من جملتها: وقال الشبلي: أنا والحلاج شيء واحد، لكنهم نسبوني إلى الجنون فنجوت، ونسبوا الحسين (الحلاج) إلى العقل فهلك».

أحبته في العرفان العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان

أما عن العلامة الطباطبائي: فلقد نقل عبد الرحمن حاتم[1]: «ويتحدث العلامة الطباطبائي عن لقائه الأول مع السيد القاضي قائلا: عندما قدمت النجف الأشرف لدراسة العلوم الدينية لم أكن أعرف شيئا عن وضع النجف، ولا أدري أين أذهب وماذا أعمل، وكنت أفكر أثناء طريقي من تبريز إلى النجف ماذا أدرس وعلى أي أستاذ أتتلمذ وأي طريق أختار ليكون مرضيا عند الله سبحانه.

وحينما دخلت النجف ولاحت لي قبة المرقد الطاهر لأمير المؤمنين عليه السلام وقفت في مقابلها وخاطبته قائلا: يا علي إني جئت إلى هنا لإكمال دراسة العلوم الدينية، ولكني لا أعلم أي طريق أسلك وأي برنامج أختار، وأطلب منك أن تهديني لما فيه صلاحي.

ثم استأجرت منزلا وسكنت فيه، وكنت في الأيام الأولى وقبل اشتراكي في حلقات الدرس جالسا أفكر في مستقبلي، إذ طرق الباب. وعندما فتحت الباب وجدت أمامي عالما كبيرا، فسلم علي ودخل الدار وجلس في الغرفة، فرحبت به، وكان ذا وجه جذاب ونوراني، وتحدث معي بصفاء وإخلاص، وأنس بي، وقرأ لي في ضمن حديثه أشعارا. وقال لي كلاما مضمونه أن من جاء إلى النجف للدراسة فمن المستحسن أن يهتم أيضا بتهذيب نفسه وتكميلها وعدم الغفلة عنها إضافة إلى طلب العلم.

---

(١) في كتابه «قدوة العارفين» صفحة ٦٠-٦١.

قال هذا ثم ذهب، ومنذ ذلك الحين عشقت أخلاق هذا الرجل وسلوكه الإسلامي، وقد ترك الحديث القصير لهذا العالم الرباني أثرا في قلبي اتضح به أمامي برنامجي المستقبلي. وواظبت الحضور عند هذا العالم التقي ما دمت في النجف، وشاركت في دروسه الأخلاقية، وانتفعت من الجلوس عنده. وهذا العالم الكبير كان هو السيد علي القاضي.

ويقول أيضا: نتيجة لعلاقة القرابة التي تربطني بالسيد القاضي فقد كنت أزوره أيضا في منزله بين فترة وأخرى، وفي يوم كنت واقفا في المدرسة حين مر السيد القاضي من هناك، فوضع يده على منكبي وقال لي: يا ولدي إن كنت تريد الدنيا فعليك بصلاة الليل، وإن كنت تريد الآخرة فعليك بصلاة الليل.

فأثر في هذا الكلام إلى حد صرت ملازما له لا أفارقه ليلا ونهارا مدة الخمس سنوات الأخيرة في النجف. وبعد رجوعي إلى إيران استمرت علاقتي به إلى حين وفاته، وكنت أتلقى منه الأوامر والإرشادات طبقا لعلاقة الأستاذ بتلميذه، كما كنا نتبادل الرسائل.

وكان العلامة الطباطبائي يقول: كل ما لدينا فهو من المرحوم القاضي.

ونقل آية الله خسرو شاهي عن العلامة الطباطبائي قوله: كنت قد قرأت كتب المعقول ولكن عندما حضرت عند السيد القاضي علمت أني لم أكن قد فهمت شيئا منها.

ويقول العلامة الطباطبائي أيضا: هذا النهج في تفسير القرآن بالقرآن أو تفسير الآية بالآية كان السيد القاضي قد علمنا إياه، وقد اتبعنا طريقته في التفسير. وكذلك كان يمتاز السيد القاضي بذهنية مفتوحة وواضحة جدا في فهم كلام الأئمة المعصومين، وقد تعلمنا منه أيضا هذه الطريقة في فهم الروايات والتي تسمى بفقه الحديث». وقد اتبع نهج وطريقة أستاذه عندما كتب تفسيره الكبير «الميزان».

وكان العلامة الطباطبائي بحق فانيا في أستاذه، فلقد كتب السيد

محمد حسين الحسيني[1]: «لقد كان أستاذنا يحمل في قلبه عشقا شديدا لأستاذه، وحقا كان يرى نفسه صغيرا أمامه، ويلمس في سيماء المرحوم القاضي عالما من العظمة والبهاء وأسرار التوحيد والملكات والمقامات.

في أحد الأيام قدمت له عطرا، فحمله بيده وقال بعد تأمل: لقد رحل أستاذنا المرحوم القاضي منذ سنتين، ومنذ ذلك الحين لم أتطيب حتى الآن. وإلى الفترة الأخيرة أيضا كنت كلما قدمت له عطرا، كان يقلقه ويضعه في جيبه، ولم أره قد تعطر، رغم انقضاء أكثر من ٣٦ سنة على وفاة أستاذه».

وكتب أيضا: «وكان العلامة يطلق لقب (الأستاذ) عليه فقط، وعندما كان يقول (الأستاذ) بدون قيد فهو يقصد المرحوم القاضي، وكأن جميع الأساتذة الآخرين يختفون أمام وجود ذلك المقام والعظمة العلمية.

أما في المجالس العامة، فإذا جاء الحديث عن أساتذته، فلم يكن يذكر اسم (القاضي) من شدة الاحترام، ولم يكن يذكره الى جانب البقية من الأساتذة، كما نلاحظ في المقالة الوجيزة التي كتبها عن حياته، ونشرت في مقدمة مجموعة المقالات والرسائل التي طبعت تحت عنوان (دراسات إسلامية) فلم يذكر اسم المرحوم القاضي الى جانب الأساتذة»[2].

---

(١) في كتابه «الشمس الساطعة» صفحة ٢٣.

(٢) في كتابه «الشمس الساطعة» صفحة ٢١-٢٢.

أحبته في العرفان
الشيخ محمد تقي بهجت

وأما عن الشيخ محمد تقي بهجت: فلقد نقل عبد الرحمن حاتم[1]: «وأما الشيخ محمد تقي بهجت فقد تعرف على السيد القاضي عن طريق السيد محمد حسن الإلهي الطباطبائي، وكان عمره آنذاك ثمانية عشر عاما. وعندما توثقت العلاقة بينهما واشتهر بين أقرانه بالتتلمذ لديه، كتب عدة من فضلاء الحوزة في النجف إلى والد الشيخ بهجت ـ الذي كان عالما في شمال إيران ـ رسالة يخبرونه عن ضلال ولده وانخراطه في مسلك الصوفية، وأنه صار من أتباع السيد القاضي.

فكتب الوالد إلى ولده رسالة بين له فيها عدم رضاه بإتيان الأعمال العبادية غير الواجبة عليه ونهاه أيضا عن الحضور عند السيد القاضي. فأتى الشيخ بهجت برسالة والده إلى أستاذه القاضي وقال: إن والدي قد كتب هذا لي فما هو تكليفي الآن؟ فقال له السيد القاضي: من تقلدون؟ فقال: السيد أبو الحسن الأصفهاني. فقال السيد القاضي: فاذهب إليه واسأله عن ذلك.

فذهب الشيخ إلى السيد أبي الحسن وشرح له المسألة فقال له: طاعة والدك واجبة. واختار الشيخ بعدها السكوت المطلق، فكان لا يتكلم مع أحد أبدا، حتى أنه يكتب ما يحتاجه من حاجيات على قصاصة من الورق ويعطيها لصاحب الدكان، وكان يسكن في مدرسة السيد كاظم اليزدي التي

---

(١) في كتابه «قدوة العارفين» صفحة ٧٧-٧٨.

أحد أبوابها على الزقاق الفرعي، فكان يتخذه ممرا له في ذهابه وإيابه لئلا يلتقي مع أحد من طلاب المدرسة.

ويقول الشيخ عباس القوجاني: لقد فتحت أبواب للشيخ بهجت في أيام سكوته على عالم الملكوت، وأرى نفسي ملزما أن لا أفشي سره ». ـ

وكتب السيد محمد حسن القاضي[1]: «وقد اتفق أن حظيت في السنوات الأخيرة بزيارة الشيخ العالم العابد الزاهد الشيخ محمد تقي بهجت، فقد غادر النجف الأشرف، وسكن مدينة قم المقدسة، واشتغل فيها بالتدريس والإرشاد، واتجهت إليه الأنظار، وأصبح معتمد الطلبة في المسائل العلمية والأخلاقية والتهذيبية كذلك.

وله صبيحة يوم الجمعة مجلس حافل، يحضر هو المجلس ويجلس كأحدهم دون أن يميز لنفسه مكانا معينا... وللنظرة الأولى لم أعرفه ولم يعرفني هو الآخر، لبعد العهد وتطاول السنين بيننا... ولم أنس أنه كان يدرس الكفاية، ورسائل ومكاسب الشيخ الأنصاري في مدرسة السيد اليزدي، وكان ملازما لمجلس الوالد قدس سره... قلت للنظرة الأولى لم يعرف أحدنا الآخر، غير أن أحد الإخوان الذي كنت بصحبته قد عرفني إليه، فأقبل علي متسائلا ومتفقدا ومرحبا.

ولا يفوتني أن أذكر أني لم أر أحدا تظهر عليه سمات الخضوع والخشوع أثناء قراءة التعزية على أبي عبد الله عليه السلام مثل هذا الشيخ الجليل... مطرقا برأسه إلى الأرض... خفيف العارضين يذكر الله تعالى. وقبل أن ينفض الجمع تقدم إليه أحد الجالسين فقال له: شيخنا علمنا شيئا ننتفع به... أو كلاما آخر من هذا القبيل... إذ لم أتبين كلامه تماما.

فرفع الشيخ رأسه ـ وهو منكمش على نفسه، غارق في تأملاته ـ وقال مجيبا: وهل استفدتم حقيقة من شيء من أعمال البر التي تعرفونها؟!

---

(١) في كتابه «صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف» صفحة ٢٥١ ـ ٢٥٣.

فرد عليه السائل: أي عمل بر تقصدون؟

أجاب: الصلاة ـ مثلا ـ إنكم وبحمد الله تصلون، فهل استفدتم روحيا ومعنويا من هذه الصلاة التي هي عمود الدين، وقربان كل تقي؟! وهل وجدتم آثارها في نفوسكم وأنتم تعيدونها في اليوم خمس مرات؟! فإني أؤكد لكم من أنكم إذا جزتم هذه المرحلة، واستعدت نفوسكم لقبول عمل آخر ينفعكم أكثر منها، فإن الله تعالى بلطفه يقيض لكم من يدلكم على المرحلة الثانية، ويرشدكم إليها وإلى المراحل التي تعقبها.

فارجعوا إلى أنفسكم لأداء الوظائف الملقاة على عاتقكم على الوجه المطلوب، فإن المراحل التي تليها قد تكفل بها غيركم، وإنها ستصل إليكم حتما وقطعا، فأي واحد منا يعرف أشياء كثيرة وتعلم، لكنه لم يعرف ولم يتعلم ولم يدر كيف يستفيد مما عرف وتعلم. فهذه أول خطوة في طريق الوصول إلى الغايات والدرجات العالية من الكمال والمعرفة.

وانفض الجمع بهذا الحديث ...

ولما أردت الخروج وسلمت عليه، قال: هكذا علمنا أستاذنا القاضي أيام كنا نتشرف بمحضره، ولم نفهم مغزى هذا الحديث إلا بعد طول مجاهدات ورياضات نفسية وتأملات عميقة. . . فأنت يجب عليك أن تبدأ الخطوة الأولى بصدق وصفاء، لتستعد نفسك لتقبل الفيوضات والإشراقات. أما الخطوة الثانية فإن كنت تجهلها فإن الله تعالى بلطفه وكرمه سيرسل إليك من يأخذ بيدك ويدلك ويعلمك. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أحبته في العرفان
الشيخ محمد تقي الآملي

وأما عن الشيخ محمد تقي الآملي: فلقد نقل عبد الرحمن حاتم[1]: «ويقول السيد الكشميري: وكان السيد القاضي يواظب أيضا على زيارة مقبرة وادي السلام يوميا من بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وقد ورد الحث على زيارة المقابر بين الطلوعين في إحدى الأخبار.

ويقول السيد محمد حسين الطهراني: نقل الكثير من تلاميذ السيد القاضي أنه كان يتردد كثيرا على مقبرة وادي السلام في النجف الأشرف، وكانت تستغرق زيارته من ساعتين إلى أربع ساعات يوميا، وكان يجلس في زاوية صامتا، وكان تلاميذه الذين يصحبونه أحيانا لا يطيقون صبرا ويذهبون بعد برهة وجيزة ويتساءلون في أنفسهم عن العوالم التي يعيشها أستاذهم خلال هذه الساعات في وادي السلام من غير أن يعتريه التعب أو يتسرب إلى نفسه الضجر والملل. ويقول الشيخ محمد تقي الآملي وهو من الطبقة الأولى من تلاميذ السيد القاضي في الأخلاق والعرفان: كنت أرى المرحوم القاضي يجلس ساعتين أو ثلاثة في وادي السلام فكنت أقول في نفسي: ينبغي أن يزور الإنسان ويرجع ويدخل السرور على أهل القبور بإهداء ثواب قراءة سورة الفاتحة لهم، فهناك أعمال أخرى أهم يجب أن ينصرف لها. وكان هذا الاعتراض في نفسي ولم أخبر به أحدا، واستمر ذهابي إلى السيد القاضي يوميا إلى أن عزمت على الرجوع إلى إيران،

(١) في كتابه «قدوة العارفين» صفحة ٣٤-٣٥.

ولكني كنت متردداً في وجود مصلحة في هذا السفر، وكانت هذه النية في نفسي أيضا ولم أخبر بها أحدا.

وفي إحدى الليالي كنت أريد النوم في الغرفة التي أسكن فيها في المدرسة وكان فيها رف عليه كتب يكون عند قدمي عندما أنام، فنويت النهوض وتغيير مكان نومي ثم تبدل عزمي وقلت في نفسي: لا يحتاج ذلك لأن الكتب ليست في مقابل رجلاي ويقع الرف في أعلاهما، وليس في ذلك هتكا لحرمة الكتاب، ثم نمت. وعندما ذهبت إلى السيد القاضي صباحا وسلمت عليه قال: وعليكم السلام، ليس من المصلحة أن تذهب إلى إيران، كما أن مد الرجلين مقابل الكتب فيه هتك للحرمة. فذهلت من كلامه وقلت متعجبا: من أين علمتم ذلك يا سيدنا؟ فأجابني: من وادي السلام علمت ذلك».

ظهور سيد حسن المسقطي
في مسقط وشبه القارة الهندية

لقد قضت الحكمة الربانية أن يفترق السيد حسن المسقطي عن هذه البيئة الغنية بالعوالم الملكوتية، والحكمة والعرفان والعلوم الإلهية (بيئة السيد علي القاضي ومريديه في النجف الأشرف)، تماما كما تفترق الدرة عن بيئتها الطبيعية وهي الصدفة. وكما تخرج الدرة من الصدفة، لتنير عوالم أخرى، وتروي صدورا حرى، وتبرد عيونا عبرى، متعطشة لرؤية الجمال، ومنبهرة من نور الكمال ـ ولولا حادثة الافتراق لما تحقق ذلك ـ كذلك السيد حسن، أراد الله أن يوليه في هذه الصدفة رعاية وتربية وتنمية، حتى نضج وتسامى إلى جمال الطلعة، وكمال الرفعة، وبسطة في العلم والجسم، وتمكنا في الرفق والحلم، وسعة في الكنوز الإلهية، وغناء وثروة في الحكمة الربانية، حيث أينعت ثمارها، وآن قطافها، وقضى الله سبحانه وتعالى أن يهز بجذع نخلته، وتساقط رطبا جنيا على ربوع مسقط وشبه القارة الهندية.

وصل السيد حسن إلى أعلى درجات العرفان، وحاز بالعشق والولاء ميراث علم النبيين والصديقين، وترقى من أفلاك الطبع والنفس إلى عوالم القلب والروح ومقامات الأسرار الخفية والكنوز الغنية، وسافر من علم اليقين إلى عين اليقين ومن ثم إلى حق اليقين. لأنه تحقق له اليقين بالعلم ثم انتقل إلى مقام أعلى حيث رأى الحقيقة رأي العين، وبعد ذلك تجلت الحقيقة في وجوده.

وبعبارة أخرى عرف الله عرفان اليقين، ثم رآه بعين بصيرته التي هي

أحد وأجلى من عين البصر. ثم تحقق له التجلي الذاتي حيث لا هو إلا هو، وفني العبد الصالح في أنوار الحقيقة الساطعة وتجليات الربوبية، ولم يتحقق له ما تحقق جزافا، ولكنه تعرض لتعليمات أستاذه في السير والسلوك ولنفحاته الربانية، وتلقاها بقلب عاشق واله ثم طبقها على نفسه الواحدة تلو الأخرى في عملية تربية وتزكية رائعة. وبدأ رحلته الشاقة الممتعة من «أنا» إلى «أنا» من هويته المحدودة إلى هويته اللامتناهية، وشرع في الرياضات الشاقة الممتعة في محاربة هوى النفس. وكلما قطع شوطا تضاعفت قواه وعرج من مرحلة إلى مرحلة أعلى ومن مقام إلى مقام أرفع.

بدأ رحلته تحت تعليمات أستاذه من الطبع إلى النفس، ثم عرج إلى مقامات القلب والروح والسر والخفي والأخفى، كل ذلك في ظل السهاد والعبادة حيث تحققت له في حالات ما بين اليقظة والمنام أنوار وتجليات ربانية، لا يعرفها إلا أهلها، وعند ركود الحواس وحدوث الغفوة التي هي بين النوم واليقظة تعلم من ملائكة الرحمن ألف باب من العلم يفتح له من كل باب ألف باب. فاطلع على علوم المحو وأسرار الخلق، بل ادارك علمه في الآخرة وفي عالم الأمر، حيث شاهد «ميثاق الربوبية» بسمعه وسمعه بعينه، وأجاب «بلى» في كل عشق وهيام، وقبل ربوبية الله ودخل في حقيقة عبوديته، أو كما قال الإمام الحسينعليه السلام في دعاء عرفة: «وأقمني بصدق العبودية بين يديك». ولقد قال الإمام عليعليه السلام «العبودية جوهرة كنهها الربوبية».

وتمت هذه الرحلة الشيقة عبر جسر يفصل بين مظهر البشرية ومظهر الألوهية، فتحققت له الرؤية والإحاطة على الطبيعة وما وراء الطبيعة. وفي هذا السير الشيق والرحلة المقدسة تروى العبد الصالح من الشراب الطهور الذي سقاه ربه سقيا. وأين علوم النقل من هذه العلوم الغريبة والشهود والتجليات العينية.

وبعد هذه الرحلة الشيقة رجع إلى مظهر البشرية وهمه الإيثار بهذا العطاء لنخبة من الأكفاء الذين تلقوا الميثاق في عالم الأمر ثم نسوه

وفقدوه، وهم الآن يكدون ويكدحون في إثر ضالتهم المنشودة. وكما قال الرسول الأعظمﷺ: «العطيات على قدر القابليات». وقضى الله أن تبقى هذه الأمانة في الأرض تتناقلها صدور الأكفاء جيلا بعد جيل. وهذا النوع من العلم قال عنه رسول اللهﷺ: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء». وليس هذا من نوع العلوم النقلية بالتحقيق.

فهذا النوع من العلماء أشار إليهم الرسول الأعظمﷺ في حديثه: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل». فهم بالتحقيق على مستوى أنبياء بني إسرائيل يتلقون الوحي والإلهام كما تلقوها. فهذه هي الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ـ كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1].

فهذا النوع من العلماء الذين أقامهم الله بصدق العبودية بين يديه، هم العارفون بأنفسهم، المقرون بالظلم والجهل في نفوسهم، القاطعون الأشواط الكبيرة للخلاص من هذه الصفات، والارتقاء من مظهر البشرية الداني إلى مظهر الربوبية العالي. وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[2] فيلقى الله في هذه العوالم السامية، فتفنى القطرة في محيط البحار ويذوب العبد في محيط أنوار الأفلاك، ويتلقى الأنوار يقذفها الله في قلبه، وينجلي له ما كان على البشر مكتوما، ويرن في أذنه كلام قد غفل عنه سائر البشر. يقول الرسول الأعظمﷺ: «لولا اللغو في اللسان والتمريج في القلب لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع».

وما أصدق الشاعر في وصف حالاته:

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٧٢.

(٢) سورة الانشقاق الآية ٦.

وحز بالولا ميراث أرفع عارف غدا همه إيثار تأثير همة
أسافر عن علم اليقين لعينه إلى حقه حيث الحقيقة رحلتي
وآثارها في العالمين بعلمها وعنها بها الأكوان غير غنية
فأتلو علوم العالمين بلفظة وأجلو على العالمين بلحظة
هي النفس إن ألقت هواها تضاعفت قواها وأعطت فعلها كل ذرة
فعالمنا منهم نبي ومن دعا إلى الحق منا قام بالرسلية
وقل لي من ألقى إليك علومه وقد ركدت منك الحواس بغفوة
وما كنت تدري قبل يومك ما جرى بأمسك أو ما سوف يجري بغدوة
فأصبحت ذا علم بأخبار من مضى وأسرار من يأتي مدلا بخبرة
أتحسب ما جاراك في سنة الكرى سواك بأنواع العلوم الجليلة
وما هي إلا النفس عند اشتغالها بعالمها عن مظهر البشرية
تجلت لها بالغيب في شكل عالم هداها إلى فهم المعاني الغريبة
وقد طبعت فيها العلوم وأعلنت بأسمائها قدما بوحي الأبوة
فثم وراء النقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة
تلقيته مني وعني أخذته ونفسي كانت من عطائي ممدتي[1]

وعلى الرغم من أن الفراق عن أستاذه وحبيبه كان عليه صعبا، والانتشال من رحم الصدفة كان عليه شاقا ـ وما أشبه غربته عن ديار المحبوب بغربة مولاي وإمامي ومقتداي السلطان الغريب أبي الحسن الرضا عليه السلام ـ إلا أنه هو العارف العظيم الذي يسلم أمره إلى الله ولا يعترض عليه لا باللسان ولا في الجنان، بل كله تفويض وتسليم إلى الله، وتوكل عليه، وانصياع لأمره وتدبيره، وطالب منه أن يختار له في قضائه، وأن يبارك له في قدره.

فما أحلى أن يوجه العبد وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفا مسلما، وأن يعشق تدبير الخالق في كل أموره وشؤونه، وأن يكون فانيا في إرادته ومشيئته، ولهجا بذكره وتسبيحه، عاشقا ولهانا، لا يهمه إلا محبوبه،

---

(١) التائية الكبرى المسماة بنظم السلوك لابن الفارض.

ولا يستسلم لهموم الدنيا وغمومها طرفة عين... بل لا يهتم بمصائب الدهر وتقلباته، كل همه في الله وفي خدمة الله، طالبا من الله أن يجمعه عليه بخدمة توصله إليه. فكل هدفه ومبتغاه هو الله الواحد القهار، لا يبتغي عنه بديلا، ولا يرجو غيره أنيسا، يبكي من عميق فؤاده لعشق وصاله. فوالله الذي لا إله غيره، لولا الأجل الذي كتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب وخوفا من العقاب.

وما أحلى أن يصبر العبد الصالح على كل المضايقات والمعاكسات والمعاندات، والاستخفاف والجدل والمهاترات، من الجهلة من حوله وهم كثيرون. وأكثرهم انعمقوا في الدين وفي الشريعة، وأصبحوا أسرى الرأي وملابساته، وقد باشر الشك والريب فيهم، وغدوا بمنأى عن الثبات واليقين. وهم لما يقعوا في حب الله وجذبات عشقه، بل سدوا الأبواب والنوافذ على أنفسهم بظنهم استحالة هذه الأشياء لناس غير الأنبياء والأئمة الطاهرين وقليل من العلماء.

ولقد قال إمامنا الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «وخسر صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا». فصفقاتهم خاسرة لا محالة لأنهم لم يذوقوا الحب الإلهي رغم وفرة علومهم التي اكتسبوها وتعمقهم في مسائل الشريعة. وما أحلى أن يتخطى العبد امتحانات الصبر، ويرتقي مدارجه ومعارجه رغم مرارته وصعوبته، في حيال هؤلاء الجهلة أو أنصاف العلماء، الذين ليس لهم هم إلا الاستخفاف والسخرية من أولياء الله الصالحين، والتحامل بل التطاول والاجتراء عليهم، والتشفي منهم بمختلف الأساليب، واستعمال الجدل معهم في مسائل الدين، ونبذهم بالألقاب التي هدفها الحط من أقدارهم أمام الناس.

وليس هذا جديدا فإن أهل الصفة وعلى رأسهم مولاهم الإمام عليه السلام كانوا محاطين بمثل هؤلاء العلماء الجهلة، الذين كانوا ينتقدونهم على الدوام ويثيرون معهم الجدل في مسائل الدين. وكان هناك من يتطاول كثيرا على مولانا علي عليه السلام، فكان إذا سمع ذلك تلا قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ

ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[1]، عملا بالكلام السماوي في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[2]. فكان عليه السلام يلتزم الصمت، وكان إن صمت لم يغمه صمته، وإن نطق فكلامه بيان، وإن صمت فصمته لسان، كما قالها عليه السلام في وصف الأولياء المغمورين الذين اختفت ولايتهم عن أعين الناس الذين كانوا معهم وفي زمانهم... وهذا هو بيت القصيد!!

فشهرتهم في الأجيال التالية إنما هي نتيجة تربية الأجيال من نعومة أظفارهم، والتي ردد المربون أسماءهم وقدسوهم في سطور هذه التربية من الطفولة، ومن ثم انعكست على الأجيال. فميزان الحق أن تعرف أهل الحق وأنت معهم وفي زمانهم... لا بعد مماتهم. وربما قدس المرء وليا من الأولياء بعد مماته، تبعا لأقوال الناس والمربين من حوله، فربما يصنف هذا الانسان مع الذين ذكرهم الامام عليه السلام لكميل بن زياد: «وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح». وأما شرط أحقية المرء وهدايته فهو أن يكون إما عالما ربانيا أو متعلما، وما أقل المتعلمين! فأكثر الناس يعتقدون أنفسهم علماء فكيف يسمح لهم كبرياؤهم بأن يتعلموا!!

وللإمام عليه السلام شعر جميل ينسب إليه، يتكلم فيه عن أصحاب الجدل المنعمقين في الدين، ويوصي بتركهم وبمصاحبة إخوان الثقة الذين يحبون الله. يقول عليه السلام:

ولم يزل سيدي بالحمد معروفا	ولم يزل سيدي بالجود موصوفا
وكان إذ ليس نور يستضاء به	ولا ظلام على الآفاق معكوفا
فربنا بخلاف الخلق كلهم	وكل ما كان في الأوهام موصوفا
وفي المعارج يلقى موج قدرته	موجا يعارض طرف الروح مكفوفا
ومن يرده على التشبيه ممتثلا	يرجع أخا حصر بالعجز مكتوفا
فاترك أخا جدل في الدين منعمقا	قد باشر الشك فيه الرأي مأووفاً

(١) آخر آية من سورة الروم.

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٣.

واصحب أخا ثقة حبا لسيده   وبالكرامات من مولاه محفوفا
أمسى دليل الهدى في الأرض مبتسما   وفي السماء جميل الحال معروفا

والأولياء والعرفاء على رغم وجودهم في داخل المجتمع إلا أنهم يتحملون جهلهم ويسايرونهم ويجاملونهم، بل حتى إذا تجرأوا وتطاولوا عليهم صبروا وسكتوا وأغضوا على القذى ولم يردوا عليهم بشيء، ولكن لسان حالهم هو الطمأنينة والسلام كما قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[1]. فهم عباد الرحمن الذين يرون الله ولا يرون أنفسهم، وقد تحرروا من إمبراطورية «الأنا» واستبداد الذات وطغيان النفس، وتواضعوا لله حتى الفناء، يسبحون في أنواره ولا يرون غيره. ومثلهم في داخل مجتمعهم كمثل راكب في سيارة مكيفة تسير في عرض الصحراء الملتهبة، والناس على رمال الصحراء يتعذبون في رمضائها من شدة الحر، أما هو فهو في مكان بارد وفي عالم آخر غير العالم الذي يعيش فيه الناس في جواره. فإنه على الرغم من الجوار المادي إلا أن انتفاء الجوار الكيفي شيء مؤكد، فشتان ما بين الحالتين وما بين المقامات. وهم في مقامهم الشامخ في أعلى عليين يدعون أبناء قومهم إلى هذا الجوار الكيفي والنجاة من مقاماتهم السفلية. وأنى أن يتحقق لهم ذلك إلا إذا استيقظوا وتنبهوا إلى الجحيم الذي يعيشون فيه، كما يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾[2]. ومتى تحقق لهم رؤية الجحيم الذي يعيشون فيه، بعلم اليقين وعين اليقين، هنالك يأتي الجوار الكيفي مع ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[3]. ويعبر عنه الحق تعالى بقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[4]. وهل ترضى الديدان التي تعيش وتقتات على الغائط أن تنفصل عنه وتسمو عليه إلا إذا رأت الغائط بعين أسمى!!

(١) سورة الفرقان الآية ٦٣.
(٢) سورة التكاثر الآيات ٥ ـ ٧.
(٣) سورة النساء الآية ٦٩.
(٤) سورة التكاثر الآية ٨.

وما أكثر الناس الذين يشبهون هذه الديدان ولا يستعملون عيون البصيرة التي حباهم الله بها، ثم إنهم إلى آخر عمرهم لا يفيئون إلى خير والعياذ بالله، ويعمهون عن الكنوز الخفية التي أودعها الله فيهم، وعن القلوب والأعين والآذان التي في وجودهم. ولقد قال الله فيهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

نعم إنهم يعيشون في عوالم الملكوت والجبروت واللاهوت، وهم في كساء حيائهم وذلهم وانكسار قلوبهم أمام الخالق، يمشون على الأرض هونا، حيارى صامتين في بواطن وجودهم، منشغلين بالاشراقات الربانية وبأنوار العز اللاهوتية، ومبهورين بأنوار الرؤية. أما عقولهم فقد ارتقت إلى عالم الجبروت، وتحررت من عقال الحجى ومن أغلالها وسلاسلها. فهم يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولسان حالهم يقول: «رب اجعل روحي نسخة من اللاهوت ووجهي نسخة من الملك والملكوت وقلبي خزانة الحي الذي لا يموت».

فعوالم الملك والملكوت تعم كل شيء من الطبيعة وما وراء الطبيعة، وكلها تطفح بالاشراقات الربانية والأنوار الإلهية. ولقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2]. فهم في عليين وفي عوالمهم العليا لا يرون غير الله، ولا يرون لغيره ملكا قائما ولا حكومة ولا دولة ولا سلطانا. بل لا يرون في غير الله إلا ظلالا وأفياء وتعينات وسرابا، بعيدا عن عوالم العز والاصالة. وهم قد تفرغوا لهداية من يستحق الهداية ولو كان رجلا واحدا. فهذه الأمانة العظيمة لا بد لها أن تستمر من جيل إلى جيل ومن صدر إلى صدر ومن شيخ إلى مريده وفتاه.

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٨.

(٢) سورة النور الآية ٣٥.

وكأن الشاعر يصف عوالمهم العليا وبواطنهم المشرقة وقلوبهم الصافية:

باتوا حيارى في أعالي ركنهم	صمتوا حيارى في كساء حياها
عقدت لسانهم لمن ثقل الرؤى	صفيت قلوبهم بنور رؤاها
بهروا بنور العز في لاهوته	جبروته أفنى عقال حجاها
لانوا وذابوا في رحى ملكوته	وبملكه بهما طمت داراها
جحدوا لغير الله ملكا قائما	سلطان عز في الثرى وسماها[1]

نعم، أن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها وخير لك من حمر النعم!!! نعم هذا هو التوفيق العظيم الذي ناله السيد حسن، فكما أراد في النجف الأشرف أن يرفع الأرواح الطاهرة إلى عوالم ملكوت، كذلك أراد في مسقط وفي الهند المترامية الأطراف، فوفقه الله في ذلك، وكان عاقبة أمره خيرا، ليس للجيل الذي عايشه وحده، بل للأجيال التي تأتي من بعده تترى، ويرجع فضل ذلك إليه، فهو الذي لم يرد الدنيا ولا علوا في الأرض ولا فسادا، بل جعلت له الآخرة، فكان كل همه ينصب عليها، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.

نعم، بهذه الخلفية الغنية، والمواهب السنية، التي أغدق الله عليه إغداقا، وأكرمه بها إكراما، وأجله بها إجلالا، وبهذا اللسان الطليق، الفصيح البليغ، وبهذه الحرارة والحماس في الدعوة إلى الله، وبهذه الحكمة المتعالية، والعلم الغزير، والكنوز الخفية، التي فاضت على روحه العالية، من لدن حكيم عليم... نعم بكل هذه السجايا ومكارم الأخلاق، وسعة الروح، أتى إلى مسقط وإلى الهند، عسى أن يقتطف وردا من ورود اللطف الإلهي، وزهرة من أزهار الجنة... وعسى أن يلتقي بأرواح صافية زكية، فينتشلها من عوالم الناسوت، ويرفعها إلى الملكوت بل إلى الجبروت واللاهوت، ويصل بذلك إلى السعادة التي لا تضاهيها سعادة،

(١) كتاب «السموات السبع» صفحة ٧٦.

والأمان الذي لا يباريه أمان، وفي هذا فليتنافس المتنافسون. وقد قال الله تــعــالــى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

فالأمن والأمان ليس في جاه الدنيا وسيادتها، ولا في طلب الرئاسة والعلو في الأرض، فإن الدنيا ما هي إلا أيام وليالي ثم تنقضي، وتبقى تبعات الظلم على مدى الخلود، تثقل الروح سلاسل وأغلالا وسعيرا، وتنغص الحياة البرزخية ندما وعذابا أليما. وواضح وضوح الشمس أن الله يمتحن الناس ـ والعلماء خاصة ـ بأساليب مختلفة، ومن أهمها حب الدنيا وحب الرئاسة، فينقلبون على أنفسهم بظلم ويلبسون إيمانهم به، ذلك هو الخسران المبين والضلال البعيد، ولكن أكثر الناس عن هذا غافلون.

وأن الله يمكر بخلقه ـ وخاصة العلماء منهم ـ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [2]. ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [3]. وظلم النفس من أخفى المعاصي وأمرها وأدهاها، ولكن لا بد من الرجوع إلى النفس واكتشاف أساليبها الخفية وحبائلها الإبليسية، وهل يتيسر ذلك إلا بمعرفة النفس؟ وهل يتيسر ذلك إلا باستقرار العدل والإنصاف، واقتلاع الأنانية، والتسامي على النفس، والمراقبة الذاتية المستمرة الدائمة؟

بلى العلم نفسه هو من أخفى الامتحانات، يصيب الإنسان بالغرور، فيحسب نفسه كبيرا، ويصيبه داء العجب وما أدهى هذا الداء!!! إلا من رحمه الله وأفاض عليه بعلم المحو. ولقد تحدث رسول الله ﷺ عن هذا الداء العضال فقال: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم بأشد من ذلك... العجب العجب». ولقد أخبرني الحاج موسى شعبان بأن السيد حسن كان يعلم تلامذته في مسقط دعاءه الذي كان يحبه، وكان يلهج به لسانه ويذكر

---

(١) سورة الأنعام الآية ٨٢.

(٢) سورة الأنفال الآية ٣١.

(٣) سورة الأعراف الآية ٩٩.

به قلبه، وهو واقف بين يدي ربه: «إلهي ارزقني ما لا يقدر عليه غيرك... ارزقني التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود». وهذا هو معيار العلم... كم يبعدك عن دار الغرور وكم يقربك إلى دار الخلود.

نعم، لقد أتى السيد حسن إلى مسقط وهو يحمل نفس الحماس ونفس الحرارة التي كان يحملها في النجف في دعوته إلى الله، وإلى التجافي عن دار الخطايا والغرور والإقبال على الآخرة. ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ (سورة الضحى). نعم لقد جاء إلى هنا وكان لا يفتأ يلقي محاضراته... ولكن مع هذا الفرق: كان في النجف تجتمع تحت منبره حوالى خمسمائة من الطلاب العاشقين الوالهين، ولكن هنا في مسقط لا تجتمع تحت منبره إلا أفراد بعدد أصابع اليد أو أقل!!!.

ولكن السيد حسن لا يعير هذه المسائل أدنى أهمية ولا يوليها أي اعتبار، فهو الذي يتجسد في كل وجوده ما قاله جده الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «لا تزيدني كثرة الناس حولي عزة ولا تفرقهم عني ذلا». ولكن بالله عليك أخبرني من هو الخاسر: طلاب النجف العاشقون الوالهون والحوزة العلمية أم السيد حسن!!!.

الحوزة العلمية هي بأمس الحاجة إلى أمثاله، ولكن على من تقرأ زبورك يا داود!!!

فلقد أصبح كثير من العلماء يحبون الألقاب بدل اللباب، ويقبلون على الخطابة من أجل الجاه بدل أن يتعظوا قبل أن يعظوا، ويحبون لثم الأيادي بدل بياض وجوههم عند الله الذي يعلم خفايا النفوس، ولا يستر عنه ساتر، ولا يخفى عليه خافي. كأنهم نسوا ما قاله الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «يبعث الناس يوم القيامة على نياتهم». فبدل أن يصلحوا النيات، أقبلوا على إصلاح ظاهرهم، وغفلوا عن إصلاح باطنهم، بل اتهموا من عملوا في هذا الاتجاه ودعوا إليه، بأشنع الاتهامات وطعنوا فيهم ونكلوا أسوأ تنكيل. وأين هم من كلام سيد الأوصياء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «طوبى

لمن شغله عيبه عن عيوب غيره»!!! فالأحرى بهم أن ينظروا إلى أنفسهم وينشغلوا بتفتيش عيوبهم، ويبكوا عليها، عسى أن يرفع الله عنهم أغلالها وقيودها وسلاسلها، وأن يبتعدوا عن استطالة ألسنتهم على أولياء الله الصالحين.

فهم والله منشغلون عنهم بشراب طهور سقاهم الله سقيا، ولكن ما أعظم تحسرهم على هؤلاء، كما تحسر الحسينعليه السلام على قاتليه لأنهم يدخلون النار بسببه!!!.

أو ما سمعوا قول عليعليه السلام: «إن لله تعالى شرابا لأوليائه، إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا أخلصوا، وإذا أخلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم».

ولعل وجود العرفاء جعل فتنة وامتحانا، وابتلي به المؤمن ابتلاء، كما ابتلي أهل الكوفة بوجود الإمام الحسينعليه السلام. ففي ظاهر الأمر، الإمام الحسينعليه السلام ابن صحابي وفقيه، وعمر بن سعد ابن صحابي وفقيه أيضا، وكلاهما كانا يلعبان معا في الطفولة. وإذا كان أبوه صهر الرسولصلى الله عليه وآله ، فإن الرسولصلى الله عليه وآله نفسه هو صهر أبي سفيان، ولذلك سموا معاوية خال المؤمنين. فالمعيار هو: «اعرف الحق تعرف أهله» كما قال الإمام عليعليه السلام. فإن الله تعالى يمتحن ويفتن المؤمن حتى تتم حجته عليه، ولا يبقى له عذر أمام الله. فلقد فتن الله موسى... فتونا كثيرة، كما قال الله مخاطبا موسىعليه السلام: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ﴾ [1]. وأيضا قال الله عن فتنة المؤمن وامتحانه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[2].

وكان تأثير السيد حسن عظيما على هذه الأمة، فإن طفولتي اصطبغت بصبغته العرفانية اصطباغا، وامتزجت بعطر ذكراه امتزاجا، رغم أني لم أره

(١) سورة طه الآية ٤٠.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٢.

قط عيانا. ويخبرني كبار الأسرة بأننا كنا معه في منزله في ممبي بالهند لحوالى شهر واحد، خلال مرورنا على الهند في رحلتنا من زنجبار إلى مسقط، في أيام الحرب العالمية الثانية. وكان يأخذني إلى مكان معروف في ممبي يسمى «علي بابا» ـ وهو مزار أحد الأولياء الصالحين ـ إلا أنني لا أذكر شيئا، لأنني كنت دون الرابعة من عمري. ويظهر أن مغناطيس الشخصية ـأو وجوده الأثيري ـ تحمل أمواجه عطرها وصبغتها إلى من يستحق من عباد الله، أو ـ كما يقوله العلم ـ إلى الجهاز الصالح لتلقي هذه الأمواج، أو ـ كما يقوله العرفان ـ إلى من هو في مستواها من الموجودات الأثيرية. فلقد احتوى الرسول الأكرمﷺ كل هذه الأقوال في كلمة واحدة: «كل ميسر لما خلق له». والله أعلم كيف تتأثر الأشياء بعضها ببعض، وكيف تصطحب الشخصيات في عوالم الأثير ـ جلت قدرة الخالق في خلقه!!!.

ولم أكن أنا وحدي في ذلك المستوى، فأمثالي كثيرون، وكل تلقى الأمواج الملكوتية حسب استعداده ودرجته التي قسمها الخالق العظيم بين عباده. وكان الفلاح من نصيب هذه الأمة من أبناء مسقط، وذلك بفضل السيد حسن وسمو منزلته المعنوية التي من الله بها علينا. وأذكر أني حينما زرت الدار التي تطبع كتبي في بيروت، ووقعت العقد لطبع كتابي: «ألف باء العرفان»، قال لي مدير الدار: «إنكم أهل مسقط كلكم تتكلمون عن العرفان»!!! وما أسرع ما أهطل وجوده على ظهرانيتنا ديم العرفان على ربوع العراق ومسقط وبلاد الهند المترامية الأطراف، وبل الأرض بعد الجفوف وأخرج النبت بعد الجدوب.

نعم، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [(١)]. إنه فضل الله علينا أن من علينا بإنسان عظيم، لا تصل ألفاظي إلى كنه عظمته، ويقصر لساني عن أوصافه، فلقد فههت في هذا الكتاب عن بيان مسألة الحياة التي نفخها في الأمة نفخا، فاللسان كليل والعلم قليل. والحياة التي نفخها ما هي إلا الحيوان التي ذكرها الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ

(١) سورة آل عمران الآية ٧٤.

﴿ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1]. وهل يساوي شيء في الوجود حقيقة الحياة والحيوان! وهل غيرها إلا المنية التي يسرع إلى البلى قفولها وعن قريب تأكلهم الجنادل والثرى ويطحنهم بكلكله البلى! كما يقول مولانا علي عليه السلام. فلقد أحيا السيد حسن أمة بأسرها، ومن أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا.

نعم أتى إلى مطرح وهو يحمل روحا متأججة بالعشق بأستاذه الذي رباه وأوصله إلى هذا المقام العظيم... وهو يحمل ذكريات العشق والوله والهيام التي أوراها فيه معلمه العظيم سيد علي ميرزا القاضي... فذهل عن نفسه واتصل بربه، وتجرد عن أردية الجهالة، وسطعت فيه شمس المعرفة، واطلع على الحقيقة المجردة، وارتفع إلى الملأ الأعلى وعرج إلى السموات العلى، وأسقط عن نفسه أوراق الردى كما تفعل الأشجار في فصل الخريف، وزالت عنه النقوش والأفياء، وخرج من قفص الطبيعة إلى الحياة الحقيقية ـ حياة الحرية والإسراء في وادي طوى، وجاذبية العشق والهيام والهوى، والعروج إلى الملأ الأعلى.

وبعد هذه الرحلة المقدسة من «أنا» المحدودة إلى «أنا» الإلهية وقع في جاذبية العشق للمولى، ونال السلطان والطاقات وشدة القوى، للنفوذ من أقطار الأرض والسموات العلى. قال الله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾[2]. كل ذلك وحواليه قوم بسيط من أهل مطرح لما يطلعوا على هذه العوالم والأنوار، وعلى هذه العلوم والأسرار، وكان يتمنى لهم أن ينالوا ما ناله من الدرر الثمينة والأحجار الكريمة والكنوز الخفية.

نعم جاء الى مسقط ومطرح والباطنة لكي ينقل اليها هذه الكنوز، ويودعها في صدور نظرائه، ويزرعها في قلوب أشباهه، وهم على رغم قلة عددهم إلا أن الله سبحانه وتعالى نشرهم ووزعهم على أرجاء

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٤.

(٢) سورة الرحمن الآية ٣٣.

المعمورة. ثم انه تعالى أرسل رسله إلى الأرواح الطيبة لنشر الكنوز الخفية من الكتاب والحكمة والمعرفة. وتتلقاها الأرواح الطيبة في فرح وسرور وبهجة وحبور، كأنها تنتظرها بكل شوق ولهفة منذ آلاف السنين، فتهطل عليها هطول الودق على البلد الميت، فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج كريم. فكأن الديم أتت لتحيي بلدة ميتا، في قوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾[1]. وكأن الأرواح الطيبة تعرفها منذ زمن بعيد، فالمستقى من قليب، وما أعظمه من قليب! والمفزع من ذنوب، وما أروعه من ذنوب!!

نعم أتى إلى مطرح مخلفا ورائه أستاذا وما أعظمه من أستاذ... كان قلبه يتأجج بنار غرامه، وكان يتذكره في كل مناسبة. حتى أنه أرسل بعض تلامذته الذين أظهروا حبهم لله من أمثال سلمان لالاني إلى أستاذه في النجف الأشرف كي يتربى تحت إشرافه كما تربى هو ـ وهذا ما أخبرني به الحاج علي خميس، وأكد عليه ابن أخت سلمان وهو الحاج مهدي محمد مختار. كان قلبه يطفح شوقا إلى هذا الأستاذ العظيم، وكان يحن إليه ويذكر الليالي والأيام التي قضاها معه، يستمع إلى الحكمة الربانية، ويتلقى الماء الزلال من العين الصافية، كما حصل لموسى عليه السلام مع أستاذه شعيب عليه السلام. وفي ذلك يقول الشاعر:

وقد التقينا بالشعيب ونوره	فلكم أحن إلى الشعيب إلٰها
ولكم أهيم بشوقنا في حبه	ولكم أذوب بعشقه وفناها
ولكم قضيت مع الشعيب لياليا	سحرت ببلبل لحنها صماها
وكم التهمت لآلئا من فمه	وكم ارتويت لمن نبيذ صباها
ولكم سكرت لمن طهارة شربة	ألقوا لفي حلقي لذيذ قراها
ولكم طربت أيا شعيب لصوتكم	وصفاء خمرتكم وخمر صفاها

(١) سورة ق الآية ١١.

فحنيننا في مدين لعظيمة   عظم الجبال الراسيات ذراها[1]

نعم هذا الروح المجرد العظيم جاء إلى مسقط، وبدأ يتلمس طريقه إلى المستحقين، وما أندر وجدهم! لكي يميط عن أعينهم طيوف اليأس، ويبشر الأخاديد المهزوزة التي غمرها الجفاف بقطر السماء. وهذا الأمر يحتاج إلى فراسة كفراسة المؤمن لتمييز الدر عن الحجر، وإلى كدح وصبر وأخلاق كريمة تستقطب هؤلاء القلة من الناس. وكانت مجالسه رحمه الله تنعقد في مجلس (الكوميتي) من أجل هؤلاء القلة، حيث كان ينشر تعاليمه الإلهية بين هؤلاء، ويعلمهم طريق التقوى الذي من أخذ به عزبت عنه الشدائد بعد دنوها، واحلولت له الأمور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها، وأسهلت له الصعاب بعد إنصابها، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها، وتحدبت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجرت عليه النعم بعد نضوبها، ووبلت عليه البركة بعد إرذاذها ـ كما قال مولانا علي عليه السلام. وهو يتمنى لهم الوصول إلى الوجه الكريم، كما كان أهل الصفة يريدون وجهه. ويتمنى لهم أن ينزل كلام الله على صدورهم كنزول الجبل، ويحسون وطأه، ويستلذون بكلام الرب وهمساته في ضمائرهم ووجدانهم وفي أعماق وجودهم، فهو حاضر في ضمائرهم يطلع عليهم، وفي سرائرهم يشاهدهم وجها لوجه. وهو يتمنى لهم أن يميط الله عنهم درن الذنوب، وأن يستشفوا لطائف فطرتهم حتى يبرز على صحيفتها الميثاق الذي عقده الله معهم في عالم الذرة حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فأجابوا ﴿بَلَىٰ﴾.

وما أسرع ما تعامت عنه عيون وصمت عن ندائه آذان، ونسوا أو تناسوا استجابتهم لهذا النداء القدسي وهم في نشأتهم الأولى. فهي تهيج في ضمائرهم وترن في آذانهم ليل نهار، ولكنهم أسكتوا وخنقوا ضمائرهم وأسدلوا الحجاب عليها، واستقر الوقر في آذانهم، ونسوا حضور الحق في وجودهم، وأن أعضاءهم شهوده وجوارحهم جنوده وضمائرهم عيونه وخلواتهم عيانه ـ كما قال مولانا علي عليه السلام. فلا بد من طبيب إلهي يكون

(١) كتاب «السموات السبع» صفحة ١٤٧.

على يديه جلاء عشا أبصارهم، ويزيح العمى عن ضمائرهم، ويزيل الوقر عن آذانهم، ويرفع الحجاب عن أعضائهم وجوارحهم، حتى يروا شهود الله وجنوده بأم أعينهم. وهذا الطبيب يعلمهم نهج السير والسلوك الذي يدعو إلى دار السلام والخير والفلاح، والنجاة من الفتن التي ترد على الناس شوهاء مخشية، وإلى استظلال الشجرة التي صدع الله منها أنبياءه وأولياءه. ومتى ما برز الميثاق واستجابتهم له إلى الظهور مرة أخرى، استأنسوا واستلذوا بها واستساغوا العشق في هذا العالم الفريد. وهنالك تتغير حياتهم رأسا على عقب، ويتعرضون لنفحات الله وتزكيته التي بها طهور دنس أنفسهم، وتهيم أرواحهم بحثا عن الله، كالذي يرى الحسناء في لمحة بصر ثم يقع في عشقها ثم يهيم بحثا عنها. وبهذه التعليمات الربانية تتبدل ظلمات الجهل إلى نور المعرفة وإشراقاتها، وتتغير حياة المريدين من فرقة الشمل وتكاثر آلهة الاهتمامات إلى تجمع قواهم وطاقاتهم في التوحيد وفي اهتمام واحد فقط ينصب في الله عز وجل، حيث يعفرون له وحده خدا ووجها، وتكون فيه وحده قرة عيونهم، ويكونون كما قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1]. أو كما يقول الشاعر:

هـو واحـد وسـواه مـوج عـابـر ... وإلـيـه فـلـيـتـبـتـلـوا تـبـتـيـلا[2]

ويتم ذلك عن طريق التركيز في شغاف القلب حيث (العقدة النورانية)، فالقلب هو النافذة على الملأ الأعلى، ومن المستحيل النفوذ إلى عالم الملكوت إلا عن طريق القلب.

وسيد حسن يتمنى لمريديه هذه المقامات، ويتذكر سيره وسلوكه تحت تعليمات أستاذه، ويده البيضاء التي أوصلته إلى هذه المقامات، وملأت وجوده نورا وإشراقا. وقبل ذلك كان لا شيء... كان يحفظ في صدره علوما نقلية أشبه ما تكون بالنقوش على الرمال وتسجيلات المسجل... وهل تكون المعلومات المحفوظة علما!!! ويتذكر كيف انهارت السدود

---

(١) سورة الرحمن الآيتان ٢٦-٢٧.

(٢) كتاب «ألف باء العرفان» للمؤلف صفحة ٤٣.

وتدفقت مياه القدس ومسحت النقوش من فوق الرمال... فكيف ينسى اليد البيضاء التي أسدت إليه كل هذا الجميل وأفاضت عليه كل هذه النعم وحولت وجوده إلى عوالم الروح القدس، وإلى عوالم المحو واللقاء والوصال والخلوة الدائمة مع الله، وكيف جعله يرتقي من عوالم التكاثر إلى سماء التوحيد، حيث لا وجود لغير الله الأحد الصمد. وأصبحت كثرة الموجودات في نظره كقطرات الماء تحسبها شتى وما هي في الحقيقة إلا الماء، فهو لا يرى إلا الماء الماء الماء.

ويصف الشاعر تمنياته لأهل مطرح بمباهج العروج إلى السموات العلى وكيمياء العشق والغرام والجوى ورؤية الإشراقات والأنوار والمحيا:

يا ليت أقوامي بمطرح شاهدوا ... مثل التي شاهدت من حسناها
يا ليتهم سمعوا وحسوا وطأه ... قيلا قويما من لدن عنقاها
همسات ليلى في سويدائي بقت ... وحنين قلب متيم لصداها
أوروا وهيج العشق في أرجائها ... قد أشعلوا نارا بأرض طواها
درسوا معالم جهلنا في قوة ... وصلوا معاقد قلبنا بسماها
جرفوا بسيل العرم بأس سدودنا ... ملأوا بقيعتنا بحور مياها
محيت سدود من نقوش رمالنا ... زالت لمن وجه الثرى أفياها
سالت مياه القدس في قيعاننا ... ملأت بحور قاعها وخواها
فالقلب بعد سلوكه في أسرها ... في رقها في نيرها بجواها
فلقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... زالت حدود سرابها وسواها
أحدية صمدية قد هيمنت ... وتكاثر القطرات ملء وعاها
قد أطلقوا روحي لمن قفص الثرى ... وهبوا لها جودا سرى إسراها
قد تيموا روحي بعشق وليها ... فالروح مثل الطير في أجواها
فالطير في شد الرحال لمولد ... والروح في جذب إلى مبداها
قد أطلقوا الطير الحبيس وتيموا ... طير السما في نير شد قواها[1].

---

(١) كتاب «السموات السبع» للمؤلف صفحة ١١٤-١١٥.

تلاميذه ومحاضراته في مسقط

تتلمذ عليه في مسقط عدة من رواد الثقافة منهم محمد خميس وجواد خابوري ومحمد جواد درويش وسيد سعيد القارئ وسلمان لالاني، وفي الهند أشهر من تتلمذ عليه هو رشيد ترابي. وعندما غادر السيد حسن عمان إلى الهند هاجر محمد خميس أيضا إلى الهند كي يكون في جوار أستاذه، ولا يحرم من تعاليمه العالية وأنفاسه القدسية. والرسائل التي كتبها السيد القاضي إلى المسقطي انتقلت إلى محمد خميس بعد وفاة السيد حسن (تغمده الله برحمته الواسعة وأسكنه فسيح جناته). والجدير بالذكر بأن هذه العائلة كلها ـ عائلة الخميس ـ قد ملئوا بنفحات العرفان إلى يومنا هذا، وذلك بفضل السيد حسن المسقطي.

روى لي الحاج موسى شعبان بأن سيد حسن كان يلقي المحاضرات في المسجد، وأن سيد سعيد القارئ وملا عبدل كانا يكتبان هذه المواعظ والمحاضرات. وكان أيضا يلقي محاضراته صباحا في مجلس (الكوميتي) وكان الحاج موسى نفسه حاضرا في هذه المحاضرات ويستمع إلى مواعظه القيمة.

وأخبرني أحد الأصدقاء أن المرحوم جواد الخابوري عندما كان يزوره كان يقول له يا جواد أنشدني شعر «لست أدري» لايليا أبو ماضي، فكان جواد يقرؤه وسيد حسن يستمع إليه وتعجبه الحيرة في مملكة الله.

وأخبرني أيضا أحد الأصدقاء أنه لم يكن ليسمع عن ولي يقطن في المساجد أو على الجبال أو في الكهوف إلا زاره. ومرة سمع عن ولي يقطن في مسجد الريام (قرب مطرح) فذهب إليه يتجاذب أطراف الحديث معه، أو ليوحي إليه بإذن ربه تعاليم الخالق سبحانه وتعالى، أو ربما ليتلقى

التعاليم الإلهية عن طريقه. فديدنهم هو ذكر ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ كما كان ديدن الرسول الأعظمﷺ.

وأخبرني أيضا بأنه كان يتجول في الليالي في جبال مطرح ومسقط ووديانها، وكثيرا ما كان يأتي من مطرح إلى الدارسيت في الليالي. ويأولون ذلك بأنه كان وليا مرتاضا، وهذه كانت جزء من رياضاته. إلا أن ما كان يجري في عوالمه كان يختلف عما يرونه الناس في الظاهر. فبكلمة «المرتاض» تتداعى عند الناس أفكار أخرى تتوجه إلى المرتاضين الهنود وتقاليدهم الهندوسية. وأين هذا من ذاك! وأين الثرى من الثريا! فالظاهر مضلل إذا لم تؤخذ النيات والعوالم في الباطن بعين الاعتبار. فلقد ضلل الظاهر أناسا كثيرين في التاريخ وعلى الأخص التاريخ الإسلامي. وما كانت انتكاسة المسلمين الروحية بعد نبيهم محمدﷺ إلا نتيجة لتضليلات الظاهر، وقد تنبأ الله جل وعلا بذلك في القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾[1]. فالهندوس مثلا يرتاضون للدنيا ولتقوية القوى المغناطيسية في أنفسهم بحيث تؤهلهم للإتيان بأعمال خارقة العادة أو لتقوية شخصيتهم الدنيوية أو للخلاص من المتاعب النفسية. في حين أن أولياء الله لا ينظرون قط إلى الدنيا وكل همهم هو الله.

فالسيد حسن كان ينشد وجه الله وحده حين كان يصعد جبال مسقط ومطرح، ويدخل كهوفها وغاراتها، وينزل إلى وديانها، ويتجول على تلالها وسواحلها، ويشم أزهارها ورياحينها، كما كان يخرج النبيﷺ إلى جبال مكة وغار حرا. فالنيات وعوالم الباطن هي الأساس. فلقد قال رسول اللهﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على نياتهم». أو في حديث آخر: «يحشر الناس يوم القيامة عرايا» أي مجردين عن عوالم الرياء والظاهر ومكشوفين على نياتهم وعوالمهم الباطنية.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

وكان السيد حسن ينشد في أعماق البحار الدرة الثمينة في بطن الصدف، ألا وهو الحقيقة أو جوهرة العبودية التي كنهها الربوبية، كما قال مولانا علي عليه السلام. بل كان ينشد الربوبية في جذبات عشقه، فهو يبحث عن الله في الوديان حين ينزل إليها بحثا عن النيران عله يسمع صوت الحق، كما حدث لموسى عليه السلام في وادي طوى. بل كان ينشد في تجواله ميقات ربه وهو يهيم في الجبال والوديان كالعاشق الولهان، كما حصل ذلك الميقات لإبراهيم عليه السلام في مسجد الخيف ولإسحاق عليه السلام في بئر شبع وليعقوب عليه السلام في بيت ايل ولموسى عليه السلام على جبل سيناء ولعيسى عليه السلام على جبل ساعير ولمحمد صلى الله عليه وآله في غار حراء. وهو يعيش عاشقا ولهانا في محاسن وجهه متنقلا بين الجبال والتلال، وبين شذى الياسمين والرياحين والأزهار يشم فيها طيب أريج الله وعبق الرحمن. وفي حياته الاجتماعية يستلذ مصاحبة الأحبة عله يجد الوجه الكريم في قدس طهر شفاههم، بل كان يخالط الناس في غيهم عله يرى ومضاء البرق في الليلة المظلمة. ثم يعود إلى خلوته إلى قلبه الحزين منقبا في شغاف قلبه وفي النقطة النورانية من القلب عن سناء الأنوار وظهور الأسرار. فهو في هيامه ينشد الله وهو الأمنية الوحيدة التي يحملها، وينشده سلوى لكربته ومرهما لجرح قلبه ووقى وحماية له من كيد الأعداء وخيانة الأصدقاء مناجيا على عتبته في حرقة الجوى: «الهي اجعلني في درعك الحصينة التي تجعل فيها من تشاء».

وكأن الشاعر يصف لسان حال السيد حسن وهو يهيم كالعاشق الولهان في جبال مطرح ومسقط ووديانها وتلالها وسواحل بحارها وبين كهوفها وياسمينها وأزهارها:

فغدوت أنشد في مشارف مسقط ... وعلى سواحلها محياها
فلكم أحن إلى محيا وجهها ... ولكم أميط براقعا لرؤاها
ولكم أئن لمن فراق أحبة ... ولكم أهيم لفي ربى بيداها
ولكم أغوص لفي البحار منقبا ... عن صدفة في البحث عن عنقاها
قد أرتقي جبلا وبعدا تلها ... علي أقابل في الجبال سناها
قد أنزل الوديان من قمم العلى ... علي أرى نارا بقدس طواها

فلكم أغوص وأرتقي في حيرة ... ولكم أخوض لطائفا وخفاها
ميقات ربي علها في خيفها ... في بئرها في غارها بحراها
وأنام ليلي ويقظتي قد أسفرت ... في القلب منتظرا جلا رؤياها
وأعيش يومي في محاسن وجهه ... متنقلا بين الربى وشذاها
وأشم في قدح المدامة تارة ... وأذوق رشفة خمرها أخراها
وتقر عيني بنظرة في زهرة ... في جلنار حدائق برباها
وأشم في الريحان طيب أريجه ... والياسمين لفي نسيم صباها
وأرى أريج الله في أرجائها ... عبقا من الرحمن من أسماها
وترق ما بيني وبين حبيبتي ... أسرار عهد صبابتي وصباها
وأرومها بين الحدائق ناشدا ... بين الورود وزهرها وجناها
وأرومها بين الأحبة علني ... أجد السنى في طهر قدس شفاها
وأرومها بين الورى في غيهم ... فلعل في وسط الدجى ومضاها
وأرومها فوق الجبال لعلني ... ألقى على عليائها سلماها
وأرومها وسط الكهوف ومهجتي ... تشتاق رؤيتها لفي ظلماها
وأعود في قلبي الحزين منقبا ... في معقد الأنوار عن اسناها
فعلمت أنك في هيامي منيتي ... ولمهجتي في كربتي سلواها
وكليم قلبي أنت مرهم جرحه ... ولفتية الكهف الوقى وحماها[1]

ووفقه الله بعد ذلك إلى خدمة أوصلته إليه، كما قال إمامنا الحسين عليه السلام: «واجمعني عليك بخدمة توصلني إليك». وكان عاقبة ذلك أن سقاه الله من شرابه الطهور كما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[2]. ويصف الشاعر هذا الشراب الطهور وهذا النبيذ الرباني بقوله:

ولسرنا قصرت بنات شفاهنا ... عن كنهها وعظيم قدس رؤاها
ولسرنا دقت ورقت في خفا ... كعروسة في حجلة لحياها
وعلى رمال شواطئ في مطرح ... بحنا بأسرار الخفا وجواها

(١) كتاب «السموات السبع» صفحات ١١٧-١١٨.

(٢) سورة الدهر الآية ٢١.

وتحدثت عن سرنا ملك السما	نبتت سرائرنا على شفتاها
وتحدثت عن سرنا قمرية	دوت بصوت أنيننا بغناها
وعلى مشارف مسقط في كلبو[1]	عرفت رمال شواطئ بشجاها[2]

(١) كلبو هي قرية ساحلية بالقرب من العاصمة مسقط.

(٢) كتاب «السموات السبع» صفحة ١٧١.

روايات الأستاذ محسن بن جمعة
نقلا عن المرحوم جواد الخابوري وغيره

أولاً: ولقد أفادني الأستاذ محسن بن جمعة محمد اللواتي ما لديه من معلومات عن السيد حسن المسقطي حيث قال:

إن الأستاذ جواد الخابوري المعروف بتصوفه وعرفانيته كان من الذين لازموا المرحوم السيد حسن فترات طويلة من الزمن، وله معه أحوال ومواقف منها أن المرحوم السيد حسن (قدس الله سره) كان يقدر الأستاذ جواد ويعرفه معرفة جيدة وفي أي بحر كان. وقد درسه كتاب الإشارات للسبزواري، وكان يحضر معه الدرس الديني مع الدارسين، وبسبب ما امتنع عن حضور الدرس. وبسبب مواقفه الفكرية المتجددة استقطب عداوات من أفراد الجماعة، فأرادوا أن يوغروا صدر العلامة ضده، وأكبروا وعظموا واستكثروا جرم المرحوم جواد لعدم حضوره الدرس الديني. ولما ضاق العلامة ذرعا قال لهم: اذهبوا وقولوا له بأن السيد يسأل لماذا لا تحضر الدرس عند السيد. فكان رده عليه رحمهما الله:

إن أنا شئت أو أشاء فجماد	والذي شاء أو أشاء أنا هو
سينماء وما أنا فيه إلا	صورة قد يريك ما يهوى هو
وأدق العلوم عندي جهل	إذ لا يقتضي البسيط مداه

فلما استلم السيد حسن هذه الأبيات أثرت في نفسه، ولسان حاله كان يقول لهم: هذا الذي تتهمونه بالكفر والزندقة والعصيان... إنه في أعماق الإيمان.

ثانياً: أخبرني الأستاذ جواد بأنه كان يلازم السيد في مدينة ممبي

الهندية حيث كان السيد راعيا وإماما لمسجد (مغل). وعند اقتراب وقت الصلاة حيث كان يؤمها يقول لجواد: فلنذهب إلى فتح (الدكان) أي محل التجارة، ومن ثم عندما يعود إلى البيت بعد صلاة الجماعة كان يعيد صلاته بطريقته العرفانية.

وقد سمعت ذلك من ابنه مصطفى ـ والكلام للمؤلف ـ بأن السيد كان يعيد صلاته في بيته من بعد صلاة الجماعة، وذلك لأنه كان في درجة الاحتياط أو الاجتهاد غير المعلن، وذلك لتنزيه صلاته من كل الشكوك المحتملة.

ويتابع الفاضل محسن بن جمعة بأنه لا بد لي أن أوضح قصد السيد من التجارة لاحتمال أوجه عدة: منها أن الصلاة تجارة مع الله، وأن العرفاء على درجة من الشفافية بحيث يلتقطون إشارات خلجات العوام وهم مشغولون في صلاتهم في مشاكلهم بدلا من التفرغ الكلي للمعبود. وهذا الأمر صعب على العرفاء، فتكون تلك الإشارات والانشغالات تعكس ضجرا لدى الإمام العارف، وهو بذلك يعتبرها ثلمة في الصلاة فيعيدها بعد أن أعطى بركاته للمأمومين.

ثالثاً: يروي الفاضل محسن جمعة بأنه عند اقتراب أجل السيد حسن المسقطي، كان السيد يعرف تماما يوم أجله بالتحديد، وكان قد صحب بعض المقربين إليه بما فيهم الأستاذ جواد الخابوري إلى مقبرة الشيعة في حيدراباد دكن بالهند. يقول الأستاذ جواد بأن السيد حدد مكان قبره وطلب أن يدفن هناك، ثم قال لجواد بأنه عند دنو أجلي ـ وحدد له اليوم ـ سوف يصل أخي السيد حسين الموسوي وسيراني وأراه، ولكن لن يكلمني ولن أكلمه، لأن في ذلك الوقت سيكون لساني قد انعقد. يقول الأستاذ جواد الخابوري بأن ما قاله لي السيد حسن قد حدث فعلا.

وسأذكر في فصل قادم رواية ابنه مصطفى التي حدثني بها ـ والكلام للمؤلف ـ بأنه كان يصطحبه في رحلته الأخيرة إلى حيدراباد دكن في معية الشيخ رشيد ترابي والسيد صادق، وأنه حدد لهم ـ في آخر زيارتهم للمقبرة ـ يوم وفاته ومكان قبره في مقبرة المؤمن في حيدراباد.

رابعاً: يقول الأستاذ محسن جمعة بأنه قد نقل عنه من لازموه خاصة في مسقط بأنه كان يدخن ويتأمل، وقد تصل السيجارة إلى أصابعه وهو لا يشعر، فيسرع أحدهم إليه لإزالة السيجارة من بين أصابعه.

ويوضح محسن بأن السالكين والعرفاء لهم أحوال مع الله، وعند تأملاتهم في آلاء الله ـ وهم في مقاماتهم العلوية ـ تنجذب أرواحهم إلى تلك الآفاق المقدسة حيث يفنون عن أنفسهم في أنوار جمال الحبيب. وعندها يستقرون في جذبة من جذبات الرحمن، كما أشار الإمام زين العابدينعليه السلام في مناجاته إليها، وكما قال الرسول الأعظمصلى الله عليه وآله: «جذبة من جذبات الرحمن تعادل عبادة الثقلين». ولن يكون غريبا عليهم رداء المقام الإبراهيمي الذي يخلعه المولى عليهم، فتمتنع النار عن أكل أجسامهم. لأنه قد تصل السيجارة إلى نهايتها ـ ويفرض أن تحرق أصابعه ـ قبل أن يتنبه أحد ويسرع إلى نزع السيجارة من بين أصابعه.

وقد لازمت هذه الظاهرة السيد حسن المسقطي زمنا طويلا.

خامساً: يقول محسن بأن السيد كان يمنع الناس من الدخول عليه في أوقات معينة. وإذا حدث خرق لهذا الأمر ودخل أحد إليه في ذلك الوقت، فإنه كان يسمع أصواتا وأحاديث تتراود بين السيد وبين مصدر ما لا يراه أحد.

وقد روى لي الحاج موسى شعبان (والكلام للمؤلف) بأن السيد حسن كان قد منع أخاه السيد حسين بأن يدخل غرفة معينة في بيته. وفي يوم من الأيام كان السيد حسن في مجلس (الكوميتي) فنهض من مكانه وقال بأن أخاه قد دخل المكان الممنوع، ثم أسرع إلى المنزل فرأى أخاه قد وقع مغشيا عليه فاقدا وعيه على عتبة تلك الغرفة الممنوعة.

سادساً: يحدثنا الأستاذ محسن بن جمعة عن بعض أحواله (قدس الله سره) فيقول بأن أحد التجار أهداه (كشيدة) غالية، وهو راجع في (الترام) إلى بيته في مدينة ممبي. والكشيدة هو (مصر) أو عمامة من الصوف الكشميري الفاخر المطرز بالابريسم الحرير. فأخذها السيد ونظر إليها ثم

لف بها جسد هندوكي كان يجلس أمامه عريانا. فانفعل التاجر وعاتب السيد بقوله: أنا أعطيتك هذه (الكشيدة) غالية الثمن لتغطي بها جسدك، وإذا بك تعطيها لهذا الهندوكي! فرد عليه السيد: أنت أعطيتني وأنا قبلتها... ألم تصبح ملكي؟ فقال التاجر نعم. فقال السيد: إذن أنا حر في التصرف بما هو لي... أم تريد استرجاع هديتك؟ فقال التاجر: لا يا سيدي أنت حر في تصرفك.

ولقد سمعت قصة مشابهة ـ والكلام للمؤلف ـ من حيدر موسى عن أبيه الحاج موسى خميس بأن السيد حسن عند مغادرته مسقط إلى الهند قدم إليه أفراد كثيرون من الجماعة هدايا. فما كان منه إلا أن وزع هذه الهدايا على الفقراء ولم يبق معه شيء، حتى أنه حين كان يركب (الهوري) ـ وهو القارب الذي كان يحمل الناس من مطرح إلى الباخرة ـ لم يكن معه فلس واحد ليعطيه إلى صاحب القارب، فاستقرض سبع روبيات من الحاج عبد الله دامن.

كذلك لقد قيل أنه وقف مرة متأملا أمام زفة عرس للبلوش وهم يغنون ويرقصون، وقد انهمرت الدموع من عينيه. فما كان من مرافقه إلا أن قال له يا سيد هذا لا يجوز ولا يليق بك أن تنظر إلى هؤلاء ومن ثم تبكي. فكان رد السيد له: أنت لا ترى ما أراه!

وتأويل الأستاذ محسن جمعة هو أن بكاء السيد يجوز أن يكون لما رأى من هؤلاء الرجال والنسوة يرقصون ويغنون وهم مع الشيطان وفي غفلة عن الله، فبكى لحالهم. وقد يكون بكاؤه استعطافا للمولى ليغفر ذنوبهم، أو لشيء آخر خفي عن أنظارنا وعقولنا، أو لمناسبة لا نريد الكلام عنها... ولله في خلقه شؤون... ولكل وجهة هو موليها.

سابعاً: كان السيد حسن ذا عطاء كشفي حيث كان يشير لأي مجنب لم يغتسل وحضر مجلسه بأن يرحل ويغتسل، ولكن بأدب جم ومن غير هتك ستره.

ثامناً: لقد قصده مستشرق يبحث في ادعاءات أهل الأديان والمذاهب

قائلا له: لقد تعبت وعانيت وأنا أمر على أصحاب الأديان المختلفة استقصي وجهة الحق عندهم. فرأيتهم كلهم يقولون: نحن أصحاب الجنة ومخالفونا أصحاب النار. فما وجهة نظركم يا سيد فيمن سيدخل الجنة وما هي الجنة؟ فرد عليه السيد حسن: سيدخل الجنة كل ذي مبدأ شريف وأن الجنة هي جوار الله والنار هو البعد عن جوار الله. والمبدأ الشريف في عقيدة السيد لا يختلف شيئا عن التوحيد.

علم الغيب عند سيد حسن المسقطي وأستاذه

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾[1] فكما ذكرت الآية الشريفة إن علم الغيب عند الله وحده ولكنه يظهر على غيبه من ارتضى من خاصة عباده الصالحين وذلك بإذنه ولحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى.

فكما ذكرنا في الفصل السابق، تلقى العلوم على قلب العبد الصالح وقد ركدت منه الحواس بغفوة. وهذه الحالة هي عبادة السالكين، وهذه التجليات هي الكشف والشهود والفتوحات التي يفتحها الله على العارفين. ويصبح بإذن الله ذا علم بأخبار من مضى وأسرار من يأتي، ويتجلى له بالغيب بإذن الله من يهديه إلى فهم المعاني الغريبة، ويظهره الله على غيبه بإذنه ويسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا حتى يبلغوا رسالات ربهم.

والله سبحانه وتعالى محيط بما لديهم ولم يكن ليهبهم ذلك لو علم منهم التفاتا إلى مظهر البشرية. ويشهد العبد غيبه وهو في جلوة خلوته، مرفوعا عاليا عن مظهر بشريته، ملتصقا بالعروة النورانية في قلبه، بعيدا كل البعد عن عالم التكاثر والظلمات، ويكشف الستر له عن أمور أحصاها الله عددا، وسواه من البشر عنها في ستر وغطاء. ولا يفهم ذلك إلا أهلها الذين مروا بمثل هذه التجربة الشيقة. وهل يفهم معنى العسل وذوقه وطعمه إلا أولئك الذين مروا بالتجربة وذاقوا العسل فعلا؟ ومن لم يذق العسل في

(١) سورة الجن الآيات ٢٦ ـ ٢٨.

حياته لا يفهم أولئك الذين يصفون هذه التجربة الغريبة عنه إلا إذا شمر عن ساعديه وكد وكدح ومارس التجربة بنفسه.

فكما في أشباح الوجود وهياكله لا يفهم شيء إلا بالتجربة، كذلك في أرواح الشهود وتجلياته. فإن كنت تنشد الشهود والتجليات فعقلك وقواك الذهنية لا تسعفك في ذلك، ولكن اتبع نفس الطريق الذي سلكه العرفاء حتى وصلوا إلى هذه التجربة الشيقة. وحتى في العلم لا تصل القوى العقلية والذهنية إلى اليقين إلا بالتجربة، فما بال الشهود والتجليات! فإن كنت تفهم ما أقول ويهيج فيك الشوق إلى هذه الملذات، فاتبع طريق السير والسلوك، فإنه الطريق الذي يصفه الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾[1]

وكما أن عيون الظاهر تتنعم بحظوظ النفس وهواها، كذلك تتنعم أرواح الشهود بالكشف والشهود والتجليات وبتسامي الروح وعظمته ووسعته. ولكن الفارق الكبير بينهما أن أشباح الوجود متغيرة وزائلة، وأن أرواح الشهود ثابتة وباقية وخالدة، وهي تتنعم بالدارين الدنيا والآخرة. ولقد قال الإمام علي عليه السلام: «ما لعلي ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى».

ثم إن إسارة الطبع والنفس تؤدي بالروح إلى الهلاك، وهل يرضى العاقل بنعيم زائل على حساب السعادة الأبدية والنعيم السرمدي! في حين أن السالك الذي يخترق أفلاك الطبع والنفس ويعرج إلى التجليات القلبية والروحية وإلى الأسرار في عالم الأبرار، يتنعم بالنعيمين الفاني والباقي، ويتزوج وينجب ويأكل من طيبات ما رزق الله ويلبس من طيبات اللباس ويهبه الله من المال والجاه، ولكن كل ذلك يحدث من دون أن يكون له أي تعلق قلبي بالنساء والأولاد والطعام واللباس والمال والجاه.

فقلبه ووجهه متوجه للذي فطر السموات والأرض حنيفا مسلما، لا يشرك مع الله في قلبه ووجهه مالا ولا جاها ولا شيئا من متاع الدنيا

---

(١) سورة الانشقاق الآية ٦.

وزخرفها، ويعلم أن ما به من نعمة فمن الله وهو المقصود وهو المالك في الدارين وهو اللطيف الخبير. ولقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[1].

وفي هذه التجليات والشهود ينبئه الله بأخبار الغيب إن شاء ذلك، ويغدق عليه علوما منها الفراسة ومعرفة الأشكال. فلقد قال الرسول الأعظمﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». ويطلع السالك في صحوه على سراب الصفات والسمات البشرية، ثم يعينه الله على الارتقاء من مظهر البشرية إلى مظهر الألوهية، فلا يبقى في وجوده صفة ولا اسم ولا رسم، ويطلع على ما وراء الحس وعلى ما وراء الطبيعة، ومنها علم الغيب. كما أن الله يطلعه على علوم غريبة وعلى أسرار وكنوز خفية، لا يطلع عليها إلا الصديقين المقربين. وقد قال الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف». والله يجتبي من الخلق من يريدهم لحفظ هذه الأمانة، وهو يعلم حيث يجعل رسالته.

وما أصدق الشاعر يصف هذه التجليات الغيبية:

جلت في تجليها الوجود لناظري ... ففي كل مرئي أراها برؤية
وأشهدت غيبي إذ بدت فوجدتني ... هنالك إياها بجلوة خلوتي
ولست على غيب أحيلك لا ولا ... على مستحيل موجب سلب حيلة
وثم أمور تم لي كشف سترها ... بصحو مفيق عن سواي تغطت
وعني بالتلويح يفهم ذائق ... غني عن التصريح للمتعنت
ومن عرف الأشكال مثلي لم يشبـ ... ـه شرك هدى في رفع إشكال شبهة
فبالنفس أشباح الوجود تنعمت ... وبالروح أرواح الشهود تهنت
فنقطة غين الغين عن صحوي انمحت ... ويقظة عين العين محوي ألغت

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٠.

وليسوا بقومي من عليهم تعاقبت صفات التباس أو سمات بقية
رقوم علوم في ستور هياكل على ما وراء الحس في النفس ورت
رموز كنوز عن معاني إشارة بمكنون ما تخفي السرائر حفت
وفيما تراه الروح كشف فراسة خفيت عن المعنى المعني بدقة
ترى صورة الأشياء تجلى عليك من وراء حجاب اللبس في كل خلعة[1]

ونذكر عدة حالات من علمه بالغيب ومن علم أستاذه ـ رضوان الله عليهم ـ استقيناها من الثقاة من الرواة الذين صاحبوه:ـ

(١) التائية الكبرى المسماة بنظم السلوك لابن الفارض.

تنبؤ سيد حسن المسقطي بكارثة القطار وإنقاذ حياة الحاج علي عبد اللطيف

أخبرني الحاج حسن ابن الحاج علي عبد اللطيف (اللذين كانا شيخي القبيلة) أن أباه كان في بمبي بالهند وحضر مجلس السيد حسن في مسجد مغول، وكان أبوه رحمه الله تاجرا معروفا وكان قد أرسل بضاعة من بمبي إلى كراجي بالباخرة. وكان أبوه ينوي السفر إلى كراجي للإشراف على بضاعته ولكنه كان مترددا بين السفر بالقطار أو بالباخرة. فجاء إلى السيد حسن يطلب منه استخارة الله تعالى، فنظر إليه السيد حسن وقال له لا داعي للاستخارة فأنا أعلم ما في قلبك وهو كيت وكيت، وأنا أنصحك أن تسافر بالباخرة لا بالقطار. فأطاعه الشيخ علي عبد اللطيف وسافر بالباخرة إلى كراجي، وفي اليوم التالي كان يتصفح الجرائد فوجد فيها أن القطار الذي كان سيحمله من بمبي إلى كراجي قد دمر في حادثة مروعة.

ومثل هذه الكرامات والقوى الخارقة للعادة لا يمكن أن تفسر بالعلم الحديث حتى الآن. وسنشرح في فصل لاحق تطورات العلم المستقبلية وتلاقيها بالدين بفضل الملايين من الملايين التي تخصص الآن على مستوى الحكومات من ميزانيات الدول المتقدمة، وبفضل تضافر الجهود عند العلماء في كل العالم في كل ميادين العلم وعلى الأخص علم الفلك.

أما من وجهة النظر الدينية فالمعلوم أن القوى ـ بجميع أشكالها ـ مسخرة للإنسان إذا توافرت فيه شروط الخلافة الإلهية في الأرض. فسجود الملائكة كلهم أجمعين لآدمعليه السلام بعدما جعله الله خليفة في الأرض وعلمه الأسماء كلها، وبعدما أنبأ آدم الملائكة بأسمائهم، وبعدما سوى الله آدم

ونفخ فيه من روحه ـ كما جاء في القرآن الكريم ـ ما هو إلا تسخير جميع القوى الفيزيكية والمتافيزيكية الموجودة في العالمين لصالح الإنسان الذي تأهل للخلافة الإلهية في الأرض.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.[1] وفي آيات أخرى قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[2].

فإذا اتصل العبد بربه فلا فرق بينه وبين حبيبه كما قال مولانا الإمام عليه السلام في حديث الشراب. وهل يمكن تمييز القطرة من البحر إذا عادت القطرة إليه! فالعشق يصهر العبد صهرا في ربه وهذا هو معنى الفناء عند العرفاء. فإذا رآه العبد ورأى تجليه في كل شيء فهو لا يرى غيره بل لا يرى نفسه، فالاتصال يمحو كل شيء حتى النفس حيث تنكمش تدريجيا حتى تنمحي في الوجود البحت البسيط. يقول الإمام علي عليه السلام: «رأيته فعرفته فعبدته»، فبعد الرؤية تتحقق معرفة الله ومن ثم عبادته الحقة التي تنبعث انبعاثا من العبودية الصادقة. يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «إلهي أقمني بصدق العبودية بين يديك». ويقول عليه السلام: «عميت عين لا تراك عليها حسيبا وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا». فهذه العين

(١) سورة البقرة الآيات ٣٠ ـ ٣٤.

(٢) سورة الحجر الآيات ٢٨ ـ ٣١.

البصيرة تراه بل تراه أيضا حسيبا، ومن لم ينل من حبه نصيبا فهذه هي الخسارة العظمى. ويقول عليه السلام: «ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك»، وما يقوله الإمام عليه السلام ليس من ضرب المجاز بل هي الحقيقة بعينها، فالذي وجده لم يفقد شيئا والذي فقده لم يجد شيئا.

ويقول الإمام عليه السلام: «أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك». فماذا يقول أصحاب العلوم النقلية! يقولون عرفناه ووحدناه عن طريق العقل! فأين هذا من شروق الأنوار في قلوب الأولياء؟؟ أما عن الحب فحدث ولا حرج... فهو قد صهرهم بالعشق صهرا وأزال الأغيار عن قلوب أحبائه، حتى انمحى التكاثر عن وجودهم، فصاروا لا يرون غيره ولا يحبون سواه، بل لقد عاشوا بكل حواسهم وجوارحهم ووجودهم هيمنة حبه المطلقة. واستوحشوا من الخلق بل من العوالم كلها، وفي هذا يقول الإمام عليه السلام: «أنت المونس لهم حيث أوحشتهم العوالم وأنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم».

وكلما أوغل في نعيم حب الله استزاد من أشواق لقائه ووصاله، فهي الصبوة الملتهبة في هذا الكليم الجريح، ولا يوجد له دواء إلا ميقات كميقات الكليم موسى عليه السلام، حيث تندك الجبال حين تجليه ويخر العبد صعقا، فهذه هي جذبة من جذبات الرحمن يعشقها هذا العبد الواله. وهذا التجلي واندكاك الذات والصعقة التي تليه هي الجذبة التي يقول عنها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «جذبة من جذبات الرحمن تعادل عبادة الثقلين»، وهو الالتحام الكامل والاتصال واللقاء بالله سبحانه وتعالى. وقد ذكرنا في فصل سابق حالات السيد حسن وهو يغيب عن نفسه غيبة كاملة بحيث تصل النار إلى أصابعه وهو لا يشعر بها ولا يحس بحرارتها. وهذا الفناء الكامل والجذبات الربانية هي ديدنه من آن إلى آخر، فإذا افتقدها تذلل إلى ربه يلتمس منه أن يزيح عيانه. فما قيمة عيانه وشخصه في قبال الأنوار والإشراقات الإلهية التي تلفه وتحتويه، وتتلقاه في حب وحنان زائدين، ويشاهد هناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر!

وحينما يرتقي إلى هذا المقام يكون كما خاطبه الجليل في حديثه القدسي: «عبدي أطعني تكن مثلي فكما أقول للشيء كن فيكون تقول للشيء كن فيكون». وهناك وفي تلك الجذبات الرحمانية تهفو إليه الجبال والطيور كما حشرت الطير وسخرت الجبال مع داودعليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾[1]. وهنالك تتحقق وحدة الوجود حيث تهتز الجبال الراسيات من أوتارها، وتشدو الطيور وتغني من ألحانها، وتطرب الوحوش في غاباتها، وتترنح الأسماك في بحارها، وتعج السحب والغيوم في أجوائها، وتتراقص قطرات المطر على أديمها، وتهتز الأرض وتربو من قدسية مياهها، بل تثمل البسيطة كلها من خمار مدامتها، والكواكب والنجوم من عذوبتها، ويتناغم كل شيء في الوجود مع أنغامها، وتشدو كل ذرات البسيطة بنشيد الوحدة والتوحيد، ويسبح كل شيء بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم.

ويصف الشاعر هذا الالتحام وهذا الاتصال بقوله:

زدني لظى في حبكم وتحيرا ... فلقد وجدت نعيمها بلظاها
يا حيرتي من حبكم وعذابه ... كيف استزاد محبكم من داها
فلرب داء في كليم صبوة ... ولرب ميقات الكليم دواها
فإذا رأيت زيادة في حرقتي ... ترضيك فافعل ما تشا رباها
وإذا رأيت جبال جسمي مانعا ... عند التجلي فلتكن دكاها
ولأنت تعلم أننا رمنا الفنا ... لنذوب فيك بشد جذب قواها
فارحم مزاميري وجد في ذوبنا ... وأزح عياني في سبيل بقاها
ودع الجبال وطيرها تهفو لنا ... وتذوب في أوتارنا وغناها
وزبور داود وصوت جميله ... وغناء مزمار وموسيقاها
ودع الوجود بشدونا ثملا على ... قدح المدامة في خمار صفاها
ودع الوحوش طروبة في غابة ... ودع الطيور وحلو صوت شجاها
ودع السماك وبحرها في سكرة ... من شدونا من خمر دمع بكاها

(١) سورة ص الآيتان ١٨ ـ ١٩.

ودع البلابل في أعالي دوحها تشدي على ألحاننا إشداها
ودع الغيوم تعج في ودق السما وتراقصت قطراتها بسماها
ودع الفجاج بسيلنا ملآنة طفحت بهطل سمائنا ومياها
ودع الزهور على ربوع ربيعنا ثملت حدائقها بطيب شذاها
ودع النخيل ويانعات ثمارها تهفو لأكباد لنا وصداها
ودع الجبال وكل جسم جامد تهتز من أوتارنا بدجاها
ودع البسيطة والكواكب جمة سكرانة في خمرنا سكراها
ودع النجوم المشرقات بليلها تشدو أناشيد الهوى وجواها(١)

---

(١) كتاب «السموات السبع» للمؤلف صفحة ١١٩-١٢٠.

علمه قبل أسبوع بموته ومحل مقامه

روى لي ابن عمي مصطفى ـ وهو ابن السيد حسن المسقطي ـ بأنه كان في الثالثة عشرة من عمره وكان يرافق أباه في معية الشيخ رشيد ترابي وسيد صادق في رحلته الأخيرة إلى حيدراباد. وكان السيد حسن بحالة جيدة وزرنا معا مقبرة المؤمن في حيدراباد في ليلة الجمعة. فقال لنا سيد حسن تعالوا وزوروني في هذا المقام في ليلة الجمعة القادمة ـ وأشار بيده إلى مكان قبره الشريف ـ وفعلا توفي بعد أسبوع ودفن في نفس المكان في مقبرة المؤمن. . . وكان هذا من أقوال الغيب. وواضح أنه سعيد وراض بقضاء الله بل انه مشتاق إلى قضائه وقدره ولسان حاله يقول كما قال جده الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «إلهي خر لي في قضائك وبارك لي في قدرك». وكما قال الشاعر:ـ

قد صرت أرجو ما يخاف فأسعدي   به روح ميت للحياة استعدت[1]

ورؤية الغيب عنده إنما هو بإذن الله تعالى حباه الله بها ونعم الكرامة من لدن عالم الغيب والشهادة! ونضرب مثلا حتى لا يظن أحد استحالة هذه الأمور، وهي أن هذه القوة موجودة في كثير من الناس، مغمورين في حياتهم، ولكنهم يتمتعون بشفافية تعم وجودهم، وأبرز صفاتهم الصمت وحفظ الأسرار. فالله سبحانه وتعالى يعلم حيث يضع رسالته وحيث يضع كراماته وعلى الأخص علم الغيب. يقول الله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا

(١) التائية الكبرى المسماة بنظم السلوك لابن الفارض.

﴿يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾[1].

والتنبؤ بالأحداث هو جزء صغير جدا من علم الغيب وما أكثر ما نراه بين البسطاء من الناس! كيف يحدث ذلك فإننا لا نعلم من ذلك شيئا، وإنما الكثير من وقائع هذه الرؤية التي تتجاوز الزمن إنما تحدث في الرؤيا الصادقة. فلعل تفسير ذلك هو أن القلب إذا صفا أصبح كالمرآة الصافية تنعكس غيوب الغد والوقائع في الزمن على صفحتها الصافية، وتتحطم حواجز الوقت على هذه الشاشة الشفافة. فالزمان شيء نسبي جدا وهو موجود بالنسبة لنا لا لشيء إلا لأننا محدودون. أما في النوم فهناك عالم آخر لا يمت في كثير من الأحيان إلى هذا العالم بصلة. والرؤى الصادقة ليست هي بإرادتنا وإنما يحبو الله بها من يشاء من عباده. فالنوم صنو الموت كما قال الرسول الأعظم ﷺ، وهي الوفاة بعينها ولكن يعقبها البعث في خلال ساعات. يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]. فالبعث الأول هو البعث بعد النوم الذي يتكرر مرارا وتكرارا في حياتنا اليومية ونسميه حالة اليقظة. أما البعث الأكبر فعبر عنه الله تعالى بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم ...﴾

ويصدق قول الشاعر في شفافيتهم ورؤية الغيب عندهم بإذن الله حيث يقول:

فرأوا شفافية بكل وجودهم	بصروا غيوب غد على مرآها
ورأوا بشاشته حواجز وقتهم	قد حطمت ورأوا غدا بهداها[3]

(١) سورة الجن الآيات ٢٦-٢٨.

(٢) سورة الأنعام الآية ٦٠.

(٣) كتاب «السموات السبع» للمؤلف صفحة ٧٣.

تنبؤ السيد القاضي بانقلاب الإمام الخميني

يقول آية الله الحاج شيخ عباس قوجاني الوصي الرسمي للمرحوم آية الله العظمى السيد علي القاضي (ره) في الطريقة والأخلاق والسلوك إلى الله[1]: «كنا نحضر جلسات المرحوم القاضي في النجف الأشرف، والأفراد الذين يحضرون الجلسات كانوا غالبا معروفين. في يوم من الأيام رأيت فجأة شابا يدخل الجلسة. فقطع المرحوم القاضي بحثه وتوجه إلى السيد الشاب بكل احترام قائلا: «يا سيد روح الله! لا بد من الوقوف أمام سلطان الجور والدولة الظالمة، لا بد من المقاومة، لا بد من مبارزة الجهل».

في تلك الأيام لم يكن هناك أي حديث عن الثورة! (وفاة السيد القاضي كانت في عام ١٣٦٥ للهجرة والثورة حدثت حوالى عام ١٤٠٠ للهجرة)! يقول المرحوم آية الله قوجاني: لقد تعجبنا كثيرا من كلام الأستاذ في ذلك اليوم. ولكن بعد سنوات طويلة وبعد الثورة فهمنا لماذا تفوه المرحوم القاضي بهذه الكلمات، ولماذا توجه إلى السيد الشاب بكل احترام!!.

(١) كتاب «أسوة عارفان» صفحة ٩٢.

تنبؤ السيد القاضي بمرجعية السيد الخوئي

ولقد ذكرنا في فصل سابق عن هذا التنبؤ (من كتاب قدوة العارفين)، ولأهمية الموضوع نعيد بعضا منها[1]: «ثم توطدت العلاقة بعدها بين السيد القاضي والسيد الخوئي إلى حد أنه أراه في عالم الكشف حياته منذ صغره إلى حين وفاته، فقد كتب السيد نعمة الله الحسيني: سمعت السيد حسين القاضي ينقل عن السيد الخوئي قوله: عندما كنت في النجف مشغولا بتحصيل العلوم الدينية كنت ملتزما بالآداب والسنن والأوراد والأذكار، وكنت أحضر أحيانا المجالس الأخلاقية المباركة للمرحوم آية الله السيد علي القاضي قدس سره، وأنتفع من أنفاسه القدسية.

إلى أن قلت له يوما: علمني شيئا أعمل به، فأعطاني عملا وقال التزم به أربعين يوما، فواظبت على أدائه، وفي اليوم الأربعين حصلت لي حالة مكاشفة فرأيت جميع الحوادث وكيفية حياتي ومستقبلي، ورأيت نفسي على المنبر أعطي درسا، ورأيت نفسي جالسا في المنزل والناس تتردد علي، ورأيت إمامتي لصلاة الجماعة، ومراجعات الناس لي، وحالات مختلفة، رأيت كل ذلك كمرآة تسير أمامي حتى وصلت إلى مكان سمعت فيه صوتا من أعلى منارة حرم أمير المؤمنين عليه السلام يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، انتقل إلى جوار ربه الكريم آية الله السيد الخوئي، ثم ارتفعت تلك الحالة عني ورجعت إلى حالتي العادية».

والفقرة التالية لم أجدها في كتاب «قدوة العارفين» ولكني وجدتها في

(١) من كتاب «أسوة عارفان» صفحة ٦٠-٦١.

الكتاب الفارسي «أسوة عارفان»[1]: يقول السيد نعمت الله حسيني نقلا عن آية الله أحمدي ميانجي: في أوائل مرجعية آية الله الخوئي، جاء عدد من أهالي خوي إلى النجف الأشرف، وسلموا الخمس إلى آية الله الحكيم. فأبلغ أحد الروحانيين هذا الأمر إلى آية الله الخوئي. فابتسم وقال: لا بأس من ذلك! لقد كشف لي السيد علي القاضي مستقبلي ومستقبل مرجعيتي، وهذه الأمور لا تؤثر على مرجعيتي بأي حال من الأحوال!!

(١) أسوة عارفان صفحة ٦١.

تنبؤ السيد علي القاضي بمرجعية السيد أبو الحسن الاصفهاني

ولقد ذكر في كتاب «أسوة عارفان»[1]: كان المرحوم السيد أبو الحسن الاصفهاني يشارك في مجالس المأتم الأسبوعية في منزل السيد القاضي، ولم يكن آنذاك معروفا ولا وصل إلى سدة المرجعية بعد. فلقد كشف آنذاك للسيد القاضي في الرؤيا اسم السيد أبو الحسن الاصفهاني مكتوبا بعد اسم المرحوم آية الله السيد محمد كاظم يزدي. فأخبره بذلك، وبعد وفاة مراجع العصر وصل إلى المرجعية، وكانت مرجعيته مثل السيد محمد كاظم يزدي عامة وشاملة.

(١) كتاب «أسوة عارفان» صفحة ١٥٨.

علم السيد حسن بالغيب بمن هو أهل الجنة ومن هو أهل النار

روى لي الحاج موسى شعبان أن سيد حسن كان يوما في المجلس بين جلسانه فأشار إلى الباب قائلا بأنه سيدخل المجلس بعد قليل رجل من أهل الجنة وفعلا دخل المجلس بعد هنيهة الحاج عبد العلي بن سليمان الجعفراني. وأيضا روى لي الحاج موسى شعبان بأن بعض تلامذة السيد حسن قد أخبروه بأن هناك رجلا متقدما في السن وهو لا يصلي ولا يصوم، وقالوا سنأتيك به حتى تعظه فلعله يرتدع عن غفلته. فأتوا به وأدخلوه في مجلسه، ثم نظر سيد حسن في وجهه ولم ينطق ببنت شفة. وعندما خرج الرجل قال سيد حسن لجلسائه أنه لا فائدة منه وأنه لن يهتدي، فلقد نظرت في وجهه وعلمت أنه لن يجد إلى الهداية سبيلا... وفعلا عاش ذلك الرجل إلى آخر عمره وهو لا يصلي ولا يصوم.

علمه بالغيب بمعصية الحاضرين في مجلسه

روى لي الحاج موسى شعبان بأن أحد التلاميذ دخل مجلس وعظ السيد حسن وهو جنب وجلس هناك وسيد حسن مشغول في وعظه. وفجأة غير سيد حسن موضوعه وطرق بابا آخر بحيث لا يشعر به الآخرون وهو باب الجنابة. وقال إذا دخل أحدكم مجالس العلماء فليدخلها مطهرا من الجنابة. . . وعلم التلميذ بأنه هو المعني وأن الموضوع قد انكشف على السيد حسن بإذن الله سبحانه وتعالى.

ووقعت حادثة مشابهة لأستاذه العارف الرباني الكبير السيد علي القاضي. فلقد نقل السيد عباس الكاشاني أيضا الحادثة التالية التي تدلل على عطف السيد القاضي على عموم الناس والتوسل إلى الله عز وجل في قضاء حوائجهم يقول: كنت يوما جالسا عند السيد القاضي فجاءه رجل مسرعا وكان يبدو عليه الحزن والاضطراب وقال للسيد: إن زوجتي في حال الاحتضار، وإذا ماتت فلا أحد لي سواها، فأرجو منك الدعاء لترجع إليها عافيتها وتنجو من الموت.

فقال له السيد القاضي: لماذا تأتي إلى هنا وأنت جنب، اذهب واغتسل ثم عد إلي. فنهض الرجل البدوي مسرعا وقد لفه العجب وأخذته الدهشة، وذهب إلى منزله واغتسل ثم عاد مرة أخرى، وجلس في مقابل السيد بأدب وخضوع. فوضع السيد سبابتيه على صدغ الرجل وشرع في القراءة والدعاء حتى أخذت دموعه تسيل على خديه. وبعد إتمام الدعاء، أمره السيد بالنهوض، فذهب الرجل إلى منزله، وبعد عدة أيام رأيت هذا

الرجل في صحن مرقد أمير المؤمنين عليه السلام وسألته عن نتيجة الدعاء، فقال: عندما رجعت إلى منزلي رأيت زوجتي سالمة وفي صحة جيدة وهي تزاول أعمالها المنزلية كالمعتاد[1].

وروى لي أيضا الحاج موسى شعبان أن أحدا كان قد رجع من جبرو من إحدى الحفلات التي كان فيها الطبل والغناء ثم دخل المجلس الذي كان يسمى (الكوميتي) وكان السيد حسن يحاضر في موضوع معين، وبعدما دخل الرجل، غير السيد حسن موضوعه، وبدأ يتكلم عما نهاه الله من الطبل والغناء، فعلم الرجل عند ذلك أنه هو المعني وأن الله سبحانه وتعالى فد كشف على السيد حسن أمره وحضوره في حفلة الطبل والغناء.

(١) قدوة العارفين صفحة ٢٨-٢٩ تأليف عبد الرحمن حاتم.

سلطان العرفاء على الطبيعة

إن عمل المعجزات والكرامات هو التأثير على الطبيعة يعني تغيير أو اختراق المسار الطبيعي المنطقي المعقول لإحدى قوانين الطبيعة ونواميسها، أو عمل خارق العادة بفعل قوة استثنائية خافية تحدث هذا التأثير، مثل إخماد النيران لإبراهيم عليه السلام ونزول العذاب السماوي على قوم لوط عليه السلام وانفلاق البحر لموسى عليه السلام وإحياء الموتى لعيسى عليه السلام وانشقاق القمر للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ورجوع الشمس من مغربها ليوشع بن نون والإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ومعجزة الذي عنده علم من الكتاب الذي قال لسليمان بن داود عليه السلام ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾[1]، فأتى سليمان عليه السلام بعرش بلقيس من اليمن في طرفة عين، ومثل الكرامات الأخرى التي تحدث على يد العرفاء والأولياء.

إننا نحسب المسار الطبيعي للطبيعة منطقيا ومعقولا لتأكد الحدوث المكرر لطائفة من الظواهر الطبيعية ضمن إحدى قوانين الفيزياء أو علم الفلك أو علم الحياة أو أي من العلوم الأخرى في إطار العلم الحديث. ومن المستحيل اختراق إحدى القوانين التي توصل الإنسان إليها.

ومن الطبيعي أنه إذا حصلت معجزة أو كرامة ما على يد أحد الأولياء والقديسين، وبرز منهم عمل خارق للعادة، صعب علينا تصديقه، وحسبنا أنه اختراق للقوانين العلمية، ومن المستحيل حدوث ذلك حسب معاييرنا وموازيننا العقلية والذهنية.

---

(١) سورة النمل الآية ٤٠.

ولكن السؤال هنا هو هل من الممكن بروز عمل خارق العادة في إطار القوانين العلمية ومن دون اختراق للمسار الطبيعي للطبيعة؟ أي هل من الممكن إيجاد تأثير على الطبيعة بواسطة قوة من القوى الخافية في الإنسان كالهالة أو المجال المغناطيسي الذي يحيط بالإنسان؟ أو هل من الممكن إيجاد تأثير على الطبيعة بواسطة التفاعلات بين المجال المغناطيسي للأشياء وهالة الإنسان؟ وهل أن العلم قد اكتشف هالة الإنسان أو مجاله المغناطيسي؟ وهل أن العلم قد اكتشف المجالات المغناطيسية للأشياء؟ وهل العلم قد توصل إلى كل القوانين التي تحكم المجالات المغناطيسية والتفاعلات التي تحدث فيما بينها؟

ولكن هذه المعجزات والكرامات تحدث حتى في أيامنا هذه. وإن كنت أكذب الآخرين فإني لا أستطيع أن أكذب نفسي للأشياء التي حصلت لي شخصيا وهي كثيرة. وأستطيع أن أجزم بأن أناسا آخرين هنا وهناك قد حصلت لهم شخصيا كرامات ما، أو رأوا بعيونهم كرامات من أشخاص آخرين خلال فترة عمرهم. وبعيدا عن المتعنتين المجادلين الذين يحبون القيل والقال ويجحدون كل شيء ـ ربما لأغراض في نفوسهم ـ فالواقع أننا نسمع ونرى يوميا كرامات تحصل هنا وهناك مما لا يدع مجالا للشك والريبة.

ومن الطبيعي أننا لا نتوقع مثل هذه الأعمال الخارقة للعادة تصدر عن رجال عاديين، لم يتعرضوا في حياتهم للرياضات والتأملات التي تربي القوى الروحية في الإنسان، ولم يستقطبوا قواهم المغناطيسية. فالناس العاديون لا تتعدى قوتهم العضلات وهيكلهم الجسمي. فمثلا أشعة الشمس لا تحدث الاحتراق في الورق، ولكننا إذا مررناها خلال العدسة المجدبة وركزناها على نقطة ما على الورق، فإنه يحدث ثقب في الورق بفعل الاحتراق.

كذلك الحال بالنسبة لقوانا المغناطيسية والروحية، إذا تركزت أحدثت أثرا، وإذا بقيت مشتتة كانت بلا أثر. فعملية التركيز هذه تحصل عبر

رياضات وتأملات وتركيز على القلب وصلاة دائمة وإعراض عن كل ما يشتت الشمل من الأفكار والخواطر، لدى العرفاء والأولياء، وكل ذلك تحت توجيه مركز من المعرفة والعرفان ورعاية وعناية من الأستاذ. وليس بغريب أن تحدث هذه الطائفة من البشر بعض التأثيرات هنا وهناك. والمعروف أن الإنسان محاط بهالة يسمونها «المضاعف الأثيري»، وهو مجال مغناطيسي يحيط بالإنسان، وتتقوى هذه الهالة وتبتهج وتنجلي ألوانها كلما عمل الإنسان في مجال العرفان والسير والسلوك.

كما أنه ثبت علميا وجود المجال المغناطيسي حول الأرض والشمس وكواكبها، بل إن كوكب «المشتري» قد تم تصوير هالته أو مجاله المغناطيسي لأول مرة في تاريخ العلم الحديث، في غرة الألفية الثالثة أو بداية عام ٢٠٠١. ونذكر هنا مقتطفات من كتابنا (ما هو سر الحياة)[١] في هذا الموضوع تحت فصل «تصوير الهالة المغناطيسية للمشتري»:ـ

«. . . بأن الإنسان قد تمكن بجهاز خاص يسمى. . . (ميمي) من تصوير الكرة المغناطيسية لكوكب المشتري. ولقد حصلت فعلا على هذه الصورة فكانت نقطة عطف في تفكيري ...

وطبعا إن هذا الإنجاز العملاق لم يأت من فراغ، وأن مشروع (كاسيني) الضخم كلف (ناسا) حوالى ثلاث بلايين ونصف دولار أمريكي. ولقد قال أحد العلماء الكبار المسؤول عن هذا الجهاز. . . لقد استطعنا أن ننظر إلى غير المرئي خلال جهاز (ميمي).

ولقد صورت هذه الهالة المغناطيسية من مسافة حوالى عشرة ملايين كيلومتر من كوكب المشتري، واستطاعت (ميمي) أن تأخذ صورا من الكرة العظيمة المليئة بالطاقة وعناصر الهيدروجين والأوكسجين والكبريت وأكسيد الكبريت. وبتجهيز الفيلم المتحرك من هذه الصور سيكون في إمكاننا رؤية

---

(١) صفحات ١١ إلى ١٤ من كتاب (ما هو سر الحياة) للمؤلف.

تحركات الانقباض والتمدد في الكرة المغناطيسية التي تحدثها الضغوط الجبارة للرياح الشمسية.

وإذا أضفنا إلى هذه الصور القياسات العديدة التي سجلتها (ميمي) فسيكون بإمكاننا رؤية التركيبات الكيماوية لعناصر الكرة بالإضافة إلى رؤية أشكال وديناميكيات الكرة المغناطيسية ...

وأيضا اكتشفت (ميمي) سحابة كثيفة من عناصر الأوكسجين والصوديوم والكبريت والبوتاسيوم وأكسيد الكبريت وهي تلتف حول كوكب المشتري إلى مسافة اثنين وعشرين مليون كيلومترا، ويعتقد أنها غازات براكين قمر المشتري التي استطاعت الهروب من الكرة المغناطيسية للمشتري ومن ثم حملت بواسطة الرياح الشمسية إلى هذه المسافات الشاسعة. وأيضا اكتشفت (ميمي) الإلكترونات الدائرة في فلك الميدان المغناطيسي داخل الكرة المغناطيسية للمشتري الذي يصل قطره إلى ١٤٣ ألف كيلومتر. والآن تجري أجهزة سفينة فضاء (كاسيني) قياساتها لحدود الذيل المغناطيسي لكوكب المشتري والذي يصل طوله إلى ثلاثين مليون كيلومتر من الكوكب.

ويصفون هذه الكرة المغناطيسية بأنها «فقاعة من العناصر المليئة بالطاقة» احتجزت داخل البيئة المغناطيسية للكوكب. والعناصر السريعة الحركة التي تدخل هذه الفقاعة تلتقط الإلكترونات وتتحد معها فتصبح عناصر محايدة ومن ثم تنفلت من الميدان المغناطيسي للمشتري هاربة بمعدلات سرعة هائلة تصل إلى الآلاف من الكيلومترات في كل ثانية. وكاميرا (ميمي) تبني الصورة المغناطيسية من هذه العناصر المحايدة التي تصل إلى السفينة الفضائية، كما تبني الكاميرا العادية الصورة العادية من وحدات (فوتونات) الضوء التي تصل إليها».

والجدير بالذكر أن العلم بصدد تصوير الهالة المغناطيسية لكوكب الأرض في القريب العاجل. ونذكر هنا مقتطفات من كتابنا (ما هو سر

الحياة)[1] في هذا الموضوع تحت فصل «ماذا تعرف عن الكرة المغناطيسية للأرض»:ـ

«وإلى الآن (أواخر شهر يناير ٢٠٠١) لم تصور الكرة المغناطيسية للأرض كما صورت مثيلتها للمشتري. إلا أن (ناسا) أرسلت في ٢٥ مارس ٢٠٠٠ قمرا اصطناعيا يسمى (ايماج) وفيه جهاز يسمى (هينا) على حذو تقنية (ميمي)...

وعن قريب سنرى بأعيننا الكرة المغناطيسية للأرض وشكلها وحركاتها وديناميكياتها وعناصرها ومركباتها الكيماوية. وبذلك يستطيع العلم تطوير التنبؤات الجوية والإنذارات المسبقة للأعاصير الكهربائية المغناطيسية التي عطلت في الماضي الاتصالات الإلكترونية وحتى شبكات توزيع الطاقة الكهربائية على الأرض.

ولقد أخذت صور للآلية الخفية في الميدان المغناطيسي للأرض ومنها الذيل الخفي للغاز المكهرب. هذا الذيل يتجه من الأرض إلى الشمس وهو عبارة عن (بلازما) أو غازات شفافة مكهربة. والتقنية التصويرية الجديدة تقدم لنا مناظر لم يسبق لها مثيل في التاريخ العلمي من غازات شفافة مكهربة محبوسة في الميدان المغناطيسي للأرض، أو بعبارة أخرى صورا لأول مرة عن الأعاصير المغناطيسية للكرة الأرضية.

الكرة المغناطيسية للأرض تتحكم في سلوكيات العناصر المكهربة في الفضاء الخارجي القريب من الأرض، وتحفظ كوكبنا من الرياح الشمسية وهي عبارة عن (بلازما) أو غازات مكهربة تأتي إلينا من سطح الشمس. الانفجارات التي تحدث على الشمس تؤثر على كرتنا المغناطيسية وتملؤها بالطاقة، محدثة بذلك الأعاصير المغناطيسية على الأرض والتي تؤثر أحيانا على الأقمار الاصطناعية والاتصالات ونظم الطاقة.

إنه من الصعوبة بمكان أن تراقب هذا المنظر العملاق من النشاطات

---

(١) صفحات ١٥ إلى ٢٠ من كتاب (ما هو سر الحياة) للمؤلف.

في هذه المنطقة الواسعة، لأن الكرة المغناطيسية للأرض تمتد إلى ما وراء القمر في الجانب الليلي من الأرض. كان من المحال أن ترى الصورة الكاملة قبل ظهور القمر الاصطناعي (ايماج)، وكانت الوسائل آنذاك ناقصة بالنسبة لعلماء التنبؤات الجوية، بل بالأحرى كانت تعطيهم صورة مضللة عن الكرة المغناطيسية للأرض وعن أعاصيرها المغناطيسية.

فبإمكان العلم الآن أن يرى الصورة كاملة أمامه وأن يرى التجمعات الحاشدة من العناصر المكهربة حول الأرض بأطوال أمواج لا تحصى وأن يرى الطاقات في فترة زمان لا تتعدى بضع دقائق، وأن هذا الأمر كاف لتتبع الديناميكيات وحركات التقلص والتمدد في الكرة المغناطيسية للأرض.

إن الكرة المغناطيسية للأرض تحبس في جوفها الغازات المكهربة. . . وإن للأرض تركيبا في طرفه يشبه الذيل مليئا بسحب (بلازما) تكونت من بعض الغازات التي تسيل في اتجاه الشمس. ويعتقد أن هذا الذيل هو عبارة عن الغازات المكهربة الراجعة إلى الشمس والتي تكونت بسبب الرياح الشمسية التي هوت على الكرة المغناطيسية للأرض وشوهت شكلها، وتسبب تبعا لذلك رد فعل (بلازمي) برجوع بعض الغازات المكهربة إلى الشمس نفسها ...

فالرياح الشمسية ـ التي تسقط من ارتفاع ـ تشوه الكرة المغناطيسية للأرض على نفس المنوال، بحيث أنها تتقلص على الجانب النهاري من الأرض، على شكل (رأس) قطرة ماء مطر. أما على الجانب الليلي من الأرض فيتكون الذيل الطويل إلى ما وراء القمر، على شكل (ذيل) قطرة ماء مطر.

إن الغازات المكهربة (بلازما) القريبة من الحدود الخارجية للكرة المغناطيسية للأرض تسحب سحبا مع الرياح الشمسية، ولكنها تدور حول الأرض وترجع بقوة في اتجاه الشمس. وهذه الحركة حول الأرض تشكل ظاهرة الذيل على طرف الكرة المغناطيسية للأرض.

إن الأعاصير المغناطيسية تحدث عندما تضغط الرياح الشمسية على

الكرة المغناطيسية للأرض، مسببة بذلك تمددا على الجانب الليلي من الأرض، وكرد فعل تندفع الغازات المكهربة (بلازما) بقوة فائقة من (الذيل) في اتجاه الأرض. تماما كما يحدث في قطرة ماء المطر عندما يرجع الماء بقوة من (ذيل) القطرة إلى (رأس) القطرة في داخل القطرة نفسها. ونتيجة لهذا الاندفاع القوي ترتفع درجات الحرارة في الغازات المكهربة (بلازما) إلى مئات الملايين درجة مئوية، وتدور حول الأرض حاملة ملايين (أمبير) من الكهرباء.

وفي السنتين القادمتين وبفضل الأقمار الاصطناعية ستكون هناك معلومات لا تحصى تؤهل العلماء بأن يكتشفوا الأبعاد الثلاثة للفضاء الخارجي القريب من الأرض، وأن يكتسبوا آفاقا جديدة من الفهم والمعرفة للتفاعلات الموجودة بين الأرض والشمس».

كل التفاصيل التي ذكرناها عن أحدث اكتشافات العلم في موضوع الكرات المغناطيسية للمشتري والأرض، إنما توضح لنا بأن علم (الهالة) أو الكرات المغناطيسية حول الأجسام لا زال جنينا، لم يتكون بعد في الرحم، وأن العلم استطاع أن يصور (الهالة) لأول مرة في تاريخ العلم الحديث، في بداية عام ٢٠٠١، بواسطة كاميرات متطورة ذات تقنية عالية وقيمة غالية تصل إلى المليارات من الدولارات، لم يكن في مستطاع الإنسان أن يقوم بأعبائها لولا الميزانية الضخمة التي تخصصها دولة عملاقة، مثل الولايات المتحدة الأمريكية، لمشروع عملاق مثل (ناسا)، ولولا تعاون وتكاتف الدول المتقدمة وأدمغتها العملاقة لإنجاح هذا المشروع.

والواضح أن العلم نسبي وأن ما توصل إليه حتى الآن لا يساوي أكثر من حبة رمل على ساحل في مقابل المحيطات العظيمة التي تقع على هذا الساحل. وأن ما يخبئه لنا المستقبل، في مسيرة هذه التحقيقات العلمية التي ذكرناها، لهو العجب العجاب. وأن الخطوة الصغيرة التي بدأتها صورة الهالة التي تحيط بالمشتري تعقبها خطوات ضخمة عملاقة في موضوع التفاعلات والانفعالات التي تحدث بين الشمس وكواكبها وبين كوكب

وآخر وبين الإنسان وسائر الأجسام والمخلوقات، بواسطة قوة الهالات التي تحيط بها والتي تمتد إلى مسافات شاسعة.

فليس من المستحيل علميا أن تحدث هذه الآثار ـ التي نسميها المعجزات والكرامات ـ في الطبيعة التي تتكون من النجوم والكواكب والإنسان والحيوانات والنبات والأجسام (الأرضية والسماوية) والنيران والبحار والغازات و (بلازما) والسحب والأمطار والموت والحياة وغيرها. أما تفسيرها فليس ببعيد أن يقوم العلم بذلك بعد أن تتوسع علوم (الهالة) والكرات المغناطيسية في المستقبل القريب ـ العلوم التي بدأت خطوتها الصغيرة صورة (الهالة) لكوكب المشتري.

والإنسان نفسه جدير أن يكون محل دراسة وتمحيص، ولا نعلم لماذا لم يوفه العلم الحديث حقه حتى الآن. أما الدين فقد أعطى الإنسان حقه من الدراسة الوافية العميقة، فأرشده إضافة إلى اكتساب العلوم أن يعنى بتربية نفسه حتى يتخلص من الضلالة، ويستقيم فكره وروحه وسلوكه وأخلاقه، وتستقيم نواياه إلى أهداف سامية، ويخرج من خواطره التي تشتته إلى وحدة وتركيز تنتهي به إلى وحدة الوجود، وأن يعنى بتنمية قواه الروحية ويكون له أثر في هذا الكون ـ في عوالم الخلق والأمر.

ونأمل في هذه المسيرة المقدسة التي بدأها العلم أن يلتقي بالدين بعد دراسة مستفيضة في مجالات الإنسان المغناطيسي

والوصول إلى تفسيرات علمية لكثير من الأمور التي يتناولها الدين، ومنها المعجزات والكرامات، والقدرة التي تنمو في المؤمن على إثر التربية الروحية الصحيحة التي يتعرض لها، ومن ثم مدى تأثيره على الطبيعة والكون بفضل القوى المغناطيسية التي نمت فيه وتنبعث منه.

ولقد قال أستاذي الأعظم صادق العنقاء[١]: «يجب أن نطمئن إلى وجود برازخ في الإنسان بين الجسم المادي والروح المجرد، ومن بين تلك

(١) كتاب «الزوايا الخفية للحياة» صفحة ٦٢ لصادق العنقاء.

البرازخ المجالات المغناطيسية والكهربائية، والمعرفة التدريجية لهذه المجالات عن طريق التجربة العلمية ستساعد حتما على وضع الضوابط لمعرفة البرازخ الأخرى التي هي ألطف».

وربما ادعى المرتاضون في أنحاء العالم كالهند مثلا القوى الروحية الغريبة وأتوا بها أعمالا خارقة للعادة، إلا أن الأنبياء والأئمة والذين خلفهم من الأولياء والعرفاء لا يدعون كرامات ولا يقصدون حدوثها، لأنهم في مسيرة السير والسلوك لا يهدفون إلى إبراز الكرامات، وإنما يهدفون إلى شيء أعظم من ذلك بكثير، وهو الوصول إلى الله وحده، والفناء فيه ثم البقاء به ومعه، والاتصال في الله حيث لا فرق بينه وبين حبيبه ـ كما جاء في حديث الشراب لمولانا عليه السلام ـ وهي مسألة أخروية محضة لا تمت إلى الدنيا بصلة. ولكن إذا تحققت كرامة ما على أيديهم في حالات ومناسبات فردية، فإنها تحدث بإذن الله لا بقصد من عندهم، لحكمة لا يعلمها إلا الله.

ومن المحقق أن المرتاضين الهنود وغيرهم ينتمون إلى برزخ المجالات الكهربائية والمغناطيسية، في حين أن الأنبياء والأئمة والعرفاء والأولياء ينتمون إلى عالم الروح المجرد، أو هوية الإنسان المجردة، أو حقيقة الحياة، التي هي علة الموجودات النهائية والغائية. ويصف أستاذي الأعظم[١] الروح المجرد بأنه الجوهر الوحيد غير المادي الذي لا يمكن أن يكون مركبا، ومن ثم غير تابع لقانون العلة والمعلول ومن ثم هو الباقي الذي لا أول ولا آخر له.

فمن الطبيعي أنهم إذا كانوا ينتمون إلى الروح المجرد، فالبرازخ الأخرى، ومنها المجال الكهرومغناطيسي، هي أيضا تحت سيطرتهم، وإن لم تكن هي المقصودة من رحلتهم المقدسة. وأيضا من المفهوم أن البرازخ الأخرى بين الجسم الثقيل والروح المجرد، وإن كانت لطيفة، إلا أنها

(١) الزوايا الخفية للحياة صفحة ٤٠.

مركبة وتابعة لقانون العلة والمعلول ومن ثم هي الفانية. وتستطيع معرفة البرزخ القريب من الجسم، بالوسائل العلمية التجريبية، أن تساعد على وضع ضوابط لمعرفة البرازخ الأخرى. وهذا هو أملنا من مستقبل العلم الحديث.

وأذكر مقتطفات من مقدمة كتابي (وإذا مرضت فهو يشفين) فيما يخص الهالة وألوانها، وتأثيرها في شؤوننا اليومية، وتأثرها برؤانا وأمراضنا، وتفاعلاتها مع خلايانا:ـ

«. . . عن معجزة الأجسام الأثيرية والتي كنت ولا أزال متيقنا منها في الخمس والعشرين سنة الماضية، وذلك لأنني عايشت بنفسي هذه المعجزة وآثارها القوية ـ بل وما يسمى بالشهود في العرفان ـ خلال التربية العرفانية العملية لدى أستاذي الأعظم الشيخ صادق العنقاء قدس سره. إلا أن «الشهود» تجربة فردية ولا تكون حجة على باقي الأفراد من المجتمع البشري الذين لم يشاهدوا مثل هذه المعجزات.

فما ذكرته في كتاب (ما هو سر الحياة) إنما هو التقدم العلمي الرائع في مجال علم الفلك والنجوم، والذي تمكن العلم الحديث من خلاله ومن صرف الآلاف من الملايين من الدولارات من الميزانية التي تخصصها الولايات المتحدة الأمريكية، من اختراع كاميرات حساسة ومتقدمة جدا وتصوير «الهالة» أو الكرة المغناطيسية الهائلة حول كوكب المشتري. وأيضا يقع في برنامج «مؤسسة ناسا الفضائية» مشروع تصوير الكرة المغناطيسية حول كوكب الأرض في خلال السنتين ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢ ميلادية، إذ أن كاميرا أخرى نصبت على متن سفينة فضائية التي أرسلت إلى الفضاء لهذا الغرض.

وليس ببعيد ذلك اليوم الذي يصور فيه العلم الحديث (هالة الإنسان) أو ما يسمى بالمضاعف الأثيري ."DOUBLE ETHERIC " وهذه (الهالة) تحيط بأي إنسان، إلا أن شدتها ووضوحها تختلف من إنسان إلى آخر حسب صفاء باطنه وظهور قوته الروحية. ويوجد بعض الناس الذين يتمتعون بالشفافية الروحية وبإمكانهم أن يشاهدوا هذه الهالة بالعين المجردة. ولقد

رسم مثل هؤلاء المريدين هذه الهالة حول وجوه الأنبياء والأولياء والقديسين، ومثل هذه الرسوم والصور متداولة بين الناس في هذه الأيام.

إلا أن لي مطلبا مهما ـ أو سميه (نظرية) ـ أريد أن أثبتها والتي سيتاح لها أن تحدث انقلابا في علم الطب في القرن الواحد والعشرين. . . وهذه النظرية تنبعث من عقيدتي الجازمة بأن الجسم المادي للإنسان ليس إلا تصويرا أو (نسخة) من الهالة المغناطيسية التي تحيط بالإنسان، وأن هذه (الهالة) غير المرئية هي (الأصل) والجسم المادي للإنسان ليس إلا (نسخة). وأن هذه الهالة هي المهيمنة على جسم الإنسان والمؤثرة على كل شيء في هذا الجسم، وأن كل تزكية روحية يتعرض لها الإنسان تنعكس على هذه الهالة وتزيد من وهجها وبريقها، وأن كل تقويم في الأخلاق وإصلاح في الأفكار وتغيير رؤية الإنسان إلى نفسه وإلى العالم من حوله يصقل هذه الهالة كما يصقل الإنسان الصدأ عن الفضة والذهب.

والإنسان الذي يكدح إلى ربه كدحا ولا يألو جهدا في تقويم ما اعوج من أفكاره وأخلاقه ورؤيته العامة في سبيل ربه لا يحرم من لقاء ربه ـ كما وعده الحق تعالى ـ وتنتهي مجهوداته مشكورة إلى الأثر الإيجابي على هذه (الهالة) التي تحيط به، ومن ثم إلى تكوين شخصية قوية مطمئنة راضية مرضية ترفعه من مصاف الدهماء والضعفاء إلى سدة الأولياء والصالحين.

وهذه بالضبط هي تعاليم العرفان الإسلامي العملي التي تضطلع بالمسؤولية ولا تتلكأ في تأدية الأمانة وتؤدي وظيفتها الرائعة بإزالة الأكوام من الصدأ عن هذه الهالة المقدسة، وأنى لمعين الذهب أن ينضب! فكأن هذا الإنسان الجديد قد خرج من مدار المادة واستقر في أنوار (الهالة)، يغرف من بحر الغيب، ويتنسم في هذه الحدائق الغناء عبير المسك والرياحين، ويسمع تحت شؤبوب الحب والغرام تغريد الطيور الصادحة وصفير البلابل وخرير الجداول، وتطالعه صور ندية مفعمة بكل معاني الخير.

وإذا كانت الهالة هي (الأصل) والجسم المادي هو (النسخة) فإن جميع الأمراض التي يتعرض لها الجسم لا بد لنا أن نتلمس جذورها في هذه الهالة المغناطيسية. وإذا أتيحت للأطباء في المستقبل صور من هالة المريض، فإنه يجد العجب العجاب إذ يرى بعينيه جذور المرض على شاشة هذه الهالة ـ الشاشة ذات الأبعاد الثلاثة والألوان الخلابة ـ ويرى تغير الألوان بعد شفاء المرض. وعلى أثر التجارب والتحقيقات العلمية يتوصل الإنسان إلى لون معين لمرض ما ـ يحمل غيوما وظلالا ـ ثم في أثناء الشفاء يلاحظ تغير الألوان والظلال، وبعد الشفاء الكامل ينتهي إلى ألوان أخرى تتخللها ظلال معينة.

ثم كيف يكون العلاج؟ وهل تكون هناك حاجة للمقراض والسكين والمبضع والأدوات الجراحية الأخرى لإجراء العمليات على جسم المريض؟ برأيي أن هذه الآلات الحادة سوف تختفي نهائيا من عالم الطب وأن عمليات من نوع جديد ـ وأنا أسميها عمليات الأمواج الكهرومغناطيسية ـ سوف تحل محلها، ولا يحتاج فيها الطبيب إلى آلات حادة ولا إلى تقطيع الأوصال وقص البطون والصدور وتجريح الأنف والعيون والجوارح الأخرى في البدن الإنساني.

وكيف يرى الطبيب جذور الأمراض في الهالة المغناطيسية؟ نعم ههنا يحدث الانقلاب في علم الطب، فلا بد من تحقيقات علمية طبية من نوع جديد يربط لونا معينا في (الهالة) بمرض من الأمراض وطريقة معالجة هذا اللون لعلاج ذلك المرض. وهنا يبدأ علم جديد يسمى (طب الهالة)، ثم تختفي بالتدريج العمليات الجراحية على جسم الإنسان من عالم الطب، اللهم إلا في حالات نادرة مثل دخول الأشياء الصلبة الغريبة في الجسم كالرصاص وغيره، مما يتطلب إزالة تلك الأجسام من البدن.

نعم لقد ثبت عند العرفاء تغير الألوان في الهالة البشرية من حالات المرض إلى حالات الصحة والشفاء، كما ثبت عندهم تغير الألوان من مقام روحي إلى مقام روحي آخر. ولكن ليس ههنا مجال البحث في هذه الأمور

وأترك للعلم مجال البحث والتحقيق في تفاصيل هذه المهنة الجديدة. فكأن الليل قد تمطى عن الصبح!!! فإنني لأرى في هذا المجال الجديد العهد الذي كنا نترقبه من زمن بعيد. . . العهد المزدهر الذي يتلاقى فيه العلم الحديث مع علم الدين. . . وإني أرى ذلك اليوم قريبا جدا، ربما لا يتجاوز القرن الواحد والعشرين.

وختاما ننوه بهذه الحقيقة بأن العلم الحديث في هذا العصر يقفز قفزات لم يسبق لها مثيل في التاريخ. فما ذكرناه آنفا من تنبؤاتنا بظهور (طب الهالة) وشيكا ليس نسجا من الخيال ولا ابتعادا عن محجة الصواب. فكما ذكرنا في كتابنا (ما هو سر الحياة)، فإن العلم قد بدأ يتمطى عن رقدة طويلة، وإن التحقيقات العلمية قد تخطت مجال المادة إلى مجال الأجسام غير المرئية كالسوائل المغناطيسية والخلوية وما فيها من العجب العجاب.

فقد بدأ العلماء ينحون هذا المنحى وحازوا قصب السبق في مجال العلم وذلك بعد تصوير الهالة المغناطيسية لكوكب المشتري ـ لأول مرة في التاريخ ـ في يناير عام ٢٠٠١. فلقد طوى العلماء كشحا عن إلحادية القرن التاسع عشر وما بقي من آثارها السيئة في القرن العشرين، وغدوا يحثون في وجهها التراب والحصباء عند اتخاذهم هذا المنحى من العلم، الذي يتكلم عن معجزات الأجسام الأثيرية والمجهرية. ولا زال الإلحاد يلفظ أنفاسه الأخيرة وينساب هنا وهناك انسياب الأفاعي الرقطاء في الرمال البيضاء.

فالخلايا الحية التي هي أساس حياتنا، والتي تعتبر أهم عامل مؤثر في ظهور الأمراض، لا تكتمل صورتها إلا بالاتحاد مع الهالة المغناطيسية والقوى المغناطيسية عموما والأشعة الشمسية والكونية وسائر الطاقات الوجودية، التي تتفاعل جميعا لإبراز الجلال والجمال في معجزات الخلق التي تحيط بنا. والمادة المرئية التي هي نزر قليل من الكثير الكثير، وهي جزء صغير من الصورة الكاملة، لا تكفي لإظهار هذه الصورة الرائعة من الوجود، وتكل وتقصر ألسنتها عن أوصاف النبأ العظيم، كما يكل ويقصر

الأعمى عن وصف الحدائق الغناء ووصف الشمس إذا طفلت ووصف الشفق وألوانه الخلابة التي تعبث بأهداب الوالهين، وكما يكل ويقصر الأصم عن سماع الموسيقى والصوت الجميل الذي يجلجل فيقرع أذن الجوزاء.

وتنبؤاتنا بحدوث الانقلاب الوشيك في علم الطب مبنية على أسس علمية، وربما منحت للعلم زخما لا تدرك حدوده، وهي تسابق الزمن في هذا التسارع العجيب في التقدم العلمي، وهي مساهمة متواضعة في هذا الموكب العلمي العملاق الذي بدأ توا حركته المباركة نحو التحام علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة، ونحو إزالة ما يبدو لعين الظاهر بأنها الفوارق والفواصل فيما بينها، في حين أنها في عين البصير استمرارية محضة من الطاقة في بطن الذرة إلى الذرة إلى الأشياء المجهرية المتناهية في الصغر إلى المادة المرئية إلى ميدان الطاقة إلى الأثير وإلى طاقات ألطف وألطف.

فمن حقائق علم الحياة أنه توجد في جسم الإنسان آلاف الملايين من الخلايا، وفي كل جارحة من الجوارح توجد مجموعة من الخلايا تختص بتلك الجارحة. وأن الخلايا تولد وتموت باستمرار في الجسم الإنساني، منها ما تعيش لبضع دقائق كخلايا الجلد، ومنها ما تعيش إلى خمسة وعشرين عاما كخلايا المخ، وأن متوسط عمر الخلايا في الجسم يصل إلى حوالى ثلاث عشرة سنة. أي أن الإنسان الذي يصل عمره إلى أربعين سنة يتبدل حوالى ثلاث مرات، أي أنه يتجدد كليا في كل ثلاث عشرة سنة.

والمعلوم في علم الطب أن كل مرض في أي موقع من البدن يسبب اختلالا في الخلايا التي تتعلق بذلك الموقع، أو بعبارة أخرى أن الأمراض هي بسبب اختلالات تحدث في الخلايا. وكما ذكرنا أن الخلايا الحية لا تعمل لوحدها بعيدة عن تأثيرات الهالة المغناطيسية، ولكنها تتفاعل مع هذه الهالة بل مع الأشعة الشمسية ورياحها وكل الطاقات الكونية والوجودية الأخرى.

فلهذا فإن نظريتنا عن (طب الهالة) يبررها الواقع العلمي، وأن شفاء

الأمراض يتحقق عند معافاة الخلايا عن اختلالها، وأن الخلايا بدورها تستجيب إلى ما توحي إليها الهالة المغناطيسية. وكما ذكرنا فإن الهالة المغناطيسية هي الأصل وأن الجسم المادي ما هو إلا نسخة، وأن (الأصل) مهيمن على (النسخة) كما يهيمن الشيء على ظله. والأحرى بعلم الطب أن يتعاطى مع الهياكل الأصلية، فإن في ذلك تخفيفا كبيرا عن معاناة البشر من العمليات الجراحية التي تجرى بوسيلة الآلات الحادة، وما يرافقها من تقطيع الأوصال، وما ينتج عنها من الآثار الجانبية المخيبة للآمال».

فالذي يفنى ويبقى بالله ومع الله، والذي يتصل في الله حيث لا فرق بينه وبين حبيبه، يتجلى الله سبحانه وتعالى فيه متى شاء، وبأعمال لا تفسر بالعلم الحديث. فالأولياء الذين وصلوا ثم اتصلوا ومن ثم لا فرق بينهم وبين حبيبهم ـ كما جاء في حديث الشراب لمولانا عليه السلام ـ فما أتوا بشيء فهو ليس منهم ولكن الله سبحانه وتعالى يتجلى فيهم ويأتي بهذه الأعمال.

وفي هذا الاتصال يكون الله هو التجلي الأعظم في وجودهم، ويكون ملك العشق ملكهم، والمعاني جندهم، والعاشقون رعيتهم، وكل شيء حسن من فيض طينتهم. وهم يرتحلون من «أنا» الفاني إلى «أنا» الباقي، ويعرجون من الموجود المحدود إلى الوجود اللامحدود، حيث «لا موجود إلا وجود» كما عبر عنه أستاذي الأعظم صادق العنقاء قدس سره.

ثم يرجعون ويعطرون الوجود برجعتهم، وتصطحبهم الملائكة في رحلتهم إلى نقطة ما، ولا تستطيع الملائكة أن يتجاوزن ما بعد الإشارة وإلا احترقت أجنحتهم. وعندما يتخطى تلك النقطة تبدأ أول خطوته في التجليات الذاتية والبقاء بالله ومع الله وفي الاتصال في الله. فيكون المتكلم هناك الله وحده سبحانه وتعالى. فما العلم إلا بفضل الوجود البحت البسيط وإفاضته، وكل شيء يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم. ولا فلك يدور إلا من نوره، وتزف الملائكة الهداية بمشيئته إلى من اجتبى من خلقه،

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾[1]، ويحيي العباد من فيضه ورحمته وغيثه.

وهذا الموجود الذي تجلى فيه الوجود، والذي يعبر عن النور البحت البسيط كاللمعة، وعن البحر المحيط كالقطرة. وعند هذه التجليات، ليس هو العارف الذي يتكلم، ولكن الذي ينطق هو الوجود البحت البسيط. فالعامة يظنونها كفرا، والخاصة يسمونها «شحطات». والعارف صادق حتى في «شحطاته» لأن الله هو الذي يتكلم، وحاشا للعارف أن يتكلف، فكلامه صدق لأن حالته هي تلك. والذي قال «أنا الحق» ليس هو الحلاج، ولكن الحلاج أفشى سر الربوبية عند الخاصة والعامة. ولله در الشاعر حيث يقول:ـ

وما زلت إياها وإياي لم تزل ... ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبت
وملك معالي العشق ملكي وجندي ... المعاني وكل العاشقين رعيتي
وروحي للأرواح روح وكل ما ... ترى حسنا في الكون من فيض طينتي
ومن أنا إياها إلى حيث لا إلى ... عرجت وعطرت الوجود برجعتي
وآخر ما بعد الإشارة حيث لا ... ترقي ارتفاع وضع أول خطوتي
فما عالم إلا بفضلي عالم ... ولا ناطق في الكون إلا بمدحتي
ولا فلك إلا ومن نور باطني ... به ملك يهدي الهدى بمشيئتي
ولا قطر إلا حل من فيض ظاهري ... به قطرة عنها السحائب سحت
ومن مطلعي النور البسيط كلمعة ... ومن مشرعي البحر المحيط كقطرة[2]

---

(١) سورة النحل الآية ٢.

(٢) التائية الكبرى المسماة بنظم السلوك لابن الفارض.

سلطان سيد حسن المسقطي على المطر

روى لي الحاج موسى شعبان أنه سمع أن سيد حسن كان واقفا على سطح مسكنه في مجلس (الكوميتي) وكان المطر ينزل منهمرا من السماء وكانوا يقولون له: سيدنا انزل فإن المطر شديد، ولكنه قال لهم لا أنزل فليس ثمة مطر، في حين أن المطر كان يهطل بشدة على السطح، ولكنه كان يقول لا يوجد ماء ولا مطر، وكان هو واقفا طيلة هطول الأمطار. ويقولون انه بعدما نزل من السطح وجدوا المكان الذي كان يقف فيه جافا وبقية السطح كلها مبتلة بالماء.

وهذا السلطان على الطبيعة يتحقق عندهم بإذن ربهم حينما يشاء، وهي كرامات يفيضها الله على عبده الذي حمل الأمانة التي ذكرها الله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [1]. فمن هو غيرهم يدخل في عوالم السير والسلوك، ويباشر جهاد النفس، ويمتطي أجنحة الرحلة المقدسة من ظلمات الظلم والجهل إلى أنوار العدل والمعرفة!!! فهذه الأمانة وهذه الرسالة هي مركز ثقل الوجود تحوم حوله السموات والأرض وتدور حوله الأفلاك وتهيم حوله المجرات وتجول حوله النجوم والكواكب، كما يحوم العاشق ويدور ويهيم ويجول حول معشوقه. وما تراه على صفحة القبة الزرقاء ما هو إلا قصة عشق وهيام، سماها العلم بمتناقضات لا يعلم

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٧٢.

تفسيرها كالجاذبية وعلى النقيض منها انبساط الكون والتسارع الذي يلازمهما في اتجاه معاكس، أو المادة وضد المادة وهما على طرفي نقيض، أو المادة والطاقة المشعة تارة والمادة والطاقة الظلماء تارة أخرى. فكل شيء في الوجود، من الكواكب والنجوم والمجرات، إلى ذرات مجهرية لا تراها العيون، يدور ويدور في فلك معين وحول نواة معينة. ففي الذرة، التي لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر، تدور الالكترونات والبروتونات حول النواة بنفس النظام الذي يوجد في الأفلاك، من دوران الكواكب حول الشموس، والنجوم حول الثقوب السوداء أو مراكز المجرات، والمجرات حول مراكز أخرى لا يعرفها العلم حتى الآن، وربما هذه المراكز حول مراكز أخرى. . . وهكذا دواليك.

فهذه الأحداث تقع تحت قوة الجاذبية، وهناك أحداث أخرى تقع تحت قوة انبساط الكون، ولكنها جميعا حبلى بطاقات العشق الإلهي التي سخرها الله لأوليائه، كما ذكرنا عن سجود الملائكة لآدمعليه السلام الذي جعله الله في الأرض خليفة، أو كما قال الله في الحديث القدسي: «لولاك لما خلقت الأفلاك» وفي مكان آخر «عبدي أطعني تكن مثلي. . . تقول للشيء كن فيكون». فالأفلاك كلها خلقت لأجلهم، ومن أجلهم تفجرت على العالمين نعما لا تعد ولا تحصى، وفاضت عليها بكوكب الأرض الجميلة بكل روعتها وخيراتها من القبة الزرقاء التي زينها الله بإشراقات النجوم والمجرات ومن البحار والمحيطات والجبال الراسيات والإنسان والغابات والنبات والحيوانات. وأروعها الحياة التي دبت في الأرض على مدى الملايين من السنين وقطعت كل هذه الأشواط الطويلة حتى تلد أجيالا حبلى بقلة تحمل الكنز الخفي. وعملية الخلق الرائعة والعلة الغائية منها عبر عنها الحديث القدسي: «كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف».

ولا يحمل هذا الكنز الخفي إلا أمثال السيد حسن، وما عرف الله غيرهم. وإذا كانت معرفة الله هي العلة الغائية لعملية الخلق، وظهور هذا الكنز المخفي وتجليه هو الهدف، فإن كل شيء في الوجود خلق من أجل

تحقيق هذا الهدف وظهور هذه القلة من عباد الله الصالحين. فكل شيء في هذا الوجود يدور ويموج ويجول في عشق وجنة، لكي يسوق الخلق إليهم ويلدهم في نهاية المطاف. والله يخلق ويبدع ويبدئ ويعيد... وكل هذا التسلسل في مراحل هذا الوجود وكل هذه العملية الرائعة في الخلق والإبداع، التي تتسم بالوله والحب والعشق، إنما سخرها الله لكي تنتهي إليهم وتفضي كرامته إليهم، فهم أحباؤه وإليهم يميل العشق الرباني.

فالأولياء قد وصلوا مقام الاستغناء كما قال الشاعر:

قنعوا بقلتهم بحفظ رسالة ... خشعت لها السبع الشداد ذراها
قاموا بقلتهم بحمل أمانة ... قد أشفقت من حملها ثقلاها
فبهم مدار الأرض يبقى جاريا ... ولهم تدور كما الرحى زرقاها
وبهم جبال الراسيات توطدت ... بنيانها في الأرض في غوراها
ولهم شداد السبع في عليائها ... خلقت وما فتئت تفيض نداها
وبهم تموج بحارها في روعة ... ولهم مجرات السما وعلاها
وبهم زئير أسودها وليوثها ... وبهم خرير الماء في مجراها
ولهم تنشأ في السماء نجومها ... وتموت أخرى في نظام فضاها
وبهم ثبات الأرض في ميدانها ... ولهم شموس سطعت بضياها
وبهم تدب حياتها في أرضها ... سوقا إلى الكنز الخفي خفاها
ولهم عجائب خلقه في كونه ... آيات تتلى بكرة وعشاها
وبهم تجول عواصف في جنة ... وزلازل تقضي على أحياها
ولهم مدار كواكب في نظمها ... حول الشموس تدور حول نواها
وبهم تدوي الرعد عبر سحابها ... والبرق يلمع ومضة بسماها
ولهم تدور جميع أنظمة السما ... حول العلي مدارها ورحاها[1]

(١) كتاب «السموات السبع» للمؤلف صفحة ٨٤.

روايات متفرقة عن كرامات السيد حسن المسقطي قدس سره

منذ صدور الطبعة الأولى من الكتاب التقيت بأشخاص من أعمار مختلفة: منهم من تجاوزت أعمارهم الثمانين ومنهم الكهول ومنهم الشبان، وحكى لي كل واحد منهم، إما مشاهدة ومعاينة شخصية وإما نقلاً عن آبائهم وإما نقلاً عن أجدادهم، بعض كرامات السيد حسن المسقطي. فوجدت أنه من الواجب علي أن أذكرها في الطبعة الثانية من الكتاب، لأداء الأمانة الملقاة على عاتقي إزاء التاريخ والأجيال القادمة، خصوصاً وأن بعض الرواة لاموني على عدم مراجعتي لهم، أثناء إعدادي الطبعة الأولى، لضم رواياتهم عن كرامات السيد في الطبعة الأولى بالذات.

روى لي الفاضل محمد حسن الهاشماني أنه كان يزور مومبي كثيراً في تلك الأيام الخوالي، وكان يقيم قرب مسجد المغول حيث يقيم السيد حسن المسقطي. وفي تلك الأيام كان الناس يذهبون إلى الحمامات العمومية لأخذ الحمام، لعدم وجود الحمامات في البيوت. قال لقد رأيت السيد حسن بعد أخذه الحمام يغسل إزاره بيديه ثم يلبسه وهو لا يزال مبتلاً. فقلت في نفسي لعله لا يملك الإزار الثاني، ولا بد من مساعدته. وعندما سألت الحاضرين قالوا لي: «لو أعطيته إزاراً جديداً لتصدق به على الفقراء فوراً».

من يفعلِ العرف لا يعدم جوائزه   لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال لي نفس الشخص إنه حينما تواجد السيد حسن في مسقط، كان هناك شاب غير مؤمن لا يعتقد بالدين ولا بكرامات الأولياء، وكان يعيّرنا بالتخلف والرجعية، ويقول بأن كلامنا عن قوة الدين وكرامات الأولياء ما هو إلا أساطير الأولين. وفي يوم من الأيام ألمّت به من الملمات ما اضطره إلى أن يذهب إلى السيد حسن ويطلب منه استخارة الله من القرآن الكريم. فهمس له السيد حسن قائلاً: «إنك على جنابة! اذهب وتطهر أولاً ثم ائتني للاستخارة». فرجع ذلك الشاب إلينا وهو يصيح من فرط الذهول والتعجب والاستغراب قائلاً: «كيف يعرف أنني على جنابة، فإنني لم أخبر بذلك أحداً!!!». وكان لسان حاله كما قال أبو الطيب المتنبي:

وأقبل يمشي في السماط فما درى   إلى البحر يمشي أم إلى البدر يرتقي

كان لنا خادم اسمه بلال، فكان يقول لي أنه كان يخدم السيد حسن المسقطي عند مجيئه إلى مسقط وإقامته في مطرح في مكان يسمى (الكوميتي). يقول بلال وكان السيد حسن يقوم الليل ويصلي ويبكي بكاء كثيراً. فقلت له يا مولانا لماذا هذا البكاء والنحيب؟ فيقول لي: «نم يا بلال ولا تهتم بهذه الأشياء». فما أدرى بلال بالمدامة الأزلية التي كان يسكر بها السيد حسن! كما قال ابن الفارض:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة   سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

روى لي الفاضل حسين الشالواني أنه سمع عن أبيه المرحوم إبراهيم أنه كان يقول بأنه كان في خدمة السيد حسن في الخابورة، حيث كان يذهب السيد حسن للتقيظ في الصيف. وفي يوم من الأيام قال لي السيد حسن: «اذهب يا إبراهيم إلى مكان كذا وكذا حيث هناك أكمة، وانتظر على الأكمة حيث سترى شخصاً صفاته كذا وكذا يأتي من بعيد، وعندما يصل إليك أخبره أن السيد حسن في انتظارك». يقول إبراهيم فخرجت من البيت وكان ذلك المكان يبتعد عنا بحوالى ثلاث كيلومترات، وكنت أعرف أنني سأقطع هذه المسافة في نصف ساعة على الأقل رغم مرونة الصبا وقوته. يقول فخرجت

من البيت ثم خطوت خطوات فوصلت إلى ذلك المكان فوراً!!! فذهلت كيف وصلت إلى المكان بهذه السرعة في حين أني كنت أتوقع أن أصله في نصف ساعة. فانتظرت على الأكمة قليلاً، ثم رأيت شخصاً يأتي من بعيد وهو متجه نحوي. وعندما اقترب رأيته بنفس المواصفات التي وصفها السيد حسن!!! فقلت له إن السيد حسن ينتظرك في البيت. يقول المرحوم إبراهيم فذهلت عندما رأيت ذلك الشخص يخطو خطوات وأنا أتبعه ويصل إلى البيت فوراً!!! فتعجبت كيف أن ذلك الشخص الغريب يعرف البيت، وتعجبت أكثر وأكثر كيف أنه يصل إلى البيت فوراً في حين أن البيت يبتعد عن ذلك المكان نصف ساعة على الأقل!!! وفي هذه القصة تبرز كرامتان ألا هي طي الأرض وزيارة الإمام الحجة ﷺ للسيد حسن المسقطي قدس سره.

روى لي أحد الثقاة بأن السيد حسن المسقطي إذا سمع بورود درويش إلى مسقط يسرع لملاقاته أينما كان ذلك الدرويش، في البر أو البحر أو على الجبل، بعيداً أو قريباً. وفي يوم من الأيام سمع عن ولي من أولياء الله جاء إلى مطرح وسكن في كهف من كهوف جبل ريام. يقول رأيت السيد حسن تحرك إلى ريام وصعد الجبل والتقى بذلك الدرويش في ذلك الكهف. فتحادثا ملياً وأخيراً قال له الدرويش: «لماذا تكبدت كل هذه المشقة للصعود إلى الجبل لزيارتي في كهفي، في حين أنك أعلم مني وأشمخ في المعرفة؟» فقال: «إنني في بحث دائم عن الحكمة، فالحكمة ضالة المؤمن، وإنني أطلب من الله دوماً ودأباً أن يزيدني علماً». أوليس الرسول ﷺ هو القائل: «الحكمة ضالة المؤمن»؟ أوليس الله هو القائل مخاطباً رسوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]؟.

وعندما أقفل السيد راجعاً ودعه الدرويش على باب كهفه ولسان حاله يقول:

فليس الناس بعدك في نقير ولا هم غير أصداء وهام

وفي رواية أخرى تثبت إحاطة السيد حسن المسقطي بكلام الحيوانات ومنطق الطير، يروي لي الفاضل حسين علي عبد الحسين نقلاً عن السيد يوسف ابن السيد هاشم ابن السيد ماجد الموسوي ـ رئيس محلة النازي موجاً

ـ بأنه كان يخدم السيد حسن في صباه. وفي تلك الأيام الخوالي كان الناس يستعملون الحمير للتنقل من مكان إلى آخر. يقول السيد يوسف: «إنني كنت أرافقه في تلك التنقلات، وعندما يصل السيد حسن إلى المكان الذي كان يقصده، ينزل من على الحمار، ثم يأمر الحمار بأن يذهب إلى مكان كذا وينتظره هناك. فكان الحمار يطأطىء رأسه طاعة وإجلالاً». يقول السيد يوسف فكنت أتبع الحمار لأرى ماذا يفعل، فإذا به يذهب إلى نفس المكان الذي أمره السيد حسن وينتظره هناك! وهذا ما يدعو إلى الذهول والعجب والاستغراب، فإن ذلك تكرر أمامي مراراً وتكراراً. فقلت له يا مولانا هل يفهم الحمار ما تقوله؟ فقال لي: «إن الحمار يسمع كما تسمع ويفهم كما تفهم»!!!.

فما أعظم شفافية هذا السيد حتى أنه لينفذ في مشاعر الحيوانات ويخاطبها كما تخاطب الحيوانات بعضها بعضاً! إنه والله لأرق من رقراق السراب! وإنها والله لموهبة يهبها الله المخلصين من عباده كما وهبها لسليمان بن داود عليه السلام من قبل. وإنها لا تتأتى إلا بالشوق والارتياض والحظوة والزلفى بين يدي العليم القدير. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومن طلب العلوم بغير درس سيدركها إذا شاب الغراب

وروى لي نفس الشاب عن عمه السيد يوسف ابن السيد هاشم ابن السيد ماجد الموسوي (والد زوجته) عن درويش بن أحمد الحساوي قال كنت أقوم الليل في إحدى كهوف جبال الدارسيت وأتهجد وأتعبد وأقرأ الأوراد. ويشهد الله أنه لم يكن يعرف بذلك غيري وغير الله سبحانه وتعالى. يقول وفي ليلة من الليالي شعرت بأحد يربت على كتفي قائلاً: «حسناً ما تفعل استمر في هذا العمل». يقول نظرت وإذا بالسيد حسن المسقطي واقفاً ورائي فقلت يا مولاي من أنبأك بمكاني في هذه الجبال وبعبادتي وتهجدي في الليالي؟ فقال أنبأني اللطيف الخبير. يقول ثم غاب عني ولم أعرف كيف دخل إلي في الكهف وكيف خرج منه! وما أسعد من كان في طاعة النفس الكريمة!

لكل امرىء نفسان نفس كريمة ونفس فيعصيها الفتى ويطيعها

وروى لي نفس الشاب عن أبيه عن جده بأنه كان من تلامذة السيد حسن المسقطي. وكان السيد هو الرائد في إدخال احتفالات عيد الغدير السعيد إلى جماعة اللواتية في مسقط، ولم يكن أحد يحتفل بعيد الغدير قبل ورود السيد حسن المسقطي إلى مسقط. يقول كنا في مجلس السيد في احتفال عيد الغدير، وكان السيد في حالة جذبة في ذلك اليوم لا يكلم أحداً ولا يرد على أحد بسبب هيبة ذلك اليوم العظيم، يوم الإمام علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام، الذي قال فيه الشاعر اللبناني المسيحي بولس سلامة:

لا تقل شيعة هواة علي　　إن في كل منصف شيعيا
هو فخر التاريخ لا فخر شعب　　يدعيه ويصطفيه وليا
جلجل الحق في المسيحي حتى　　عد من فرط حبه علويا
يا سماء اشهدي ويا أرض قري　　واخشعي إنني ذكرت عليا

والذي قال عنه الإمام الشافعي (رض):

«ما أقول في رجل أخفى أولياؤه مناقبه تقية، وكتم أعداؤه فضائله حنقاً وحسداً، وما شاع عنه ملأ الخافقين».

وبعد برهة من الزمان سألناه يا مولانا من منا من أهل الجنة. فانتبه قليلاً من جذبته وقال: «كلكم إن شاء الله من أهل النعيم». ولكنا ألححنا عليه السؤال وأقسمنا عليه بصاحب يوم الغدير إلا أن يجيب على سؤالنا بالتحديد. فقام منزعجاً من جذبته بسبب ذلك القسم، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ **[الواقعة: ٧٦]**. فقام وتوضأ وصلى ركعتين ثم نظر إلى الباب وقال: «أول من يدخل من هذا الباب فهو من أهل الجنة». فانتظروا ملياً ثم دخل المرحوم عبد العلي بن سليمان الجعفراني. فقام السيد واحتضنه وقبله فيما بين عينيه وأجلسه بجانبه، في حين أن المرحوم عبد العلي كان يظهر ذهوله واستغرابه وتعجبه من ذلك الإكرام والتجليل غير المسبوق، وبشره بالجنة وتنبأ له بأنه سيموت في المضيعة، يعني في الغربة بعيداً عن الأهل والخلان حيث يدفنه الغرباء. وفعلاً بعد سنوات مرض مرضه الأخير وسافر إلى الهند إلى بلدة (المريج)، وتوفي هناك وحيداً فريداً ـ لأن أولاده كانوا صغاراً ولم

يكونوا في وضع يؤهلهم لمصاحبته إلى (المريج) - حيث تولى غسله ودفنه القليل من الغرباء. وكان أهل مسقط في تلك الأيام الخوالي يذهبون إلى (المريج) للمعالجة حيث كان هناك ولا يزال مستشفى كبير مختص بمعالجة ذلك المرض، في حين أن مسقط لم يوجد فيه آنذاك مستشفى لهذا الغرض.

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء

وروى لي نفس الشاب عن محمد بن علي بن شعبان عن أبيه عن جده شعبان قال كنت أخدم السيد حسن حين وروده من العراق، وكان قدس سره قد أتى بحصير من العراق كان يصلي عليه دائماً. وفي يوم من الأيام أراد أن يصنع له فراش، وفي تلك الأيام الخوالي كان الفراش يصنعه الحلاجون ولم يكن يباع جاهزاً كما هو الآن. يقول شعبان فوجدت له حلاجاً أعرفه ليصنع له الفراش. فجاء الحلاج إلى السيد وأخذ كل المواصفات التي يريدها، ثم صنع الفراش وجاء به إلى السيد، وخفض السعر كثيراً إكراماً له من دون علم السيد. فقال له السيد بأن تكلفة الفراش كذا وكذا فكيف تطالبني بهذا السعر البخس؟ فتعجب الحلاج كيف يعرف السيد تكلفة الفراش. فقال له يا مولانا أنا خفضت السعر حباً وإكراماً لك. فقال قدس سره خذ تكلفة الفراش زائد روبيتين عمولة العمل، ولا أريد بأن أقبل بأقل من ذلك، لأني إذا قبلت فمعناه أنك ستشاركني في ثواب هذا الفراش الذي أريده للتهجد والعبادة وللفتوى بين الناس.

فرجع الحلاج شاكراً أنعم ربه الذي قسمها له، عارفاً بما قاله الله تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]. وما أعظم هذا الرزق الذي جعل الله السيد وسيلته!!!

وما طلب المعيشة بالتمني   ولكن ألق دلوك في الدلاء
تجيء بملئها طوراً وطوراً   تجيء بحمأة وقليل ماء

وروى لي نفس الشاب عن نفس المصادر أنه في يوم من الأيام جاء رجل ثري إلى بيته ودق الباب. فخرج السيد إلى الباب ورأى الرجل الثري، ولكنه لم يدعه أن يدخل البيت قائلاً له «لا تدخل هذا البيت ولا تدخل

حطب النار إلى بيتي». فقال له الثري لماذا يا مولاي؟ قال لأنك تحمل في جيبك نقوداً تريد أن ترشيني بها حتى أزوّر لك في صك الإرث، فاذهب وتب أولاً توبة نصوحاً ثم ائتني بعد ذلك. فتعجب الرجل الثري كيف علم السيد حسن بذلك، في حين أن أحداً لم يطلع على ذلك السر بتاتاً. فرجع يجر أذياله خائباً وهو يخاطب نفسه مؤنباً لها:

فكن كيف شئت وقل ما تشاء   وأبرق يميناً وأرعد شمالا
نجا بك لؤمك منجى الذباب   حمته مقاذيره أن ينالا

وروى لي نفس الشاب عن نفس المصادر أنه في يوم من الأيام جاءه أحد إلى بيته ليناقشه في مسألة الربا. فعلم السيد حسن بما في قلب الرجل، فبادره بادىء ذي بدء بالآية الكريمة من سورة البقرة: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥] قبل أن يبدأ الرجل الكلام عن الموضوع الذي أتى من أجله. فسكت الرجل وأصبح لا ينطق ببنت شفة، متعجباً كيف عرف السيد بنيته قبل أن ينطق بها. فرجع مذهولاً مستغرباً كيف علم السيد بالغيب وصار يخاطب نفسه:

ولا أقيم على مال أذل به   ولا ألذ بما عرضي به درن

وروى لي نفس الشاب عن نفس المصادر عن نفس الشخص المذكور أعلاه بأنه رغم الصراحة الغيبية التي تكلم بها السيد حسن عن مكنونات قلبه من قبل، إلا أنه لم يرتدع عن معصية الربا ولم يتب توبة نصوحاً، لأنه كان في يوم من الأيام يصلي وراء السيد صلاة المغرب. وأحس السيد أثناء صلاته بشيء يشوش صفاء صلاته. فبعد الصلاة نظر السيد إلى خلفه فإذا به بهذا الشخص يصلي خلفه. فهمس في أذنه قائلاً: «لا تصل خلفي فإن ذلك يشوش صفائي لأنك تحمل في جيبك نقوداً من الربا». كيف عرف السيد بوجود النقود في جيبه! بل كيف عرف أنها نقود الربا!! وكيف لاحظ السيد التشويش على شاشة روحه الشفافة!!! تماماً كما نلاحظ شيئاً من التشويش على شاشة التلفزيون الصافية. وكانت صراحة السيد في الله ولله، ولا بد من ذلك لتقويم الأود والإعوجاج كما قال الشاعر:

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من درئه تقوما

وروى لي نفس الشاب عن السيد علي ابن السيد هاشم عن أخيه المرحوم السيد ماجد (رئيس محلة النازي موجا السابق) بأنه في يوم من الأيام ورد إلى مجلس السيد حسن حوالى عشرة ضيوف في وقت الغداء. ولم يكن في بيت السيد طعام إلا بمقدار الكفاف. فجاءهم بذلك الطعام وقدمه لهم، وأكل منه الضيوف العشرة، وبقي الطعام كما هو، لم يتناقص منه شيء، على مشهد الذهول والتعجب والاستغراب الذي أصاب الحاضرين.

تسع البلاد إذا أتيتك زائرا وإذا هجرتك ضاق عني مقعدي

وهذه من المعجزات التي لا تظهر إلا على أيدي الأنبياء كالرسول الأعظم ﷺ في يوم الخندق في بيت جابر بن عبد الله الأنصاري (رض) والمسيح عليه السلام.

وروى لي نفس الشاب نقلاً عن الفاضل عبد الحسين عبد الخالق نقلاً عن الخطيب الحاج أمين رمضان جعفر العيسائي نقلاً عن والدي العلامة السيد حسين العالم (أخي السيد حسن المسقطي)، قال حينما وردت إلى مسقط وقبل رحيل السيد حسن إلى الهند، كنت أتتبع شخصياً ما طالما سمعته عن كرامات أخي السيد حسن. فقد كنت أسكن معه في بيته، وفي يوم من الأيام خرج السيد حسن إلى بلدة (العينت) ليرتاض ويتأمل، وكان قد أوصاني بأن لا أقترب من (كتيب) خاص كان متواجداً في مكتبه. ولم أطق صبراً فاقتربت من الكتيب وفتحته، فإذا بي أقرأ رسالة **مذيلة باسم محمد بن الحسن العسكري وتوقيعه وختمه، ومعنونة إلى السيد حسن المسقطي**، وفي الرسالة ما نصه:

«إن الميعاد بيني وبينك قد تأجل»

ومن هول ما رأيته فقد أغمي علي ولم أفتح عيني إلا وأنا في أحضان السيد حسن وهو يقول لي: «يا أخي بما أنك قد علمت بالسر فاحتفظ به ولا تبح لأحد في حين حياتي، وبعد مماتي أنت أحق دون غيرك بأن تبوح به».

ولقد زقه أخوه زق الحمامة فرخها حتى أصبح يذكر أخاه دوماً ليس

بالإجلال والتقدير فحسب بل بالسبحات والتقديس. وفعلاً بعد ارتحال أخيه إلى الملأ الأعلى باح بالسر، وهو يندب أخاه بكل وجوده:

وإذا ارتحلت فشيعتك سلامة حيث اتجهت وديمة مدرار

ولسان حال العلامة السيد حسين العالم بعد وفاة أخيه كما قال ابن الفارض:

ولبعده اسود الضحى عندي كما ابيضت لقرب كان منه دياجيري

موت الحية بأمر السيد علي القاضي

ووقعت حادثة مشابهة لأستاذه السيد ميرزا علي القاضي[1]، نقلا عن العلامة طهراني في كتابه «معاد شناسي» أي «معرفة المعاد»، أمر فيه السيد الحية بأن تموت فماتت على الفور:

«لقد سمع عدة من أصدقائنا النجفيين من أحد العلماء الكبار من مدرسي النجف الأشرف بأنه كان يشك في المرحوم أستاذ العلماء العاملين وقدوة أهل الحق واليقين والسيد الأعظم والسند الأفخم وطود أسرار رب العالمين الحاج ميرزا علي القاضي ـ رضوان الله عليه ـ بالنسبة لبعض المطالب التي نقلت عنه أحيانا، وحالاته التي سمعنا عنها.

وكنت أقول لنفسي هل هذه المطالب التي ينقلونها صحيحة أم لا؟ وهل ما نسمعه من أن المريدين الذين يتربون على يديه ويصلون إلى حالات وملكات وكمالات هل هو كلام صحيح أم نسج من الخيال؟

مضت مدة طويلة وأنا أحدث نفسي في هذا الموضوع ولم يكن أحد يعلم ما في ضميري. وفي يوم من الأيام ذهبت إلى مسجد الكوفة لإقامة الصلاة والعبادة وبعض الأعمال والمستحبات التي وردت لهذا المسجد الشريف. وكان المرحوم القاضي ـ رضوان الله عليه ـ يتردد كثيرا على مسجد الكوفة وكانت له هناك حجرة خاصة للعبادة. وكان يحب الاعتكاف في هذا المسجد وفي مسجد السهلة ويمضي الليالي الكثيرة فيها للعبادة والسهاد. وصدفة التقيت في خارج المسجد بالمرحوم القاضي رحمة الله

(١) كتاب «أسوة عارفين» صفحة ٦٧ تأليف محمود طيار مراغي وصادق حسن زاده.

عليه، وبعد تبادل السلام والتحيات كنا نتكلم ونمشي إلى أن وصلنا إلى خلف المسجد، في طرف القبلة، وجلسنا في الصحراء عند جدار المسجد الرفيع حتى نستريح قليلا ثم نذهب معا إلى المسجد.

ولقد انغمسنا في الحديث، وكان المرحوم القاضي رحمة الله عليه يتحدث بكل حرارة عن الأسرار والآيات الإلهية، وعن مقام التوحيد وجلاله وعظمته، وعن السير والسلوك في هذا الطريق، وأنه الهدف الوحيد لخلق الإنسان، وكان يقيم البراهين على ذلك.

وكنت أحدث نفسي وأقول في ضميري بأننا في شك من ذلك ولا نعرف ما هو الخبر؟ فالويل لنا إذا انقضى عمرنا على هذا المنوال! والويل لنا إذا كانت هذه هي الحقيقة ولم يصل إلينا شيء من ذلك! في حين أننا لا نعلم تحقيقا أن هذا هو الطريق الصحيح حتى نتبعه.

في أثناء هذا الحديث، خرجت حية كبيرة من إحدى الثقوب، وتحركت أمامنا في موازاة جدار المسجد. ففي تلك المنطقة توجد حيات كثيرة، والناس غالبا ما تراها هناك، ولكن لم نسمع حتى الآن بأن الحيات هناك قد لدغت أحدا. ولما وصلت الحية قدامنا أصابني الفزع، فأشار المرحوم القاضي رحمة الله عليه إلى الحية وقال: «مت بإذن الله». فماتت الحية على فورها!!

واستمر المرحوم القاضي (ره) في حديثه كأن شيئا لم يحدث، وبعدها قمنا وذهبنا داخل المسجد. وصلى المرحوم القاضي ركعتين في وسط المسجد، ثم دخل في حجرته. أما أنا فأديت بعض الأعمال المستحبة، وقد كنت أنوي أن أرجع إلى النجف الأشرف بعد ذلك.

وأثناء العبادة فجأة خطر لي تساؤل: هل كان عمل هذا الرجل واقعيا أو أنه أتى بعمل من السحر؟ أليس من الأحسن أن أرجع إلى ذلك المكان لأتأكد من الحية هل لا زالت ميتة أم أنها استعادت حياتها وقامت واختفت؟

وكانت خاطرة التساؤل هذه تضغط على رأسي، حتى أتممت القيام بأعمالي المستحبة، وفورا خرجت من المسجد إلى ذلك المكان، ووجدت أن الحية ميتة في مكانها، ورفستها برجلي ولكنها لم تتحرك!!

فخجلت من عملي هذا ورجعت إلى المسجد حتى أصلي بعض الركعات، ولكنني لم أستطع ذلك. فكانت الأفكار تراودني: إذا كانت هذه المسائل حقا فلماذا لا نهتم بها ولا نعيرها أي التفات؟

وكان المرحوم القاضي (ره) لا زال في حجرته منغمسا في عبادته، وبعدها خرج من حجرته ناويا الخروج من المسجد قاصدا النجف الأشرف. فالتقيت معه مرة أخرى في المسجد، فرأيته يتبسم في وجهي قائلا: «يا هذا، إذن قد امتحنتني، إذن قد امتحنتني»؟.

ويقول العلامة الطهراني: إن هذه المعجزة تحققت باسم من أسماء الله الحسنى ألا هو «المميت» وتمت بذلك الإماتة وقبض روح الحية.

الفلوس التي لا تنفد من يد سيد علي القاضي المباركة

والأمر العجيب الغريب في أمر السيد علي القاضي هو قصة «الفلوس التي لا تنفد» التي ذكرناها آنفا من كتاب «قدوة العارفين». ونذكر قسما منها الآن من الكتاب الفارسي «أسوة عارفان»[1].

فمد السيد القاضي يده في جيبه وأخرج صما من النقود وناوله إياها قائلا له: ضع هذه النقود في جيبك وانتفع منها من غير أن تعدها. يقول صديقنا: بقيت مدة من الزمان كلما احتجت شيئا مددت يدي في جيبي وأخرجت المبلغ الذي أحتاجه من غير أن أعرف مقدار النقود التي في جيبي، إلى أن وسوست لي نفسي وأقول:

ما عسى أن تكون هذه النقود التي لا تنفد، ومددت يدي إلى جيبي وأخرجتها وعددتها فإذا هي لا تتجاوز عدة فلوس، فأرجعتها إلى جيبي، ولكن بعد مدة يسيرة ذهبت بركة هذه النقود، ووقعت مرة أخرى في الفقر والفاقة. فذهبت ثانية إلى السيد القاضي وقبل أن أتفوه بكلمة قال لي: ها؟ ماذا عملت؟ عددت النقود؟ وأعطاني صما من النقود وقال لي: ضعها في جيبك ولا تعدها كما فعلت في المرة الأولى.

يقول آية الله الكاشاني: وبقي صاحبي ينتفع من هذه النقود ما دام على قيد الحياة من غير أن ينقص منها شيء!!

---

(١) كتاب «أسوة عارفان» صفحات ١٦٤-١٦٥.

حادثة مروعة في ميناء مومبي

في يوم من أيام الحرب العالمية الثانية كان السيد حسن المسقطي يخطب على المنبر في مسجد المغول في مومبي بالهند، إذ رن في مسمع الجوزاء صوت هائل، فأسرع الناس بالهرب من المسجد، وظل السيد حسن في مكانه لا يتحرك. وعلم الناس أن انفجارا كبيرا قد حصل في ميناء مومبي، وأن غواصة حربية ضربت إحدى البواخر الراسية على الميناء.

وبعد هنيهة رجعوا إلى المسجد، فوجدوا السيد حسن في مكانه ساكنا مطمئنا، قد ملكت عليه السكينة سمعه وبصره، وهو يقول لهم: لماذا هذا الهلع؟ فإن الموت إذا كان مقدرا فلا مهرب منه، ويأتي من حيث لا يحتسب، وأن المقادير التي يجريها الله سبحانه وتعالى بين الناس، ليست سهاما طائشة ولا نياقا عشواء، وإنما ليبلوكم أيكم أحسن عملا، ففي باطنها تكن الحكمة الربانية العالية، لا يكتنهها ولا يستشف غيوبها إلا قليل من الناس، ووعظهم بأنه إذا نزلت بهم كرائه الأمور وحوازب الخطوب، فإلى الله مرامي مفزعهم وفي أحضانه أمن فزع جأشهم. فرجع الناس إلى أنفسهم وفهموا أنه قد نطق ببنت شفة لا تعبر إلا عن الحقيقة المطلقة، وأن ما سمعوه ما هي إلا تجليات ربانية أشرقت على شفاه هذا العبد الصالح. وفهموا أنه كما وصفهم جده علي عليه السلام «في الزلازل وقور وفي المكاره صبور وفي الرخاء شكور».

ومن المعلوم أن العرفاء لا يرون تكاثر الموجودات على صفحة البسيطة إلا كما يرون الأمواج على سطح البحر، أو كما يرون انبساط الرمال على سطح القفرة الجرداء متجعدة تجعد الأمواج المتكسرة على سطح القاموس المحيط. ولا يرون الأحداث المتغيرة حولهم إلا كما يرون

تغير الأمواج واضمحلال موج وولادة موج آخر، أو كما يرون تغير التجعدات على سطح الرمال. أي أنهم يرون الثابت الأصيل وهو الحق سبحانه وتعالى، ولا يرون المتغيرات وتكاثر الأشكال والتعينات. كما أنهم في المثال السابق يرون ماء البحر أو رمال القفرة الجرداء، وإن وجدت الأمواج والتجعدات المتكاثرة على سطحهما فهي متغيرة وزائلة وليست للأشكال والتعينات اصالة. فما يهمهم هو الأصل لا الفرع، والثابت لا المتغير، ووحدة الوجود لا تكاثره.

فإن كان الناس في معمعة الحياة في خصام ومعارك على صفح الجبل، فإن العارف هو على قمة الجبل، ينظر إليهم من فوق الجبل، فيلمح منظرا آخر غير المنظر الذي يراه الناس وهم في معمعة الخصام، فقد ألهاهم التكاثر كما يقول الحق تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[1]. وكان من قبل معهم وفي مستواهم ويعيش في خصامهم ومعاركهم، وكل ما زاد في السير والسلوك وغولا فكأنما بدأ بصعود الجبل، وكلما ارتقى إلى فوق الجبل بدأت مناظر المعركة تضمحل في عيونه تدريجيا وتتبدل إلى منظر السلام والانسجام والتناغم. أو إن كان الناس في الفلوات ووسط الوحوش يسمعون عجيجها، ويرون كيف تفترس بعضها البعض، أو إن كانوا في البحار الغامرات، ويرون اختلاف النينان فيها وكيف تأكل بعضها بعضا، فالعارف بمنأى عن المعارك والوحوش والنينان وفوق قمة الجبل، ويرى من هناك منظرا غير الذي يراه الناس وهم وسط المعارك، أو بين الوحوش في الفلوات، وبين النينان في البحار.

فمعالم المعارك والوحوش دارسة في نظر العارف وهو في مقاماته الشامخة لا يهمه شيئا، فقد ارتقى من الغوغاء والضجيج إلى السلام والطمأنينة، لا يرى هناك إلا الحق سبحانه وتعالى بالرؤية الواضحة العينية، وهو عين اليقين، بل يعيش مع الحق بكل وجوده لأنه متصل به بالمحو واللقاء حيث لا إله إلا الله، وذلك هو حق اليقين.

---

(١) سورة التكاثر.

ويصدق قول الشاعر في هذا العبد الصالح وهو يصف تجرده من جلابيب التكاثر وعيشه في أحضان التوحيد:

زال التكاثر وانمحى بعيونهم — عن كل من سكن الثرى وفضاها
كالصاعدين على الجبال بقمة — نظروا إلى أرض لمن أعلاها
عاش المعارك حين كان بأرضها — فمحته تدريجا علا عيناها
هدأت مناظر غابة وحشية — فيها الوحوش أسودها وظباها
درست معالمها وزال نقوشها — ذلت مقامعها خبت غوغاها
ورأوه في أفعالهم وصفاتهم — عين اليقين برؤية وجلاها
عاشوا وجود الحق في أرواحهم — حق اليقين بمحوها ولقاها
وتكشفت أسرار عالم أحمد — قامت قيامتهم بسر فناها[1]

وقد وقعت حادثة مشابهة لأستاذه ومربيه العارف الرباني سيد علي القاضي قدس سره في النجف الأشرف. فقد نقل العلامة الطباطبائي بأنه قد وقع حادث آخر وقد كنت حاضرا فيه، وهو أن أحد أصدقاء السيد القاضي كانت له غرفة في مدرسة الهندي في النجف، وعندما سافر سمح للسيد القاضي بالاستفادة منها، فكان السيد القاضي يأتي في كل يوم قبيل الغروب مع عدد من أصدقائه فيقيمون صلاة الجماعة، وكان مجموع الحاضرين يتراوح من سبعة إلى عشرة أشخاص، ثم يجلس السيد القاضي ساعتين لمذاكرة طلابه والإجابة على أسئلتهم.

وكنا في إحدى الليالي جالسين في الغرفة كعادتنا، وكان السيد القاضي مستغرقا بالحديث عن التوحيد الأفعالي، وإذا بصوت مرعب تصورنا بأن السقف قد انهد علينا، وكان هنالك ثقب في إحدى جدران الغرفة معد لخروج دخان المدفئة، أتى منه مثل صوت الانهدام وأحدث ضجة وارتفع الغبار والتراب وملأ الغرفة، فهرع جميع الطلاب نحو الباب يتدافعون للخروج منه، وكنت قد نهضت معهم، وبقي السيد القاضي جالسا مع أن خراب السقف بدأ من فوق رأسه، ثم صاح بنا: تعالوا أيها

(١) كتاب «السموات السبع» صفحات ١٠٠-١٠١.

الموحدون بالتوحيد الأفعالي. فرجعنا وجلسنا وواصل السيد حديثه عن التوحيد الأفعالي إلى أن انتهى من البحث.

وهكذا وقع الامتحان لنا في نفس الموضوع الذي كان السيد يتحدث فيه. ثم تفحصنا عن حقيقة ما حدث فكان أن المدرسة المجاورة لمدرسة الهندي كانت غرفها متصلة بغرف هذه المدرسة بنحو لا يفصلها إلا حائط واحد، وقد انهدم سقف مدفئة الغرفة المتصلة بغرفتنا فانتقل صوت الانهدام والتراب والغبار عبر ثقب مدخنة المدفئة المفتوح مع الغرفة المجاورة [١].

فالعارف ينظر إلى أحداث العالم بنور الله ويسمع الأنغام أو الضجيج بسمع الله كما يقول الحديث القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فاذا احببته كنت بصره الذي يبصر به وسمعه الذي يسمع به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها وقدمه التي يسعى بها فبي يبصر وبي يسمع وبي ينطق وبي يبطش وبي يسعى وان استعانني اعنته وان دعاني اجبته». فانه يبصر ببصر الله بأن كل شيء في الوجود رائع وجميل وفي محله، كالرسم الذي يرسمه الرسام والذي يحتوي على المنظر الجميل. فاذا دخلت في تفاصيل الرسم البديع وجدت أن هناك ظلالا وأفياء وألوانا مظلمة لولاها لما برزت المناظر الخلابة. كذلك الوجود لا تبرز روعته إلا بوجود الخير والشر والسراء والضراء والرفاه والمصائب والسعادة والشقاء والحياة والموت والرحمة والقسوة والذكاء والبلاهة والحلم والغضب والجود والبخل وكرم الأخلاق ونذالة المنبت وغيرها، وبوجود كل هذه المتناقضات المنتشرة على وجه البسيطة.

فالعارف اذا رأى في الخير جمال الله فانه يرى في الشر والمصائب جلاله عز وجل. وإذا لم يعر المرء طرفه لمعادلات التوازن في الوجود، ولم يدرك العدل الإلهي المطلق في جمال الخلق وجلاله، رجع طرفه حسيرا، كالذي يرى حندس الليل وحده، ولا يضعه جنبا إلى جنب مع

(١) قدوة العارفين صفحة ٥٤ تأليف عبد الرحمن حاتم.

ضوء النهار حتى تكتمل الحكمة الإلهية أمامه. ولو أجلت الطرف في عجائب خلق الله ومتناقضاته، وقرأت الحكمة الربانية فيها، لقضيت من خلقها عجبا. عينا كما حصل للرسول الأعظم ﷺ، كما ذكره الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾[1]، ولأصحاب الكهف من قبله، كما ذكره الحق تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾[2] إنها آيات لمن توسم، وشتان ما بين الثرى والثريا! وشتان ما بين المقام السفلي والمقامات العليا!

فالمصائب وشرور الأحداث عند العارف هي غير التي في نظر الناس، لأنه يرى فيها امتحان ربه الذي ينقله، بعد تجاوزها بالصبر والتوكل، من مقام إلى مقام أعلى، ويرتقي به في سلم الدرجات والمقامات إلى أعلى عليين. بل تزيده هذه الامتحانات والمشقات قربة إلى الله والالتصاق به، لانه يلتجأ إلى صمديته ودرعه الحصينة ولا ينفصل عنه قيد أنملة. أما ترى إلى موسى عليه السلام وهو تحت الاختبارات والامتحانات ملتصقا بربه قائلا له: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾[3].

أما نعم الله وخيراته التي لا تعد ولا تحصى فهي في نظر العرفاء جمال الحق، وأما المصائب والمشقات فهي في نظرهم جلاله عز وجل. فهم مستقرون في ملكوت الله يبصرون بدائع خلق الله وجماله المطلق، ويبصرون أيضا معالم الشديد القهار وهيبة جلاله، فهم قد نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء كما يقول مولانا الإمام علي عليه السلام. وقد ارتقوا عن مواضع الهلاك، فهي غير ضائرة بهم، وهم منها بمنجاة، وهم في حرز من متالف مكتنفة وأوار نيران موقدة. وقد عاشوا في وجه الحق سبحانه وتعالى، فهو المونس لهم حيث أوحشتهم العوالم، واستغنوا عن العوالم كلها ببقائهم في وجهه ومحياه الكريم. وهذا هو سر قول الإمام

---

(١) سورة الصافات الآية ١٢.

(٢) سورة الكهف الآية ٩.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٥٥.

علي ﷺ: «لا تزيدني كثرة الناس حولي عزا ولا تفرقهم عني ذلا». فهم قد اعتزوا بعز الله واستقروا في عز ملكوته وجبروته ولاهوته، وفي أنس مطلق مع الله، مستأنسين به في أنواره مستوحشين بالخلق في ظلماتهم. أما الناس فهم في عالم آخر يعيشون في الظلام وقد اختفى عن عيونهم كنه الأمور، يذهبون منها في أودية غير أوديتهم. فهم ضلال في حيرة، وحيارى في زلزال من الأمر، يحومون حوم الرياح في أمواج غيهبهم، ويتلاطمون تلاطم الماء بالرياح العاصفات، لا يستقون من نمير مائهم وصفاء غدرانهم، ولا يتناولون صافية الصهباء في كؤوسهم.

فهم مطلعون على الحقيقة كما هي كما قال الشاعر:

فبنوره نظروا إلى أحداثها ... ما أبصروا سراءها ضراها
فجلاله غطى سواد شرورها ... وجماله أبدى جلا سراها
سيان عندهم مصائب محنة ... ونعيم دنيا في كمال رفاها
نظروا بنور الله في ملكوته ... بصروا بدائع حسنه وبهاها
سيان عندهم عظائم أمرها ... وصغارها فالفانيات سداها
سيان عندهم تجمع خلقه ... من حولهم ونفورهم بجفاها
فاستأنسوا بالله في أنواره ... واستوحشوا بالخلق في ظلماها
والناس في ليل تعيش ظلامها ... والكنه كن عن العيون خفاها[1]

(١) كتاب «السموات السبع» للمؤلف صفحات ١٠٤-١٠٥.

الولاية والتوحيد حقيقة واحدة

يقول السيد علي ميرزا القاضي ـ أستاذ السيد حسن المسقطي ـ «إن الوصول إلى التوحيد ميسر عن طريق الولاية فقط. والولاية والتوحيد حقيقة واحدة »[1] ولقد قال العارف الكبير نجم الدين الملقب بـ «الطامة الكبرى» و«صانع الأولياء» الذي عاش في سمرقند في آسيا الوسطى وقتل شهيدا في حملة المغول إلى تلك الديار: «إن الشريعة كالبحر والطريقة كالسفينة والحقيقة كالدر في أعماق البحار. فمن طلب الدر ركب السفينة التي توصله إلى الدر». فكل من دخل الإسلام ونطق بالشهادتين والتزم بالشريعة وأحكامها كالصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها كان كمن دخل هذا البحر، ولا بد أن يكون هناك بحر حتى تجري الفلك فيها.

ثم إن القليلين منهم يريدون الدرة ويطلبونها، فلا بد لهم من سفينة تأخذهم إلى مكان هذا الدر، ولا بد للسفينة من قبطان ماهر يعرف أصول الملاحة ويعرف الجهة إلى مكان الدر. فالطريقة هي هذه السفينة، والأستاذ أو الولي المرشد أو شيخ الطريقة هو هذا القبطان. ولا بد من عمل منظم في هذه الرحلة أو ما يسمى بالسير والسلوك تحت رعاية وعناية قبطان السفينة، ولا بد من اتباع تعليمات القبطان خطوة خطوة لإنجاز هذه المهمة المقدسة، حتى يصل السالك إلى مكان الدرة وإلى الحصول عليها في النهاية.

---

(١) كتاب أسوة عارفان (باللغة الفارسية) صفحة ٩٩ تأليف محمود طيار مراغي وصادق حسن زاده نقلا عن «الروح المجرد» ص ٣٤٣.

وما ذكرناه هو من نوع ضرب الأمثال لتقريب الأشياء إلى الذهن، ولتوضيح طريقة عروج السالك إلى ربه. فلا بد في البداية من تحقق العبودية الصادقة في السالك، فإن الطلب وحده لا يكفي، وإن الإدعاء هو محض ضلالة، ولا بد من العمل المنظم والجد والاجتهاد والكدح حتى تتحقق عبودية الله في السالك. فلنتعلم من مولانا الحسين عليه السلام في دعاء عرفة حيث يقول: «وأقمني بصدق العبودية بين يديك».

والتخلص من عبودية النفس والهوى شيء شاق لا يتحقق إلا بشراب الأولياء الذي ذكره إمامنا علي عليه السلام في حديث الشراب. فإذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا أخلصوا، وإذا أخلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم.

والعبودية الحقة الصادقة هي حجر الأساس في العروج إلى الله. فإذا تحققت كانت كما ذكره إمامنا علي عليه السلام «العبودية جوهرة كنهها الربوبية». ولقد ذكرت تفاصيل هذه العبودية في رواية عنوان البصري عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في فصل خاص من هذا الكتاب تحت هذا العنوان، نورد مقتطفات منها:ـ

«قلت: يا أبا عبد الله! ما حقيقة العبودية؟!

قال: ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله ملكا، لأن العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به. ولا يدبر العبد لنفسه تدبيرا. وجملة اشتغاله فيما أمره تعالى به ونهاه عنه.

فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوله الله تعالى ملكا، هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالى أن ينفق فيه. وإذا فوض العبد تدبير نفسه على مدبره، هان عليه مصائب الدنيا. وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه، لا يتفرغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس».

وليس المال والمتاع وحده مما خول الله عبده، ثم يحسب العبد أنها ملكه، بل أيضا كل ما يخص نفسه من القوة البدنية والعافية والصحة

والسلامة، ثم يعتبرها العبد من مسلمات حياته، وبأنها من شطارته، ومن القوة العلمية والذهنية ويعتبرها من فهمه وذكائه، ومن حسن صورته وجمال هندامه ويعتبرها من حظوظه، ومن قوة حواسه وجوارح بدنه ويعتبرها من المسلمات. في حين أنه سهل على الله أن يأخذ منه كل ما خوله في طرفة عين، ولكن العبد غافل عن ذلك، ولا ينتبه ولا يستيقظ إلا عندما يفقدها. فكل ذلك ملك الله وحده، وما أعطي العبد ما أعطي إلا لامتحانه وليبلوه الله فيما آتاه.

أما عن تدبير العبد نفسه وعدم تفويض ذلك على مدبره فإنها غفلة أخرى من العبد، إذ يحسب التدبير من جهده واجتهاده. وإذا جد وسعى ولم يحصل له شيء أصابه الحزن، وإذا أصابته مصيبة صاح بالويل والثبور. وإذا حصل على الشيء أصابه الفرح والفخر، وغدا يباهي الناس بما حصله، ويعلن أن كل ذلك نتيجة جهده واجتهاده وعقله وذكائه. يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «إلهي خر لي في قضائك وبارك لي في قدرك». ويقول الإمام علي عليه السلام: «لا يذوق المؤمن حلاوة الإيمان إلا إذا تيقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطئه لم يكن ليصيبه».

وليت العبد اشتغل بما أمره الله ونهاه، وصرف وقته كله في خدمة الله، ولم يتفرغ منها للمراء والإدعاء والفخر والمباهاة مع الناس في شؤون دينه ودنياه. فالذي ينفعه في خلاصه وفلاحه هو الإخلاص والصدق مع الله، أما الرياء لإرضاء هواه، والمفاخرة أمام الناس، فإنها تضره في أمر دينه، وتبعده عن الله، وتجعله ينغمس أكثر وأكثر في ضلالته، والابتعاد عن الفلاح والخلاص.

يقول إمامنا الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «إلهي اجمعني عليك بخدمة توصلني إليك». فإذا خطرت له خاطرة ما بأن شيئا ما ملكه، أو أن ما حصله كان من تدبيره، أو أن ما أصابه كان من سوء حظه، فليستغفر الله حتى لا تبقى هذه الخواطر في نفسه طرفة عين، فإن الخواطر مضرة في أمر دينه، وفي أمر جمعه على الله بخدمته.

لقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا

﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾[1] وهذا العمل الشاق المستحيل لا يتيسر إلا بالولاية والحب وشراب الأولياء الذي ذكره مولانا الإمام عليه السلام في حديث الشراب. فالعبودية لا تتحقق إلا بهذا الشراب والحب والولاية، أما الولاية فهي مجمل القصة في عملية السير والسلوك، فمن دونها لا يتحقق التوحيد كما ذكره السيد علي القاضي. ولقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[2].

وقد ذكر الكليني رحمة الله عليه[3]: «قال أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام يا أبا حمزة! يخرج أحدكم فراسخ فيطلب لنفسه دليلا، وأنت بطرق السماء أجهل منك بطرق الأرض، فاطلب لنفسك دليلا». فالإنسان الذي يدرس العلوم التجريبية والنظرية المختلفة ـ أو علوم الظاهر ـ لا يستطيع ذلك بدون أستاذ ودليل، فكيف بعلوم الباطن أو علوم المحو، أو علوم السير والسلوك والرحلة المقدسة إلى الروح المجرد، حيث الطرق غير معروفة هناك إلا لولي مرشد.

فطرق الأرض على الرغم من وضوح آثار الأقدام فيها تتطلب دليلا، فكيف بطرق السماء التي هي أشبه ما تكون بطرق البحر حيث لا توجد آثار أقدام، فالدليل فيها ألزم وأوجب. إن من عادة الناس التمسك بالأستاذ والدليل في علوم الظاهر، ولكنهم في علوم الباطن يستغنون عن ذلك، ولا يعيرون مسألة الأستاذ والولي المرشد والشيخ أي اهتمام. بل أدهى من ذلك وأمر أنهم ينكرون وجوب الأستاذ في علوم السير والسلوك، ويجزمون بعدم لزومه.

فإذا وصل السالك إلى العبودية الحقة الصادقة، تأهل أن يعرج إلى الربوبية، تحت عناية ورعاية الولي المرشد. فلقد قال الله سبحانه وتعالى:

---

(١) سورة الانشقاق الآية ٦.

(٢) سورة الكهف الآية ١٦.

(٣) أصول الكافي الحديث رقم ٤٦٩ من كتاب الحجة.

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[1]. ولقد ذكرنا حديث إمامنا علي عليه السلام «العبودية جوهرة كنهها الربوبية»، فإذا كانت هذه الجوهرة هي المنطلق، فالوصول إلى الربوبية، وهي كنهها، شيء غير عسير بإذن الله، إذا تحققت على أجنحة الولاية والحب. فلقد كان السيد القاضي يأمر مريديه بهذا الدعاء ـ المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام في كتاب بحر المعارف ص ٣٠٩ ـ في قنوت صلاتهم: «إلهي ارزقني حبك، وحب ما تحبه، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني إلى حبك، واجعل حبك أحب الأشياء إلي»[2].

ألا تستحق هذه العلوم أن تستحوذ على اهتماماتك؟ فالحقيقة التي لا شك فيها ولا ريب هو ما ذكر عن السيد علي القاضي في قصة الحية[3]:

«وكان المرحوم القاضي يحدثني عن الأسرار والآيات الإلهية، وعن مقام التوحيد وجلاله وعظمته، والسير والسلوك في هذا الطريق، وأنه الهدف الوحيد لخلق الإنسان». فإذا اكتشفت ما هو الهدف الوحيد من خلقك، ألا يستحق أن تترك كل شيء في الدنيا، وتتمسك بهذا المعنى السامي، وتضحي بكل شيء من أجله ـ الغالي والرخيص ـ وأن لا تفوتك الفرصة الذهبية التي أنت فيها، قبل انقضاء العمر، وبهجة الصحة والعافية، والفهم والإدراك الصحيح.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام :ـ

ورب جوهر علم لو أبوح به   لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال المسلمين دمي   يظنون أشنع ما يأتونه حسنا

فالغالبية العظمى من المسلمين يبقون في بحر الشريعة، ويستسيغون كلام العروج إلى الله، والسلوك في خدمته، والسير من ماديتهم إلى هويتهم

---

(١) سورة الكهف الآية ١٧.

(٢) كتاب «أسوة عارفان» صفحة ٧٧ تأليف محمود طيار مراغي وصادق حسن زاده (باللغة الفارسية).

(٣) أسوة عارفان صفحة ٦٩.

المجردة، ولكنهم لا يكلفون أنفسهم «الكدح» الذي أمرهم الله تعالى به للوصول إلى لقاء الله. أما البعض الآخر فلا يستسيغون ذلك البتة، بل يكفرون أولئك الأطهار الأبرار، وربما أثاروا الناس عليهم واستحلوا دماءهم، كما ذكر الإمام زين العابدين ﷺ، وكما اقترفوها فعلا مع أبي منصور الحلاج وعين القضاة وغيرهم من العرفاء.

فلهذا لا يتأهلون للعبودية الحقة، ولرحلة السير والسلوك، وللطريقة والعروج والوصول إلى الله. فهذه الأشياء لا تتحقق بالكلام والظنون والرياء والإدعاء، وإنما هو عمل جاد ومستمر، كمن يعمل شيئا مما هو من أهم أولوياته، ومن عقيدته الجازمة بأن هذا العمل هو الهدف الأوحد من حياته وخلقه.

فكل خطوة من هذه الرحلة المقدسة لها مردود ونتيجة، تماما كما يحصل في الرجيم الغذائي الذي يتبعه الإنسان البدين لتخفيض وزنه، فهذا لا يتحقق بالإدعاء والكلام والرياء، ولكن انخفاض وزنه ـ على الميزان ـ والنتيجة الملموسة التي يحصل عليها، هو المؤشر على التقدم الحقيقي. كذلك في السير والسلوك، الولي المرشد هو الميزان، ولا يجوز أن تكل ذلك إلى هوى نفسك. فمثلا إذا رسمت خطوطا على الورق، فهل تستقيم هذه الخطوط من دون المسطرة؟ كذلك في هذه الرحلة في المجردات، الأستاذ هو المسطرة.

فلا بد أن تتبع الأستاذ في كل خطوة، وأن تحذو حذوه. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1]. فهذا الاتباع ليس بقراءة الكتب ـ التي هي لمجرد التشجيع والتحفيز وإنارة الفكر لا غير ـ وإنما هو كاتباع الظل لصاحبه. فلا بد من اتباع الأستاذ، وتلقي العلوم من الصدر إلى الصدر.

وإن ما يؤهلك في البداية هو أن تشعر بالحاجة الشديدة إلى الله،

(١) سورة آل عمران الآية ٣١.

وهذا لا يتأتى إلا بمناجاة الله والدعاء المستمر الملح المصر إليه، حتى يصل العبد إلى شيء ما. أما إذا كنت تحسب وتظن بأنك قادر على كل شيء، فتلك هي الضلالة بعينها، فالطريقة تستلزم التخلي عن كل هذا الإعجاب بالنفس والكبر والإدعاء، والإقرار بصدق وإخلاص بالعجز المطلق والفقر الكامل أمام الله. يقول الرسول الأعظم ﷺ: «الفقر فخري»، ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1].

فكيف تكون فقيرا إلى الله وأنت أسير الكبر والغطرسة، والشعور بالقدرة والعلم، والفخر بالمال والبنين ومتاع الدنيا وزينتها، وجميع ظنونك وادعاءاتك الأخرى، التي هي سراب لا غير. وإذا اكتشفت أن هذا كله محض سراب، ثم تخليت عنه بالتدريج، في أكبر تزكية وعملية تطهيرية، وصلت إلى الفقر. فبالفقر المطلق والعبودية الصادقة يمكن أن تبدأ رحلتك إلى رب العالمين.

ولكل ما ذكرناه آنفا، تعتبر الإمامة والولاية أصلا من أصول الدين. صحيح أن الشريعة تحفظ الإسلام، ولكنها وحدها ليست كافية لهداية الإنسان. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾[2]. فمن هذا البحر الزاخر يخرج أولئك الذين يبحثون عن الحقيقة، ثم يتمسكون بسفينة الولاية والإمامة حتى يصلوا إلى بغيتهم ومنتهى طريقهم وهو الله. وهذا ما يعنيه الإمام علي عليه السلام - في حديث الشراب - بالاتصال، حيث لا فرق بينهم وبين حبيبهم، وبالربوبية التي هي كنه جوهرة العبودية.

إن غيبة الحجة المنتظر عليه السلام لا تتناقض البتة مع طريقة السير والسلوك إلى الله، بل إنها تثريها إثراء، وتوفر لها من خفيات الكنوز والأسرار ما لا يعد ولا يحصى. وكان السيد القاضي يدأب في بداية منهجه في تربية

---

(١) سورة فاطر الآية ١٥.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٤.

السالكين بتدريس وتوضيح الأحاديث المتعلقة بغيبة الإمام المهدي عليه السلام وظهوره[1]. وكان هذا الشيء يلهب حماسهم للإقبال على الطريقة والسير والسلوك. فالحجة المنتظر عليه السلام هو وجه الله الذي إليه يتوجه الأولياء[2].

ولهذا كان السيد حسن المسقطي ـ وهو نتاج طريقة السير والسلوك إلى الله ـ يطمح في كل حياته إلى الالتقاء بالإمام الحجة عليه السلام. وأن أستاذه السيد القاضي (ره) كان يراه كل صباح عند استيقاظه من النوم، فلقد قال في جوابه على أحد مريديه: «عميت عين تستيقظ من النوم كل صباح ثم لا ترى إمام الزمان ـ عجل الله فرجه ـ من أول نظرة»[3]. ولم يتوقفا عند هذا الحد، بل أيضا أوصلا مريديهما إلى ملاقاة الحجة المنتظر عليه السلام.

---

(١) كتاب «أسوة عارفان» صفحة ١٧٢.

(٢) دعاء الندبة.

(٣) كتاب «أسوة عارفان» صفحة ١٠٩-١١٠ نقلا عن كتاب الروح المجرد.

رشيد ترابي وملاقاته مع الإمام الحجة بفضل سيد حسن المسقطي

وهذه رواية مشهورة روى لي الكثيرون عن الخطيب المعروف رشيد ترابي. قال بأنه كان على منبر في مدينة بومبي يخطب في الناس، ولما نزل من على المنبر وجد سيدا صاحب هيبة ووقار (وكان هو سيد حسن عندما كان في بومبي) يدعوه وعلى وجهه ابتسامة. فقال رشيد ترابي فأتيت إليه فقال لي: الآية الفلانية التي فسرتها كذا وكذا يجب أن تفسر كيت وكيت. فوجدت في كلامه ضالتي فاستمسكت به ولم أدعه منذ ذلك اليوم، فصار مرادي وبدأت أتتلمذ على يديه وأغرف من بحر حكمته .

وبعد تلمذة طويلة حدث في بعض الليالي في حوالى الثانية بعد منتصف الليل أن سمعت أحدا يطرق باب بيتي في تلك الساعة المتأخرة من الليل وفتحت الباب فوجدت لشدة عجبي السيد حسن على الباب. فسألته باستغراب عن سبب مجيئه في هذه الساعة المتأخرة من الليل. فقال لي ما عليك البس لباسك وتعال معي. ثم أخذني في شوارع بومبي وأزقتها حتى انتهى بي إلى غابات لم أكن أعرفها. فتمشينا طويلا حتى قاربنا الفجر ووصلنا من تلك الغابات إلى مبنى يشبه المسجد.

فجلسنا هناك وكنا ثلاثة إلى أن سمعنا الأذان، فسألت السيد حسن كيف أتوضأ؟ فجاء الرجل الثالث وصب الماء من إبريق فوجدت الماء عذبا فشربته وتوضأت منه ثم صليت. وبعد الصلاة لم أجد الرجل وعدنا إلى البيت، وفي طريق عودتنا سألني سيد حسن أتعرف من هو الرجل الذي

توضأت وشربت الماء من يديه؟ فقلت لا . . . فقال لي: يا رشيد ترابي إنه إمام العصر عليه الصلاة والسلام. فذهلت عن نفسي. . . ومنذ ذلك اليوم انطلق لساني بالحكمة وبذكر الله ولم يتوقف عن طلاقته كما تعرفونه جيدا.

الشيخ الآملي وملاقاته مع الإمام الحجة عليه السلام بفضل سيد علي القاضي

ويذكر العلامة السيد محمد حسن القاضي[1]: «ومما يذكر بهذه المناسبة عن الحجة آية الله الشيخ محمد تقي الآملي، العالم العابد الزاهد، صاحب المؤلفات القيمة الكثيرة (قدس سره) أنه ذكر لي في السنين التي كان مشغولا بتحصيل العلم في النجف الأشرف، ذهب يوما إلى غرفته (قدس سره) في مدرسة الهندي، وبعد مجيء (الآقا) ـ حسب تعبيره ـ قال له: إني انتظرتكم هنا كثيرا، لأني أحتاج إلى استخارة.

فأجابه (قدس سره): طالب علم يقضي سنين في النجف ولا يعرف أن يستخير لنفسه؟!

يقول الشيخ: فاستحييت كثيرا، وأجبته جدلا إنني بحاجة إلى تحصيل إجازة الاستخارة من الولي الأكبر، ملمحا بهذا الكلام إلى طلبي السابق والمكرر منه للتشرف.

فأجاب: إن الإذن العام الذي صدر لمواليهم يكفينا جميعا ولا حاجة إلى كسب إجازة خاصة.

وعلى أي حال، وبعد الإلحاح الشديد، علمني الورد الخاص عنده لهذا الغرض، ويتلخص في قراءة (آية النور) بعدد أصحاب بدر كل ليلة قبل النوم بشروط الطهارة، والاجتناب من النساء، وأمور أخرى ليالي معدودة ومحدودة.

(١) في كتابه «صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف» صفحة ٢١١-٢١٢.

فذهبت إلى مسجد السهلة، ولزمت الجامع، وقمت بوردي ليالي. . . وفي إحدى هذه الليالي من حين بدأت وردي. . . أحسست كأن أحدا يضع يده على كتفي. . . فتوجهت نحوه ـ وأنا حينذاك في المقام المنسوب للإمام المهدي عليه السلام ـ فقال: استعد للتشرف.

يقول الشيخ. . . وما أن طرقت سمعي هذه الكلمة إلا واستولى الرعب والخوف علي وأخذ بمجامع قلبي. . . وكدت من فرط الاضطراب أن اخرج من إهابي. . . فأخذت أتوسل منه أن يعفيني. . . وهكذا كان القبول.

فذهبت من فوري إلى النجف الأشرف ولقيت (الآقا). . . فجابهني ـ قبل أي حديث ـ بقوله إذا لم تكن مستعدا فلماذا كل ذلك الإلحاح ...

فما تفسير ذلك الإلحاح. . . وهذا الرعب؟!! ».

وينقل عبد الرحمن حاتم[1]: «ويقول السيد علي القاضي: من المسلم أن بعض الأشخاص في عصرنا قد تشرفوا برؤية الحجة المنتظر عليه السلام، ومن هؤلاء شخص كان يدعو الله سبحانه ويذكره في مسجد السهلة في المقام المعروف بمقام صاحب الزمان، وفجأة رأى الإمام المهدي عليه السلام يقترب إليه في وسط هالة قوية جدا من النور، فأخذته عظمة وأبهة ذلك النور إلى درجة كادت روحه تفارق بدنه لولا أن يقسم على الإمام بأسماء الله الجلالية ألا يقترب منه أكثر.

وعندما كان نفس هذا الشخص بعد أسبوعين في مسجد الكوفة مشغولا بذكر الله سبحانه ظهر له صاحب الأمر عليه السلام، فتشرف بلقياه.

ويقول السيد القاضي: وهذا الشخص كان هو الشيخ محمد تقي الآملي. ويقول العلامة الطهراني: كان المرحوم الشيخ محمد تقي الآملي من علماء طهران البارزين، وكان من علماء الطراز الأول في الفقه

(١) في كتابه «قدوة العارفين» صفحة ٦٧-٦٨.

والأخلاق والمعارف الإلهية، درس الفقه والفلسفة ومنظومة السبزواري والأسفار الأربعة.

وكانت له مع والدي سوابق علمية منذ بدء دراسته للعلوم الدينية. وله مؤلفات منها حاشية مصباح الهدى في شرح العروة الوثقى في الفقه وحاشية وشرح منظومة السبزواري في الفلسفة. ولقد أدركته والتقيت معه مرارا، وكان مؤدبا جدا وطيب القلب ومبتعدا عن الهوى، ولم يتصد للإفتاء إلى آخر عمره. وكان قد تتلمذ في بدء دراسته في النجف على السيد القاضي في العرفان.

ملاقاة سيد حسن المسقطي مع صاحب الزمان عجل الله فرجه

سألت يوما والدي المرحوم السيد حسين العالم: أين هو الإمام الحجة وهل يراه أحد؟ فقال لي نعم، الإمام الحجةﷺ حاضر وتزوره الخاصة من الناس وعددهم ١٧ نفر من الخاصة. فسألت والدي هل زرته أنت، فقال لي لم أزره ولكن عمك المرحوم السيد حسن كان يزوره وكان يراه.

وأيضا سمعت والدي وأنا حينذاك طفل صغير وهو يتكلم إلى بعض أصحابه بأن سيد حسن عندما كان يحتضر في مستشفى في حيدراباد دكن كان سيد صادق بجانبه... وروى سيد صادق بنفسه للمرحوم والدي السيد حسين بأن سيد حسن في حالة احتضاره وفي سكرات الموت تكلم إليه قائلا: يا سيد صادق ما أروع المكان الذي أنا فيه... إنها حديقة غناء واسعة وجميلة. فقال له سيد صادق: يا سيدنا إن هذا المكان مستشفى. فقال كلا إنه مكان جميل جميل جدا... وبعد ذلك لفظ أنفاسه الأخيرة رضوان الله عليه.

وتأكيدا لهذه الحادثة، ومن دون أن أخبره بما سمعت عن والدي، قال لي سماحة السيد محمد حسن القاضي ـ أدام الله أيام بركاته_ ابن المرحوم القاضي أعلى الله درجته: «إن عمك السيد حسن قريب جدا من صاحب الزمانﷺ وإنه انتقل إلى مكان خصه له الإمام روحي له الفداء».

فالعارف في حياته في رحلة مقدسة على أجنحة الجبروت إلى عوالم اللاهوت. أما روحه فهي نسخة من اللاهوت، وصورته نسخة من الملك

والملكوت، وقلبه خزانة الحي الذي لا يموت. فقد بسقت فيه شجرة الولاية، وأصبح الحي القيوم يتجلى في كل جوارحه... في بصره وسماعه ولامسته وشامته، ولسانه وجلده وشعره وبشرته، ولحمه ودمه وجبهته وصورته، وشحمه وعظامه وأعصابه وعضلاته. وهو التجسد للأسماء الحسنى، ولكنه عند نفسه وأمام ربه الفقير الذليل الساجد الراكع لله، يطلب منه الرحمة في حاجة صادقة مدقعة إلى رحمة الحق تعالى، وترتعد فرائصه في حضوره في حمد وشكر أمام فيوض هداه. وبعد مماته ترتقي روحه المقدسة، التي تشبعت في نشأة الحياة الدنيا بهذه الملكات والمقامات، إلى القرب والزلفى وعرش اللاهوت. وفي خلال هذه الرحلة المقدسة صرفت نحوه أفئدة الملائكة الكرام، وثنيت إليه أزمة أبصارهم. وصارت الجنان تزدلف إليه، وكذلك الأرائك والحرير وسندس وإستبرق. وغدت العذارى تتهافت في غيطان أوديته، وتترامى غنجا ودلالا في ظلالها الوارفة، طمعا في اختلاس غرة من الحظوة لديه. وبدأت الحور الحسان تمرغ وجوهها على أعتابه، طمعا في استلاب نظرته وبسمته، مستدنية قلبه متوددة إليه، وراكنة إلى وصاله أملا وطمعا.

وكأن الشاعر يصف لسان حاله وهو يرى في وقت احتضاره حديقة غناء واسعة وجميلة، ويصف رحلته إلى الملكوت الأعلى:

وإذا الملائكة الكرام تجهزت	وتزينت للقاء عطر صباها
وإذا السماء تفتحت أبوابها	وردت إلى عليائها أبناها
وإذا الجنان تزينت وتعطرت	للقاء عبد همها مولاها
وإذا برضوان بدا متبسما	فرحا سعيدا في لقاء فتاها
وإذا الملائكة الكرام بعرشه	قد رحبوا بفتى عهود وفاها
وإذا الأرائك في الجنان تجهزت	لقدوم ضيف طعامها وقراها
ولمقدم الضيف الذي ما همه	يوما سوى جبروت رب وراها
وإذا الحرير وسندس إستبرق	غطت سرادق عزها بزهاها
تهفو ملائكة الجنان لواله	فلطالما سمعوا بسقم ضناها
ولطالما سمعوا بعبد واله	ترك الأنام وكل ما هو سواها

علقت أياديه بحجزة ربه مستمسكين بعروة وثقاها
عشقتهم فردوس رب رازق وملائك في خلدها تتراها
وتلقت الحور الحسان مليحها في حسن يوسف وجهها وحياها
فتعجب العبد الذليل بما رأى من عزة ووجاهة بسماها
لكنه ما هم إذ هم الشوا ب وأجرها في جنة وجزاها
بل كان ينشد هو وهو في عرشه قد جن من وله له وهواها
فهو انجلى في قلبه متجليا ويضم قعر فؤاده ومناها
وهو انجلى في عينه ولسانه وسماعه وجلوده وجباها
وهو انجلى في كل شامة حسه ويشم عطر أريجه رياها
وهو انجلى في لحمه وعظامه أعصابه عضلاته ودماها
وهو انجلى في فكره متجليا والفكر ولى مدبرا بعماها
عجبت ملائكة الجنان لحاله وعظيم أمر مقامه ولجاها
قالوا لقد سلم الفتى من شهوة سلموا من الدنيا ومن أخراها
قالوا لثنا طين نعلي رجله ونروم دوما بوس رجل فتاها
فاستعظموا أمر الغلام وقدره وغدوا يرشون الفتى بشراها
وتناقلته ملائك من فوقها ملك إلى ملك لفي أعلاها
حتى تناهى الأمر عند ملائك حملوا سرادق عرشه بعلاها
فتهللوا واستبشروا بقدومه وهفت إلى مرأى الفتى عيناها
قالوا مكين من لدن قهارنا قدموا إلى عرش العلا بولاها
قالوا فتى من عهد عالم ذرة عرفوا ملامح وجهه وإياها
قالوا عرفنا نوره ووهيجه أسنت على أزل الزمان سناها
عرفوا الصبابة في صحيفة روحه عرفوا الطهارة في أريج شذاها
لمحوا ملامح عشق عبد واله في صورة الروح العظيم تقاها
لمحوا بياض طهارة في عشقه حب لوجه الله من عذراها
قالوا نرى روح الفقير حقيقة في صدق مظهرها بدون رياها
فكأنما أسماؤه في روحه وكأنما روح الفتى أسماها
أسماؤه الحسنى بدت في روحه والروح في جبروتها جلاها

فأتاهم أمر الحضور لعبده ... في قاب قوسي سهم أو أدناها
فتعانقته أشعة الرحمة كما ... قد عانقت طفل الصبا أماها
فتهاطلت أنواره من فوقها ... والقدس انهمرت سيول سماها
وغدا يصب اللطف من ميزابها ... تفجرت ألوانها بزهاها
وغدت تلاطفه لسان محبة ... وكلام من ملأ الورى رحماها
فتغمضت عيناه من روع الرؤى ... والقلب منه تصدعت أرجاها
فغدت جبال وجوده مندكة ... يا روع من دك ومن دكاها
خشعت قلوب وانمحت أعيانها ... خفضوا جناح الذل في نجواها
وتصدعت سيقان عبد ذائب ... جلسوا بذل سجودها وصلاها
أصغوا إلى باريهم في ذلة ... وتخشع وتضرع ببكاها
قالوا سلمت من المخافة والرجا ... سلم الفتى من خوفها ورجاها
فلم البكا يا عبدنا بحضورنا ... ولم الفرائص في ارتعاد مهاها
قال الفقير بذلة يا سيدي ... عبد شكور في فيوض هداها[1]

وذكر السيد محمد حسن [2] عن السيد حسن وشوقه العظيم إلى لقاء الإمام المهدي عليه السلام ـ عجل الله فرجه وسهل مخرجه ـ وعن بشارة أستاذه له بهذا اللقاء ضمن أشعار رائعة ردا على رسالته فيقول: «وقوله: وبشرت ميعاد اللقا... يجري الحديث عنه بشيء من التفصيل... لقاء من يا ترى! يجوز أنه يقصد التشرف... ويجوز أن يكون يشير إلى أمر هام آخر قد خفي سره علينا.

أما التشرف فطالما طلبه غير واحد من الأعلام... والذي أرسل إليه هذه الأبيات جوابا على رسالته هو السيد حسن الأصفهاني والمعروف عندهم بـ (المسقطي)، والذي ذهب بأمر من آية الله العظمى السيد أبو الحسن الأصفهاني (قدس سره) إلى مسقط عمان للتبليغ، وتبودلت بينه وبين أستاذه في السلوك رسائل عديدة، وكانت بينهما مودة عظيمة.

---

(١) كتاب «السموات السبع» للمؤلف صفحات ١٢١ إلى ١٢٦.

(٢) في كتابه «صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف» صفحة ٢١٠-٢١١.

ورأيت نسخ أكثر هذه الرسائل عند آية الله الحجة الشيخ عباس القوجاني (قدس سره)، وقد بخل بها علينا، عدا أشياء يسيرة ستذكر بالمناسبة.

ويظهر أن هذا (السيد حسن) كان يتشوق كثيرا للتشرف ...حتى اتفق له ما اتفق ...

أما السر في هذا التشوق ...مع أن الغالبية من أبناء الشيعة الإمامية يتحسرون ويتشوقون. . . إلا أن البعض قد يذهب إلى أبعد المدى، ويهون على نفسه في هذا الهدف أصعب السبل وأشقها.

قلت. . . السر في هذا التشوق العظيم يكمن في مدى معرفتهم، ومبلغ استعدادهم الذاتي لدرك كثير من القضايا الهامة، التي ترجع مآلا إلى الإمامة والولاية. . . وهم يحسبون أنهم بهذا اللقاء سوف تحل عقد المشاكل الموجودة في نفوسهم، ويرفع الستار عن كثير من الحقائق، ويتضح لهم وضوح الشمس، وبذلك يصلون إلى المراتب العالية من اليقين والاطمئنان الذي هو غاية التقوى والمتقين».

ونقدم إليكم بعضا من هذه الأبيات التي كتبها السيد علي القاضي (قدس سره) إلى السيد حسن المسقطي :ـ

وبشرت ميعاد اللقا طاب عرفه	وطيب لي روحا وعطرا منشقا
ولا غرو أن أعطاك تاج كرامة	وترفع ما بين الموالين بيدقا
فهياك إنسانا بأحسن صورة	وعلمه منه البيان فأنطقا
وأرجو لك الفضل العظيم بفضلهم	فأوف بوعد الصادقين وأصدقا
فإن ولي الأمر والغائب الذي	تشوق قلبي نحوه وتعشقا
إذا شرف الدنيا بنور ظهوره	سيعرف بالقرآن والعلم والتقى

وأيضا انتقلت رسائل القاضي إلى المسقطي ـ بعد وفاته ـ إلى تلميذ ومريد السيد حسن وهو الحاج محمد خميس، وانتقلت بعد وفاته إلى إخوانه علي وموسى وأنور، وتتبعت القضية معهم ولكن بدون جدوى، ويظهر أن الملف الذي كان يحوي هذه الرسائل قد ضاع.

هكذا تكون عبادة العرفاء

المعروف أن أعلى أنواع العبادة هو التفكر في ملكوت الله سبحانه وتعالى. فلقد كان الصحابي الكبير أبو ذر الغفاري ـ رضوان الله عليه ـ يمضي أكثر وقته في عبادة «التفكر»، فلقد كان أكثر عبادته التفكر. ولقد قال الرسول الأعظمﷺ: «تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة». وكان أكثر عبادة رسول اللهﷺ في غار حرا التفكر والتأمل في ملكوت الله جل وعلا، وكذلك كان موسى(ع) وعيسى(ع) وسائر الأنبياء والرسل.

والذين يعتبرون التأملات العرفانية ثقافة هندوسية أو بوذية وغيرها ـ استوردت من الفلسفة الهندية القديمة ـ مخطئون، ولا يعرفون عمق الثراء والسمو في الدين الإسلامي. ولقد قال الرسول الأعظمﷺ: «جذبة من جذبات الرحمن تعادل عبادة الثقلين». وهل يظهر الكشف، وتسطع التجليات الغيبية في العرفاء والأولياء، إلا نتيجة لهذا التفكر والتأمل، والفناء عن النفس، والجذبات الرحمانية التي يتكرم الله بها عليهم؟

ولقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]. وإذا كان الهدف من خلق الجن والإنس هو العبادة، فالذي ذكرناه آنفا من كلام السيد علي القاضي (ره) في واقعة الحية :

«وكان المرحوم القاضي رحمة الله عليه يتحدث بكل حرارة عن الأسرار والآيات الإلهية، وعن مقام التوحيد وجلاله وعظمته، وعن السير والسلوك في هذا الطريق، وأنه الهدف الوحيد لخلق الإنسان، وكان يقيم البراهين على ذلك».

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦.

يظهر لنا بجلاء أن مقام التوحيد وجلاله وعظمته وعن السير والسلوك في هذا الطريق هو العبادة بعينها، التي خلقنا الله من أجلها. وإذا يسر الله على يدينا هداية إنسان ما إلى «التوجه المطلق والانقطاع التام إلى الله»، الذي هو موضوع هذا الكتاب، فهو خير من الدنيا وما فيها، أو خير من حمر النعم، كما أوصى به الرسول الأعظمﷺ إلى وصيه علي بن أبي طالب: «أن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها» أو في رواية أخرى: خير لك من حمر النعم.

فالعبادة هي طريقة السير والسلوك، أو العرفان العملي، التي توصلك إلى مقام الروح المجرد، الذي هو التوحيد بعظمته وجلاله، أو هو الاتصال مع الله الذي ذكره حديث الشراب، أو هو الربوبية التي ذكرها حديث الجوهرة عن الإمام عليعليه السلام: «العبودية جوهرة كنهها الربوبية».

فالصلاة هي العبادة إذا كانت بحضور القلب، كما قال الرسول الأعظمﷺ: «لا صلاة إلا بحضور القلب». وهذه الصلاة التي تتم بحضور القلب ـ فريضة كانت أم نافلة ـ تؤدي في نهايتها إلى الصلاة الدائمة، وخشوع القلب المستمر، وحضور الله الدائم في قلب العارف، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[1].

والفرائض والنوافل هي رياضات مستمرة للوصول إلى هذه الحالة الدائمة الباقية المستقرة القائمة، وهو مقام حضور الله الدائم في قلب العارف، حتى يصير حبيب الله وينال منزلة حبه سبحانه وتعالى، ويكون بصره الذي يبصر به، وسمعه الذي يسمع به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يسعى بها، فبالله يبصر، وبه يسمع، وبه ينطق، وبه يبطش، وبه يسعى، ويستعين بالله فيعينه، ويدعو الله فيجيبه.

فلقد قال الله في حديثه القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل، حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت بصره الذي يبصر به، وسمعه الذي

(١) سورة المعارج الآية ٢٣.

يسمع به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يسعى بها، فبي يبصر وبي يسمع وبي ينطق وبي يبطش وبي يسعى، وإن استعانني أعنته، وإن دعاني أجبته».

وبحر الشريعة الزاخر، والأحكام المحمدية الغراء تسع كل الاستعدادات والضرورات عند المسلمين، من الصلاة والصيام والحج والزكاة وما إليها، ومن مختلف الأدعية والأذكار التي ورثناها من الأئمة الأطهار والأولياء الصالحين، ومن مجالس الوعظ والإرشاد التي ألفناها من الطفولة. فمن خلال هذه البيئة الطيبة، والطقوس والتقاليد المقدسة، تتغذى النفوس من كلام الصالحين، وتغرف القلوب من حكمتهم، وتستعد الأرواح المستحقة للعروج بمدد أنفاسهم المعطرة.

فالشريعة هي طريق الوصول إلى الحقائق العرفانية والتوحيدية، كما يقول السيد القاضي[1] ـ رحمة الله عليه ـ والصلاة عماد الدين ومعراج المؤمن، والصوم درع الله الذي يصون المؤمن من نفسه، والزكاة تزكية للنفوس، والحج عالم مصغر من يوم المحشر، الذي تتساوى فيه الأغنياء والفقراء، والملوك والرعية، في لباسهم وأعمالهم وذكر التلبية على لسانهم، ويتهيأ فيه المؤمن ليوم حسابه ومراقبة أعماله في ميزان المعاد ـ كل مسلم حسب استعداده ومواهبه وضروراته.

وكان المرحوم آية الله الحاج الشيخ عباس قوجاني ـ وصي المرحوم القاضي ومن مريديه البارزين ـ يقول:ـ

كان السيد القاضي يعطيني أورادا عجيبة تختلف كثيرا عما كان يعطيه للآخرين، وأغلب الأحيان كان يعطيني الأربعين بعد الأربعين، والأربعين في الأربعين.

وكان المرحوم القاضي يعطي تعليماته للسالكين، كل حسب استعداداته وضروراته الباطنية. فلقد كان يعطي بعضهم كثيرا من أوراد الذكر

---

(١) أسوة عارفان صفحة ١٠٧ نقلا عن كتاب الروح المجرد.

والأربعينيات، وللبعض الآخر تعاليم خاصة في التفكر والمراقبة[1].

يقول آية الله السيد عبد الكريم الموسوي الأردبيلي: «لقد كان الشيخ محمد رضا آل ياسين، وهو من أعاظم علماء النجف، ينقل إلينا بأنه كانت للمرحوم السيد علي القاضي جلسات متعددة على درجات مختلفة ـ على أساس الحالات والمقامات للسالكين ـ يمكن أن نسميها: «المجلس العام» و «المجلس الخاص» و «مجلس خاص الخاص» و «مجلس أهل الخاص» وغيرها.

وفي يوم من الأيام ذهب الشيخ محمد رضا آل ياسين إلى إحدى جلسات «المجلس الخاص». يقول: «عندما خرجت من منزله، وضعت عباءتي على رأسي ووجهي، وكنت لا أملك انهمار دموعي من أجفاني، ولا أتمالك نفسي عن البكاء والنحيب. وكنت أكره أن أنظر إلى أحد أو إلى أي مكان. وعلى أثر الانقطاع المؤقت عن عوالم الدنيا، كنت لا أطيق البقاء في الدنيا والعيش مع الناس. وأتحسر بأنني لم أستطع بعدها أن أحضر هذه المجالس النورانية»[2].

وإذا تيسر لك العروج إلى الهدف النهائي من خلقك، وهو التوجه القلبي الدائم الكامل إلى الله والانقطاع المستمر التام إليه، وإذا جمعك الله عليه بخدمة توصلك إليه، فهي العبادة العظمى. قال الإمام الحسين عليه السلام ـ روحي له الفداء ـ في دعاء عرفة: «إلهي اجمعني عليك بخدمة توصلني إليك».

هكذا هي عبادة العارفين، يرجعون إلى النسك من بعد الهتك، ومن خلاعة البسط إلى عفة الانقباض، ومن مفهوم «كسر العادة عبادة» إلى عادة الصلاة والنوافل، ومن حال التفويض الكامل إلى أحوال الإرادة. فلقد قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[3]. وليس معنى هذا أنك إذا وصلت إلى اليقين فلا تعبد ربك. حاشا الواصل من ذلك! ولكن معناه

---

(١) أسوة عارفان صفحة ١٦٣.

(٢) أسوة عارفان صفحة ١٦٨-١٦٩.

(٣) سورة الحجر الآية ٩٩.

يتقارب من قولنا: «كل حتى تشبع»، فبعد الشبع الأكل، وبعد الأكل الشبع، وهكذا دواليك. فكذلك اليقين يأتي بعد العبادة، والعبادة تأتي بعد اليقين، ولكن أين «العبادة قبل اليقين» من «العبادة بعد اليقين»، وأين الثرى من الثريا!

مقال الرسول الأعظمﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على النجوم». وهكذا فضل العارف على الناسك ـ بظاهر أعماله، وإن كانت نفسه زكية. فأين العبادة التي تنبع من اليقين ومن جبروت العقل والفهم والعرفان من العبادة التي هي عمل تعبدي تقليدي محض! فلقد قال الإمام علي عليه السلام: «عبادة بلا فقه كحمار الطاحونة».

وما رجعة العارف إلى الشريعة، إلا إسراء سره عن اللاهوت، وخصوص حقيقته، وحقيقة حياته، وروحه المجرد، وهويته الإنسانية المجردة، عبر رحلته خلال جبروت العقل والعرفان، وملكوت البرازخ اللطيفة التي تفصل الروح عن الجسم المادي الثقيل، ومنها الهالة والمغناطيس البشري. هذه رحلة الرجعة من اللاهوت إلى عالم موجوديته، وأحوال إرادته، في عالم الشريعة الغراء والأحكام المحمدية السامية.

قال الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾[1]. ويبين سنا الفجر، ويصل العارف إلى ما تعجز العقول عن دركه، والأفهام عن كنه صفته، وهي الاتصال الذي ذكره الإمام عليه السلام في حديث الشراب، حيث لا فرق بينه وبين حبيبه. وعند بلوغه الروح المجرد الخالد الباقي، يسفر بشرا لرجعته إلى هويته الخالدة الباقية، من الهوية الفانية الهالكة. لقد قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[2].

(١) سورة القدر الآيتان ٤ ـ ٥.

(٢) سورة الرحمن الآيتان ٢٦-٢٧.

وتتم هذه الرحلة من علم اليقين إلى عين اليقين وأخيرا إلى حق اليقين. وأثناء تلك العبادة، تكشف أستار لبس الحس، ويتحقق محو الحس الظاهري في الحس الباطني، وتتوقف الحواس الخمسة عن عملها، وتستيقظ الحواس الباطنية، ويستقر العارف في أعماق قلبه فيفقه بها، وفي أعين بصيرته فيبصر بها، وفي آذان روحه فيسمع بها. فهذه الحواس الباطنية موجودة في الإنسان، ولكن أكثر الناس عنها غافلون. ولقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

ويصير باطنه جلا مرآة ذاته، وينزاح صدأ الصفات من وجوده، كما يزول الصدأ عن الذهب والفضة، وينتقل من مقام التجلي الصفاتي إلى مقام التجلي الذاتي، وهناك يعانق هويته الخالدة الباقية. وفي وحدة الذات ووحدة الوجود تبدأ نزهة الجذبة الرحمانية: «سبحاني! ما أعظم شأني!» كما يقول البسطامي. وتبدأ الجذبة منزهة عن شرك الحس، فكله لسان رباني محدث، وكله عين بصيرة، وكله سمع كليمي يسمع به في وجوده نداء الحق: «أنا الحق! أنا الحق!» كما يقول الحلاج.

وقد تنزه عن الردى، ودخل الحيوان: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[2]. فيستعرض الآفاق بخطرة، ويخترق السبع الطباق بخطوة، ويتنزه في آثار صنعته، وهو في جمعه وإلفته، منزها عن الأغيار، لا يشرك بربه أحدا. ولولا حجاب الكون لقال وقال من دون توقف، مغنيا بنزهته في السموات السبع، واصفا عبادة الثقلين الحاضرة عنده في جذبة من جذباته الرحمانية، ولكن الذي يسكته هو قيامه بأحكام المظاهر.

ولله در الشاعر يذكر كيف تكون عبادة العارف الرباني:

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٨.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٦٤.

رجعت لأعمال العبادة عادة — وأعددت أحوال الإرادة عدتي

وعدت بنسكي بعد هتكي وعدت من — خلاعة بسطي لانقباض بعفة

وفز بالعلى وافخر على ناسك علا — بظاهر أعمال ونفس تزكت

وإسراء سري عن خصوص حقيقة — إلي كسيري في عموم الشريعة

إلى أن بدا مني لعيني بارق — وبان سنى فجري وبانت دجنتي

هناك إلى ما أحجم العقل دونه — وصلت وبي مني اتصالي ووصلتي

فأسفرت بشرا إذ بلغت إلي عن — يقين يقيني شد رحل لسفرتي

وأستار لبس الحس لما كشفتها — وكانت لها أسرار حكمي أرخت

وكنت جلا مرآة ذاتي من صدا — صفاتي ومني أحدقت بأشعة

وعانقتني لا بالتزام جوارحي — الجوانح لكنني اعتنقت هويتي

وعن شرك وصف الحس كلي منزه — وفي وقد وحدت ذاتي نزهتي

فلفظ وكلي بي لسان محدث — لحظ وكلي في عين لعبرتي

وسمع وكلي بالندى أسمع الندا — وكلي في رد الردى يد قوة

وأستعرض الآفاق نحوي بخطرة — وأخترق السبع الطباق بخطوة

تنزهت في آثار صنعي منزها — عن الشرك بالأغيار جمعي وألفتي

ولولا حجاب الكون قلت وإنما — قيامي بأحكام المظاهر مسكتي[1]

---

(١) التائية الكبرى المسماة بنظم السلوك لابن الفارض.

أسلوب سيد علي القاضي في تربية السالكين

يذكر العلامة السيد محمد حسن القاضي [1] ملخصا من أسلوب السيد علي القاضي في تربية السالكين:ـ

أولاً: انه (قدس سره) يثير فيمن يتوسم فيه القابلية والاستعداد لتقبل المسائل العرفانية العالية، يجد به ويثير كرامته بكلمة إرشادية، كما كان شأنه مع العلامة الطباطبائي (قدس سره)، فقد نقل عن العلامة انه كان يقول:

عندما تشرفنا بالنجف الأشرف كنا نحترم السيد القاضي ونجله، كرجل عالم من كبار العائلة، له سيادته ومنزلته في نفوسنا... ثم اتفق أن لقيته مرة في إحدى الأزقة، فنظر في وجهي مليا، ووضع يده على كتفي وقال لي: أي ولدي عليك بصلاة الليل... إن كنت تريد الآخرة... أو الدنيا... فكأن هذه الكلمة جرت في عروقي مجرى الدم... وفجأة رأيتني أنصرف إليه بكل وجودي.

وكذا مع الشيخ محمد تقي الآملي (رضوان الله عليه) فقد ذكر هذا: كنت أحضر (مباحثة) الفقه عند السيد القاضي، واتفق أن سألته يوما ـ وكان الجو باردا ـ نقرأ ونسمع عن الآخرين إنهم حين قراءة القرآن الكريم تتفتح أمامهم الآفاق وتتجلى لهم الغيوب والأسرار... ونحن نقرأ ولا أثر... ولا أي شيء؟! فنظر في وجهي قليلا، ثم قال:

---

(١) في كتابه «صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف» صفحات ٢٤٥ -٢٤٩.

نعم، إنهم يتلون القرآن الكريم وبشرائط خاصة، يقفون على أرجلهم باتجاه القبلة، حاسري الرأس، رافعين كلام الله بكلتي يديهم، ومتوجهين بكل وجودهم إلى ما يتلون. . . وأمام من! أما أنت تقرأ القرآن وقد دخلت تحت (الكرسي) إلى ذقنك، ووضعت القرآن على الأرض تنظر فيه. . . كذا؟!

قال الشيخ: نعم، كنت هكذا أقرأ القرآن وأكثر من القراءة ...فكأنه (قدس سره) كان معي يراقبني وقت القراءة. . . ومنذ ذلك اليوم انصرفت بكل وجودي نحوه والتزمت مجلسه.

قلت. . . يثير كوامن نفسه بكلمة إرشادية، ويضعه على الطريق السوي الذي يريده له ـ إن صح هذا التعبير ـ فإن هذه الكلمة تكون بمثابة هزة عنيفة في أوتار قلب السامع، تدفعه إلى الطريق، وتبدع فيه التهيؤ النفسي والوجداني.

ولا يفوتني بهذه المناسبة رأي أستاذي الكريم الشيخ محمد نجل آية الله العظمى شيخ الشريعة الاصفهاني. . . فإنه كان يؤيد هذا الرأي من السيد القاضي ويضيف: إنه يترك صاحبه دون أن يلتزمه ويتعهده في مسيرته الأخيرة، ليشقوا هم بأنفسهم طريقهم الذي يختارونه، وكان يقول باللهجة النجفية العامية: يخربط أحواله ويعوفه.

وكان يؤيده في هذا الرأي الشيخ محمد رضا المظفر، ويعلل ذلك بكثرة مراجعيه، وعدم وجود متسع من الوقت لديه ليراقب تلاميذه ويأخذ بأيديهم في متاهات الطريق ومنعطفاته.

ثانياً: عندما يستقبل الأستاذ صديقه الجديد ـ على حد تعبيره ـ يضع أمامه خلاصة إرشاداته وتعاليمه في المرحلة الأولى، وهذه تتلخص في القيام بالوظائف على أحسن وجه وأفضل صورة، وهذه هي التي يلتزم بها الجميع كوظائف دينية فحسب، ويصح أن يقال عنها قشور بلا لباب، ولا التفات إلى آثارها النفسية والخلقية والسلوكية.

فأين معنى الصلاة؟! وهي كالحمة تكون على باب الرجل يغتسل بها كل يوم وليلة خمس مرات.

وما معنى «الصوم لي وأنا أجزي به»؟! وهكذا بقية الوظائف.

ولعل الصلاة لدى العامة نقر كنقر الغراب، وليس لنا من الصوم إلا الجوع والعطش، ونحو «رب تال للقرآن والقرآن يلعنه». والصديق الجديد يطلب منه أن يدرك معاني هذه العبادات والوظائف الشرعية بصورة عامة، ويلمس آثارها الإيجابية في نفسه وسلوكه... هذه الآثار التي ملئت بها كتب الأخلاق، والمشروحة من لدن العلماء الأعلام والفقهاء الكرام.

ثالثاً: المراقبة، والتهيؤ لتلقي الفيوضات الربانية، والنفحات الروحية، كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «ألا وإن في ساعات ليلكم ونهاركم نفحات... فترقبوها».

والتهيؤ لقبول هذه النفحات أو تلقيها لا يكون من لدن الغافل والساهي بل هو للمتهيئ المستعد والمرتقب المنتظر.

بعد التعشق بالعشق الجذوب له ‏ ‏ ‏ مع التهيؤ أزمانا كمرتقب

رابعاً: وهي المرحلة الأخيرة والتي لخصها هو (قدس سره) بقوله:ـ

«وبعد التفرغ من الأعمال البدنية، من الصلاة والصوم والحج والخمس وأشباهها، يبدأ العمل بالعوالم القلبية الاختيارية: مثل ١ ـ ترك الإرادة بقدر المستطاع ٢ ـ والحضور الدائم ٣ ـ وترك الهم والغم والبهجة والسرور وأمثالها».

خامساً: ويمكن أن يعتبر هذا شرطا أيضا: وهو أن يكون السالك سبيل الهداية الرحمانية كتوما وحافظا للسر، لا يبيحه لأحد مهما رأى وشاهد وسمع، إلا لأستاذه الخاص، وذلك لطلب الإرشاد، ومعرفة الطرق التي يجب اتباعها في مشاهداته ومسموعاته و...

ولا نريد بهذا أن نلخص طريق السير والسلوك عند العرفاء ـ أستغفر الله ـ إنما نريد أن نشير من طرف خفي إلى أن المرحوم القاضي (قدس

سره) لم يتجاوز في تعاليمه هذه المراحل، حسبما قرأنا وشاهدنا، ونقل لنا من أخص تلاميذه.

ثم يأتي بعد هذا دور الالتزام بأشياء أخرى هي في صلب الوظائف الشرعية. . . كزيارة العتبات المقدسة، والمشاهد المشرفة، والتوسل بهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والاستغفار: وله صيغة خاصة كان يوصي بها وهي «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو من جميع ظلمي وجرمي وإسرافي على نفسي وأتوب إليه»....

وصلاة الليل. . . وهي من الوظائف الأكيدة، وكان يردد قوله:

«كيف يرجو أن ينال مرتبة من الكمال من لم يسهر الليالي؟!»

وزيارة المقابر. . . والإكثار من قراءة سورة التوحيد على قبور المؤمنين.

وأن لا يظهر على الإنسان شذوذ أو خروج عن المتعارف المألوف عند المتشرعة في ملابسه وبزته وهيئته وعلاقاته الاجتماعية. . . يعود مرضاهم، ويشيع جنائزهم، ويحضر مجالسهم في الفرح والعزاء، ولا يظهر في سيرته وسلوكه الاجتماعي ما ينبئ أنه من مجموعة خاصة يتميزون عن غيرهم بصفات غريبة يشار إليهم بالبنان. . . ويرمون بتهم هم براء منها.

أما رجال العلم والطلبة فكان يؤكد عليهم بالمواظبة على حضور مجالس البحث والتحقيق، ويمنع حتى من الاعتكاف في جامع الكوفة الكبير إذا كان هذا الاعتكاف يعارض التحضير للدروس، والحضور في مجالس الدرس ومعاهده، ويتفقد أصدقاءه ويسألهم عن المسائل الجديدة المطروحة عند أساتيذهم ومرشديهم.

وأما غير الطلبة. . . فكان يوصيهم بمزاولة أعمالهم التجارية والكسب، وحسن الالتزام بالوظائف الشرعية والفقهية في الكسب والتجارة. . . ولا يتقدم إليهم بعمل ينافي الكسب أو أوقاته، ويؤكد على تعهد عملهم وحسن إدارته وتنظيمه حسب القواعد والأصول المرعية، دون

أن يظهر عليهم الشذوذ في سلوكهم الاجتماعي والسوقي، أو يؤخرهم عن الاستفادة من أوجه الحلال المشروع. فالكاسب حبيب الله، والساعي في الكسب لغرض التوسعة على عياله كالمجاهد في سبيل الله. . . إلى آخر ما كان يوصي. وكان يقول: كونوا بين إخوانكم كأحدهم، وعليكم بالرفق والمداراة في معاشرتهم. . . واحذروا من التزمت».

يذكر العلامة السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني[1]: «كان المرحوم القاضي يعطي توجيهاته وتعليماته الأخلاقية لكل واحد من تلاميذه بطريقة خاصة طبق الموازين الشرعية مع رعاية الآداب الباطنية للأعمال وحضور القلب في الصلاة والإخلاص في الأفعال، وكان بذلك يعد قلوبهم لتلقي إلهامات عالم الغيب.

وكان يمتلك حجرة في مسجد الكوفة وأخرى في مسجد السهلة، وكان في بعض الليالي يبيت لوحده فيهما، ويوصي تلامذته أيضا بأن يبيتوا بعض الليالي في مسجد الكوفة أو مسجد السهلة للعبادة.

وكان يوصي تلامذته بعدم الالتفات الى ما يمكن أن يحدث أثناء الصلاة أو قراءة القرآن أو الذكر والتفكر، من مشاهدة الصور الجمالية أو ظهور بعض الحالات الأخرى لعالم الغيب، ويأمر بضرورة الاستمرار بالعمل! وكان الأستاذ العلامة (الطباطبائي) يقول: كنت جالسا ذات يوم في مسجد الكوفة مشغولا بالذكر، وفي تلك الأثناء أقبلت حورية من حوريات الجنة من جانبي الأيمن في يدها كأس من شراب الجنة وقدمته لي وعرضت نفسها علي، وعندما أردت أن ألتفت إليها تذكرت فجأة كلام الأستاذ، ولهذا أعرضت ببصري عنها، فقامت وأتتني من الجانب الأيسر، وكررت الإعراض عنها بلطف ولم أعتن بها، ورجعت إلى نفسي، فتألمت تلك الحورية وذهبت. وإلى الآن كلما تذكرت ذلك المشهد أتأثر من تألم تلك الحورية».

---

(١) في كتابه «الشمس الساطعة» صفحة ٢٩-٣٠.

يقول السيد محمد حسن القاضي[1]: «إنه بعد أن يضعهم على الطريق ويأخذ بأيديهم في الخطوات الأولى. . . لا يتركهم هملا دون أن يرسم لهم خطا عاما مشرقا يسيرون عليه ولا يحيدون عنه. . . كذا جاء في رسالة خاصة إلى أحدهم. . . يوضح هذه الناحية خير توضيح، بل ويوصي به توصية خاصة ويؤكد عليه.

ومن الواضح أن هذا الخط يجب أن يكون لاحبا وعاما وجامعا وواضحا ومنيرا، يشبع كل ما في الإنسان من حب الكمال، ورغبة أصيلة للوصول إلى المراتب العالية، والإشراقات والفيوضات الربانية المتعالية. . . وكما يجب أن يكون هذا الخط في شموله واستيعابه بحيث لا يترك في الإنسان مأربا ولا هدفا ولا غاية سامية إلا استهدفه وهدى إليه، يروي غليله، يشفي عليله، ويضعه على الطريق السوي يسير عليه حتى الشوط الأخير».

وينقل عبد الرحمن حاتم[2]: «كما كان يتعامل مع كل واحد من تلاميذه بنحو يختلف عن الآخر تبعا لدرجة استعداده». يقول الشيخ عباس القوجاني: «كان السيد القاضي يعطيني برامج ذكر عجيبة وتختلف كثيرا عما يعطيه الآخرين، فكان يأمرني في كثير من الأوقات بالتزام أربعين بعد أربعين وأربعين داخل أربعين».

بينما كان آخرون يترددون على السيد القاضي سنوات عديدة ثم يتركونه وهم صفر اليدين. يقول السيد عبد الكريم الكشميري وهو من تلاميذ السيد القاضي أيضا، وبقي بصحبته الخمس سنوات الأخيرة من عمره الشريف: «جاء عدة أشخاص للاستفادة من محضر السيد القاضي، ولازموه مدة من الزمن ثم تركوا درسه. فقال العلامة الطباطبائي للسيد القاضي: سيدنا كأن هؤلاء أرادوا منك شيئا فلم تعطهم إياه فتركوك! فقال: إن لدي أشياء أخرى لم أطلعكم أنتم عليها أيضا، فكيف أخبر هؤلاء المبتدئين؟!

---

(١) في كتابه «تاريخ الأعلام في النجف الأشرف» صفحة ٢٦٩.

(٢) في كتابه «قدوة العارفين» صفحة ٨١-٨٣.

وقد ربى السيد القاضي كثيرا من التلاميذ في دورات متعددة، وقد قال عنهم في عملية تقييم لهم: «كان السيد أحمد الكشميري أكثرهم احتراقا». وقد ذهب بعد ذلك إلى كشمير، ورأيته يوما وقد احمرت عيناه وورمتا، وعندما سألت عن علة ذلك، علمت أنه بقي الليلة الماضية مستيقظا في غرفته إلى الصباح يردد الذكر التوحيدي «يا الله يا هو» اثنا عشر ألف مرة.

وكان للسيد القاضي مجالس متعددة، لكل مستوى معين من المريدين مجلس خاص به، وهناك أيضا مجلس عام يمكن أن يحضره من يشاء. فقد نقل عن الشيخ محمد رضا آل ياسين ـ أحد أعاظم علماء النجف ـ قوله: كان للسيد القاضي مجالس متعددة بتعدد طبقات السالكين على أساس الحال والمقام، ويمكن تمييزها بالعناوين التالية: مجلس عام، مجلس خاص، مجلس خاص الخاص، ومجلس أهل الخاص.

يقول: فذهبت يوما إلى إحدى مجالسه الخاص للمستوى العادي من التلاميذ، وعندما خرجت من منزله وضعت عباءتي على رأسي وغطيت بها وجهي، ومشيت وأنا لا أملك دموعي، فأخذت أبكي بلا إرادة مني، وكلما نظرت إلى مكان أو شخص تشاءمت منه، فسلبت مني طاقة البقاء في الدنيا والحياة مع الناس بسبب الانقطاع المؤقت عن العوالم الدنيوية. وكم أنا نادم لعدم استطاعتي الحضور بعدها في هذه المجالس النورانية.

كما كان يقيم مجلس العزاء على أبي عبد الله الحسين عليه السلام في صباح كل جمعة في داره في النجف، تحضره طبقات مختلفة من الناس، وحتى أولئك الذين لا يؤمنون بمسلك العرفان.

وأما درسه الأخلاقي العام فكان يعقده في الليل، ليتسنى لمن كان مشغولا في النهار في طلب العلم أو طلب الرزق الحضور في مجلسه. وجاء في كتاب تاريخ الحكماء والعرفاء: «يقول الأستاذ سها: سمعت من شيخنا الأستاذ عمدة الحكماء الراشدين الشيخ محمد حسين الخراساني، والذي كان ملازما للسيد القاضي سنوات طويلة، يقول: كان للسيد القاضي

مجلس أخلاقي في الليالي، وكان لا يشعل فيه ضياء، فكان يحضره بعض علماء النجف الأشرف من أهل الباطن يستترون بظلمة الليل، وكان أغلب حديثه في هذا المجلس عن معرفة النفس وتهذيب الأخلاق، وكان يتحدث أيضا في العرفان، ولكن كان أكثره في معرفة ذات الإنسان ومعرفة النفس. وكان إذا دخل شخص غريب إلى المجلس غير حديثه، وتكلم حول زيارة الحسين ﷺ، وكان يقول: إن الاستعدادات مختلفة، ولا يمكن قول كل كلام لأي شخص».

وينقل عبد الرحمن حاتم[1]: «وكان السيد القاضي ينبسط مع تلاميذه أشد الانبساط، بنحو يقول تلميذه آية الله السيد هاشم الرضوي الكشميري: حينما كنا نذهب عند السيد القاضي كان يمنحنا انبساطا روحيا وسرورا وابتهاجا بحيث كانت تتبخر جميع المشكلات ومرارة الحياة اليومية عن أرواحنا وأبداننا.

وكان من دأب السيد القاضي أن لا يرد طالبا ولا يخيب سائلا عن معرفة الحق والحقيقة. يقول آية الله السيد محمد الحسيني الهمداني: كنت في سنة ١٣٤٧ أو ١٣٤٨ للهجرة في مدرسة قوام في النجف، فجاء السيد القاضي إلى المتصدي لإدارة المدرسة، وطلب منه أن يهيّىء له غرفة فيها. فوافق على هذا الاقتراح برحابة صدر، وأعطاه حجرة صغيرة في الطابق العلوي. ثم علمنا بعد ذلك أنه كان يريدها مكانا يختلي فيه للعبادة والتهجد لضيق منزله. ويبدأ برنامجه العبادي من الساعة الثانية عشرة ليلا، عندما ينام جميع الطلبة، ومن هنا بدأ تعلقي به، وكان دعاؤه ومناجاته في تلك الحجرة الصغيرة لذيذا وجذابا جدا.

وبعد مضي عدة أشهر طلبت منه درسا أخلاقيا في كتاب «جامع السعادات»، فقبل ذلك، وبدأ بالدرس فعلا في أوقات فراغي، وكان درسا عرفانيا حقيقة، يتيقن فيه السامع بما يقوله الأستاذ ويجد لكلامه طريقا إلى نفسه.

---

(١) في كتابه «قدوة العارفين» صفحة ٨٥-٨٦.

ثم مرت بي على أثر ذلك حالات عجيبة بحيث صار السيد القاضي كل ذكري ووردي، وأهملت بقية دروسي وذهلت عنها، وأضحى درسه موضع اهتمامي الوحيد، وكنت عندما أجلس بين يديه، ويبدأ الحديث كنت أنسى كل دروسي وأذوب فيه، ولا أفكر طوال النهار بغير كلامه. وعندما يستيقظ السيد أثناء الليل للتهجد والعبادة، كنت أبقى مستيقظا إلى الصباح، أنصت إلى لذيذ دعائه ومناجاته. وشيئا فشيئا طرأت تغيرات على صحتي بسبب ترك النوم في الليل، ولم أعد أعتني بدروسي.

فتنبه بعض أصدقائي لحالي، ومنهم السيد يوسف الحكيم الذي كانت تربطني به علاقة وثيقة. وذات يوم ذهبت إلى آية الله الشيخ محمد حسين الكمباني، وكنت أكن له احتراما كبيرا، وقلت له: إن السيد القاضي قد سكن غرفة في مدرستنا. فانتبه إلى قولي وفهم المسألة وقال لي: إنه لمن المبكر جدا أن تذهب إلى درس السيد القاضي، وإنك لست رجل هذا الميدان بعد، وهو رجل عظيم ويحتاج إلى زميل وقرين عظيم مثله، ومن الأفضل أن تترك درسه، ويكفي حضورك المجالس الأخلاقية التي تعقد في كل أسبوع في بيت السيد عبد الغفار. فتركت درس السيد القاضي. وإني لأحس إلى الآن بحلاوة ولذة تلك المدة القصيرة التي قضيتها في درس السيد القاضي».

منهج العمل في العرفان بعد الاختبارات

وكان السيد القاضي لا يعطي (منهج العمل) أو (دستور العمل) الخاص إلا إذا تأكد أن التلميذ قد أحرز اللياقة والاستعداد والتهيؤ اللازم تؤهله لتلقي ذلك، وأنه قد قطع شوطا في الرياضة النفسية والتواضع والتهذيب الخلقي ونكران الذات والإيثار. وكانت له أساليبه الخاصة لاختبار المريد ومدى قدرته النفسية ومبلغ طاعته وانصياعه وانقياده، فإنه لا يفتح الطريق لأحد بمجرد الحضور في جلسات (أهل الحال).

فلقد ذكر السيد محمد حسن القاضي[1]: «وأخيرا... التهيؤ اللازم للدخول في المرحلة الجديدة... والالتحاق بزمرة من يعطون (منهج العمل) أو (دستور العمل) الخاص... وقد يتفق من هؤلاء أيضا أن يكلفوا التلميذ بالقيام بعمل صعب ـ ولو مرة واحدة ـ ليختبروا قدرته النفسية، ومبلغ انصياعه وانقياده.

فقد اتفق ـ مثلا ـ أن أمر أحد الحضار في مجلسه، وكان من الشخصيات العلمية المرموقة في الحوزة العلمية، يحضر مجلسه للحصول على بعض التعليمات والاستنارة ببعض الإرشادات. واتفق أن دخل المجلس صعلوك قذر الملابس للتكدي، وكان هذا مريضا بحيث إذا جلس لا يستطيع النهوض من مجلسه... نعم، أمره أن يقوم ويساعد هذا المسكين المريض في النهوض من مكانه... وكأن هذا العالم كبر عليه هذا التكليف والأمر، أو لأنه ناداه باسمه دون أن يكنيه أو يعطيه اللقب المناسب له بين أقرانه. فتباطأ بامتثال أوامر الشيخ... فنهض الشيخ بسرعة

(١) في كتابه «صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف» صفحة ٢٧٨.

من مكانه، واحتضن ذلك الصعلوك، وأوقفه على رجليه، وألبسه حذاءه بيده، وقاده إلى باب الدار وهو يحدثه ويلاطفه.

فخجل العالم وفارق المجلس مدة، ثم أخذ يتوسل إلى أصدقائه ليسمحوا له بالعودة إلى مجلسهم. فسمح له بذلك، فكان المرشد كلما دخل هذا العالم مجلسه وأراد الخروج سبقه إلى حذائه وصفه أمام رجله، مشيرا إلى أن هذا العمل لا يخل بمقام الرجل، ولا يضع من مرتبته ...وأن حرمة العلماء محفوظة عنده. وكانت النتيجة أن هذا العالم إذا دخل مجلس (المرشد) تأبط حذاءه لئلا يفاجأ بقيام (المرشد) أمامه.

وذكر أيضا[1]: «نعم، الرياضة النفسية أو ترويض النفس على منح بعض الشؤون الاجتماعية، وعدم المبالاة بالقواعد والأصول المرعية بين الناس، لغرض كبت جماح النفس وغلوائها وأنانيتها. (كل هذا) من لوازم الدخول في هذا السلك. . . لكن لا إلى الحد الذي يخل بشخصية الرجل ومقامه الاجتماعي. . . أو يرمى بنوع من الخروج عن المألوف عند سائر الناس.

وتعيين هذا الحد من أصعب الأمور لدى العرفاء والأخلاقيين من الشيوخ والفقهاء (أعلى الله تعالى مقامهم)، لأنهم يقيمون ألف دليل ودليل على أن الشؤون الاجتماعية يجب مراعاتها، والتعهد والالتزام بها. فللمؤمن حرمته ومقامه الاجتماعي، ولا يجوز الإخلال به وتعريضه لقالة السوء، وقد عرف بهذا في وسطه الذي كان يعيش فيه. إلا أن المريد الذي كان يلازم مجلسه يعلم أنه لا محالة قد يقع ولو مرة واحدة أمام الاختبار.

وذكر من كان يحضر مجلسه قصصا ونوادر من هذا القبيل، أعرضنا عن ذكرها. إنما المهم أن نعرف بصورة عامة أن الذي يتقدم إلى أمثال هؤلاء الشيوخ لا بد وأن يجتاز مرحلة معينة، وخاصة من ترويض النفس على المكاره والشدائد، ويكون التواضع والإيثار ونكران الذات من الصفات المتمايزة في شخصيته.

---

(١) في كتابه «صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف» صفحة ٢٨٠ ـ ٢٨٢.

ذكر أحدهم قال: كنت أحضر مجلس (السيد القاضي) وكنت في ضائقة مالية شديدة، شأن أكثر الطلبة في النجف الأشرف. كنت أتعشى أكثر الليالي بالخبز والشاي فقط، وفي إحدى الليالي كانت لدي قطعة نقدية صغيرة تكفي لشراء قرص من الخبز، كان في نيتي أن أشتري بها الخبز عندما أعود من المجلس. وفي أثناء حديثه (وكان مجلسه في غرفة من غرف المدرسة الهندية) دخل علينا مسكين يستعطي. وفجأة مد السيد القاضي يده نحوي وقال: هل لديك شيء نعطي هذا المسكين؟ فمددت يدي في جيبي وأخرجت القطعة النقدية الوحيدة، ودفعتها له... أخذها ودفعها للمسكين... ثم استرسل في حديثه.

فخرجت من عنده، وودعت أصحاب المجلس ولم أبد لأحد منهم شيئا، وذهبت إلى غرفتي. ولعدم وجود الخبز لم أصنع الشاي، وقمت بتحضير دروسي حتى انتهيت، وأردت أن أستلقي على فراشي للنوم، وقد أخذ الجوع مني مأخذا، والوساوس الشيطانية تهجم على قلبي وتسول لي، وكنت أدفعها عن نفسي بالاستغفار والإنابة.

وإذا بالباب يطرق ...

قمت وفتحت الباب، وإذا بالسيد القاضي... سلم، وقال: أرغب أن أتعشى معك الليلة فهل تسمح؟

فرحبت به، وجلس، وأخرج من تحت ردائه إناء فيه طعام رز مع الماش، وقليل من اللحم والخبز... وطلب مني مشاركته في الأكل... فأكلت حتى شبعت ...

ثم قال ـ وبصوت عال خلاف عادته ـ وأين الشاي؟ فقمت بسرعة وأحضرت الشاي، فشرب كوبا صغيرا، ونهض وودعني وخرج.

إن هذه القصة من النماذج الصغيرة التي كان يلجأ إليها (قدس سره) أحيانا مع أصحابه، وهي تعطي صورة من صور الإيثار ونكران الذات... وهما من الصفات الحميدة التي يلزم أن يتحلى بها المؤمن الذي يبدأ الطريق نحو المدارج العالية النفسية، والسير الملكوتي في الآفاق والأنفس.

وهذا القدر من الصبر والجلد على الشدائد ـ وربما الأكثر منها قليلا ـ والمكاره مسموح لديهم، ليكسب الطالب تمرسا وخبرة وصبرا.

قال الشيخ إبراهيم الشريفي السيستاني: كنت في السجن ومعي جماعة. وكان عدم النظم في تقديم الطعام لنا قد أخل بصحة أصحابي كثيرا... إذ ربما نسونا ولم يقدموا لنا شيئا طول النهار... للإيذاء والتشفي. غير أني بالذات لم يصبني أذى من هذه الجهة لكثرة ما كان يأمرني أستاذي (السيد القاضي) بأعمال عبادية مع الصوم، وقد أمرني مرة أن أقوم بعمل (أم داود مدة سنة كاملة كل شهر).

فإذا، الحصول على (دستور العمل) ـ أو (نهج العمل) ـ منه كان بعد اجتياز مرحلة قد لا تخلو في بعض الحالات من شيء من المشقة والعناء، لمعرفة مدى استعداد التلميذ (المريد)، وتهيؤه نفسيا وخلقيا، تبعا للموارد والأشخاص ونظره الخاص».

موتوا قبل أن تموتوا
(الحديث النبوي الشريف)

وترتكز تربية المعلمين السماويين الكاملين المكملين على ركن عملي مهم، طالما تحدث عنها رسول الله ﷺ، واستعملها عمليا في تربية الأخصاء من تلامذته، ألا هو مبدأ: «موتوا قبل أن تموتوا». وقد ركز عليها الأستاذ القاضي _قدس سره ـ طبعا على الأخصاء من مريديه أمثال السيد هاشم الحداد والسيد حسن المسقطي، وقد ذكرنا في فصل سابق عن حالات موتهما الاختياري. وكان لكثرة تعرض السيد هاشم للموت قبل الموت ـ تحت نظر أستاذه طبعا ـ أن أينعت الثمرة عمليا كما ذكرها السيد محمد الحسين الحسيني[1]: «لقد كان حضرة الحاج السيد هاشم يعيش في أفق آخر، وإذا ما أوفينا التعبير حقه فقد كان يعيش في اللاأفق، هناك حيث تخطى التعين، واجتاز الاسم والصفة، وصار جامعا لجميع أسماء الحق المتعالي وصفاته بنحو أتم وأكمل، وصار موردا للتجليات الذاتية الوحدانية القهارية، ولقد طوى الأسفار الأربعة تماما ووصل إلى مقام الإنسان الكامل.

ولم يكن أيا من القوى والاستعدادات في جميع المنازل والمراحل السلوكية من الملكوت الأسفل والملكوت الأعلى وطي أدوار عالم اللاهوت والتجوال فيها، إلا وكان قد تحقق ووصل إلى الفعلية في وجوده القيم.

---

(١) الروح المجرد صفحة ١٤٠-١٤٥.

ولقد كان السيد هاشم إنسانا له الفعلية التامة في جميع زوايا الحياة المعنوية ونواحيها.

ولقد كان الموت والحياة، الصحة والسقم، الفقر والغناء، مشاهدة الصور المعنوية وعدمها، والجنة والجحيم، بالنسبة له على حد سواء. فقد كان رجلا إلهيا انقطعت عنه جميع العلائق والنسب في جميع العوالم إلا نسبة الله.

ولقد كنا معه طيلة ثمان وعشرين سنة من اللقاءات ووصل الليل بالنهار والأسفار، حيث حسبت مجموع الأوقات المتفرقة التي كنت فيها معه ليلا ونهارا بشكل دقيق فكانت لو ضممناها إلى بعضها سنتين كاملتين، لم أشاهده طيلتها يرجو أحدا أبدا، لم أره يسأل أحدا أن يدعو له، ولم يسأل غيره شيئا أبدا كأن يقول له: ادع لي أن تكون عاقبة أمري خيرا، أو أن تغفر ذنوبي، أو أن يوصلنا الله إلى هدفنا، كلا لم أر منه شيئا من ذلك أبدا وأبدا، لا تلك الأمور ولا أمثالها. إذ كيف يسأل هذه المعاني أحد هو نفسه في منتهى الدرجة من الفقر والعبودية، وليس له مقابل الحق الجليل إلا العبودية والتخلي عن الإرادة والاختيار وفقدان الآمال والأماني؟!

ومن البين أن من لوازم هذه العبودية التي لا تنفصل عنها، التجليات الربوبية والمظهرية التامة للأسماء الجمالية والجلالية للحق تعالى.

كان الحاج السيد هاشم رجلا وصل من الجزئية إلى الكلية، فلم يكن لينظر بعد إلى الكثرات، بل كان محيطا ومهيمنا ومسيطرا على الكثرات. ولم يكن له في جميع عمره كلام ينبع من مجاملة أو وفق مصلحة ومجاملة من المجاملات المعهودة المتداولة، أو أن يظهر في إجابته لأحد التواضع والانكسار المتعارف الذي لا ينطبق مع الواقع أبدا، فلم يكن لينبس بجملة أو كلمة من باب التواضع والتذلل والانكسار، وذلك لأنها كانت ـ طبقا لحاله ومقامه ـ كلها مجازا وخلافا للواقع. فكان قد وصل إلى مقام لا يحتاج إلى التلفظ بهذه الجمل صدقا أو حسب المصالح العامة.

ولقد كان عبدا لله بما في الكلمة من معنى. لذا فقد كان من الخطأ

أن يبحث عن شيء في هذا المجال أو يريده أو يطلبه، ذلك لأنه نفسه قد استقر في مقام أرفع وفي أفق أرحب وفي ذروة أمنع ينظر منها إلى جميع كائنات ومخلوقات الحق المتعالي، ولقد كان شاهدا وناظرا من ذلك المقام المنيع على نفسه وعلى غيره، فهو مظهر التوحيد، مظهر لا إله إلا الله، مظهر لا هو إلا هو.

وقد ذكرنا أنه كان يقول: أنا أشبه بقشة تبن تدور في فضاء لا يتناهى بلا اختيار مني أو إرادة، وأخرج أحيانا من نفسي كالحية التي تلقي بجلدها، فليس فيها إلا هذا الجلد.

أتعلمون ما الذي كان يريد بقوله في هذه الجملة القصيرة؟!

إن الحيات تبدل جلودها كل سنة بشكل طبيعي، أي انها تخرج من جلدها السابق، وإذا ما نظرتم إلى ذلك الجلد لرأيتم حية كاملة لها رأس وبدن وذيل كما أن لون جسمها ونقوشه وتعرجاته يماثل ما كان للحية السابقة، ولربما يتصور الإنسان في البدء أن هذا الجلد حية حقيقية لكنه حين يخطو إلى الأمام ويضع يده عليه يتضح أنه لم يكن إلا جلدا وأن الحية قد خرجت منه.

لقد كان حضرة الحداد يقول: إن مثلي كذلك، فلقد كنت أتخطى نفسي وأخرج منها فأذهب إلى مكان آخر.

أي: إني ـ أنا الذي خرجت منها ـ الحداد بجميع شؤونه من البدن والأفعال والأعمال والذهن والفعل وكل الآثار ولوازمها، مع أنها موجودة وتقوم بأعمالها الطبيعية كالعبادات والمعاملات والاتصالات والنوم والأكل والعلوم الذهنية التفكيرية والعلوم العقلية الكلية والعلوم القلبية المشاهدية، وبدون أي ذرة من التغير، فكلها موجودة في مكانها، لكن أنا لم أعد موجودا فيها، لقد خرجت منها. أي إن جميع هذا البدن وآثاره وجميع علومه الذهنية والعقلية والقلبية وآثارها وجميع قدراتها وجميع أنحاء حياتها تصبح كجلد الحية، وليست بأجمعها مقابل حقيقتي إلا جلدا فقط، في حين أن حقيقتي التي يقال لها «أنا» في مكان آخر.

فأين ذلك المكان الآخر يا ترى؟! من المسلم لا بد أن يكون مكانا أفضل وأعلى وأرقى من الجزئية والكلية التي هي موطن البدن والمثال والعقل، هناك كلية تفوق جميع الكليات، وتجرد يفوق التجردات، وبساطة أفضل من جميع البساطات، مكان لا يتناهى مدة وشدة وعدة بما لا يتناهى.

هناك عالم الفناء المطلق والاندكاك في ذات الحق المتعالي جلت عظمته، هناك مقام العبودية المطلقة، العبودية التي قدمت على الرسالة في التشهد فورد: «وأشهد أن محمدا عبده ورسوله». هناك الإحاطة بجميع النشآت وعوالم الملك والملكوت، لا أن يكون العبد هناك مثل الله، فهذا التعبير تعبير خاطئ، إذ مع وجود ذات القهار الأحد فليس هناك من معنى لمثل وشبه ونظير، وليس هناك إلا الله تعالى لا شيء سواه. فهذا هو التعبير الصحيح، هناك: الله موجود وحسب، والعبد فناء وحسب، هناك ظهور ومظهر لا هو إلا هو.

ولقد كانت إشارات السيد الحداد ودلالاته كلها من هذا القبيل، أي إنه كان يستعين ويستهدي بأفق الوحدانية لا من غطاء وجوده هو.

يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]. إن الرحلة من البهيمية إلى الملكوت رحلة شاقة، وتستلزم مجاهدات ورياضات نسميها الجهاد الأكبر. قال الرسول الأعظمﷺ: «الإنسان مركب من عقل وشهوة، فمن غلب عقله شهوته كان أعلى من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله كان أضل من البهائم». فما هو يا ترى قصة هذا الإنسان؟

إن الإنسان رغم ثرائه وغناه بعوالم الملكوت والجبروت واللاهوت، إلا أنه يميل إلى غرائزه ومن ثم إلى شهواته، ويحب أن يمارسها بشتى ألوانها، من الجنس وميله إلى النساء، ومن المال وحبه لجمعه، والطمع

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٩.

وحب النفس والأنانية الحمقاء، والبخل والغيبة والنميمة، والكبر والغرور، والتعدي على حقوق الآخرين، والسب والشتائم وغيرها. وميله وركونه إلى هذه المعاصي يختلف من شخص إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر، انطلاقا من القيم والمبادئ التي يتربى عليها هذا الشخص أو هذا المجتمع.

والقاعدة هو ميل الإنسان وحبه للغرائز. وإذا لم تؤد التربية دورها المناسب، أطلق الإنسان عنانه لهذه الغرائز، وأصبح كالبهائم بل أضل منها. ولكنه إذا تعرض للمواعظ الدينية من طفولته ونعومة أظفاره، تلطف جو البهيمية في وجوده، وأصبح يتمايل إلى العقل، متأرجحا بين العقل والشهوة. وحتى العقل مفهومه نسبي، فالكثيرون يتوقفون عند ذلك العقل الذي يؤمن لهم حياتهم الدنيوية، ويضمن لهم فيها النجاح والممارسة العاقلة لشهواتهم وميولهم وحاجاتهم الأساسية، كالجنس والمسكن والإنجاب والعمل الذي يؤمن لهم المعيشة والموقع الاجتماعي المناسب.

ويبقى الإنسان يدور في فلك الدنيا لا يخرج منها، ويحتاج إلى طاقة عظمى للخروج من هذا الفلك إلى أفلاك أخرى موجودة فيه. يقول الله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾[1]. وهذا الدفع القوي وهذه الانطلاقة العملاقة تؤمنها طريقة السير والسلوك. والمطلوب من الإنسان أن يخرج قلبه من هذه الدنيا. والجنس والمسكن والإنجاب والعمل يشترك فيها الإنسان مع البهائم. فالخروج من هذا النمط يحتاج إلى قوة عظيمة تدفعه إلى السير خارجا من البهيمية والبشرية وداخلا في عوالم الآخرة من الملكوت والجبروت واللاهوت، والسلوك في طريق العروج إليها.

وبعد مجاهدات شاقة تتغير نظرة الإنسان وفلسفته، وتكون الآخرة هي بغيته، ويصير أهلا للموت الاختياري قبل الموت العادي، إطاعة وتسليما لتعليمات الرسول الأعظمﷺ حيث قال: «موتوا قبل أن تموتوا». وفي حالة الموت العادي يجبر الإنسان إجبارا على ترك كل ما يتعلق بالدنيا من متاع

(١) سورة الضحى الآية ٤.

وجاه وقصور، مع كل تبعات الندم والحسرة، التي يذكرها الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[1]. أما في هذا الموت الإختياري، فهو نفسه يقطع حبال تعلقاته بالدنيا واحدة تلو الأخرى، متجافيا عن الدنيا ودار الغرور، والإنابة إلى الآخرة ودار الخلود.

وقد تعرض السيد حسن لمثل هذه الرحلة المقدسة. فكان حب الله هو دافعه الأعظم، وكان هدفه هو الدخول في حرم الله وأنواره وإخراج حب سواه من قلبه والتوجه المطلق إليه جل وعلا. وكما قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك». فيقبل على حب الله إقبالا، ويدبر عن هوى غيره إدبارا، وفي مقدمتها هوى النفس وهوى النعوت والصفات والأسماء والسمات.

وتظهر له النعوت الجمالية الجلالية، فيعذب دونه عذابه من هذه المجاهدات الشاقة، فتتحول إلى رياضات شيقة، ويرغب رغبة شديدة ملحة في الفناء عن نفسه المحدودة، ويبقى حب الله هو مؤنسه وخلته، ويدبر عن الصفات والسمات في نفسه. ويدعو الله بكل وجوده: «إلهي اجعل روحي نسخة من اللاهوت وصورتي نسخة من الملك والملكوت وقلبي خزانة الحي الذي لا يموت». وتكون بغيته الوحيدة الفناء في الله. وعند الفناء المطلق تتجلى صورة الله ويحدث الإندكاك والصعق، ويطيح وجوده في شهوده، ويبين عن وجود شهوده ذائبا ماحيا.

ولم يكن بعده السيد حسن، بل كانت صورة الله تتجلى وتغدو وتروح. كان الله ولم يكن معه شيء، والآن كما كان. فلقد ذاب شخصه وعينه واسمه ورسمه. وهل بعد المحو إلا التجليات الربانية ومشهد العرش

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٩٩ ـ ١٠٠.

واللاهوت. فيأتي الصحو من بعد السكر ومن بعد المحو، ولم يكن غير الله، وتجلت ذاته بذاته، ورفع تاء المخاطب. وأنى للعقل والحجى أن يجوز رؤية اثنين واحدا! وإنها لكذلك، فإذا نطق فبالله، وإذا أجاب فبالله، وإذا نظر فبالله، وإذا سمع فبالله، وإذا بطش فبالله، وإذا سعى فبالله، وإذا قص حديثا فإنما الله هو الذي قص.

ورؤية الله هي رؤية الذات للذات، ولا تتحقق في مقام الشرك والكثرات وحتى الثنوية. ففي عالم التكاثر ترى المظاهر فتظنها سوى الله، ولكنها في الحقيقة تجلياته. فهي ظاهرة باحتجاب ومختفية بالمظاهر. قال الله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[1]. فسمعه كموسى عليه السلام كليم الله، وقلبه خلو من التمريج، ولسانه خلو من اللغو، يرى ما يراه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ويسمع ما يسمعه. وفي الحديث الشريف: «لولا اللغو في اللسان والتمريج في القلب لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع». ورؤيا أحمد صلى الله عليه وآله الصادقة دائما أمامه، والمقلة الأحمدية تنفذ في وجوده فتذيبه، ويا روع هذه العيون وهذا الذوب!! والموت في الله وجدا وغراما هو عين الحياة الهنيئة التي ليس فوقها حياة. وما تجدي حياتك إن لم تمت في الحب؟

ويصبح رضا الله رضاه، تسليما لقضائه، صابرا على بلائه، لا معبود سواه، كما قاله الإمام الحسين عليه السلام وهو على رمضاء كربلاء. وما قيمة النفس في قبال هذه التجليات الجلالية الجمالية. فينال من قرب قربته فوق ما كان راجيا ومؤملا. فيا روعة هذه السكرة بغير مدامة وهذا الطرب العظيم في السر!! كما يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «أنت المونس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك، لقد خاب من رضي دونك بدلا، ولقد خسر من بغى عنك متحولا». وما أروع ما قيل:

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٨.

فيا ليت الذي بيني وبينك عامر   وبيني وبين العالمين خراب

فلقد تخطى السيد حسن النفس، وترقت روحه للمبدأ العالي. وتخطى حجاب الوصل، ولم يكن إلا هو: «لا هو إلا هو». ورجع لا يلهو باللاهوت عن حكم مظهره، ولا ينسى بالناسوت مظهر حكمته. وكانت نفسه ملكا من أملاك الأرض، فنقلها من ملك أرضها إلى ملك الجنان. وفي الجمع عين اليقين، وفي جمع الجمع حق اليقين، حيث لا جهة ولا أين ولا زمان ولا متى.

لقد خرج من الصحو إلى المحو فوجده هناك، وانطوى بساط السوى ـ كل ما سوى الله، وتحقق العدل بحكم السوية. وعادت البشرية إلى اللاهوت، وتحول الوجود في فناء ثنوية الوجود إلى الشهود في بقاء الأحدية الأزلية السرمدية. وأصبح القطب مركز النقطة التي بها تدور الأفلاك. وعادت العبودية إلى كنهها وارتقت إلى الربوبية، فيا روع هذا المشهد، إنه مشهد روح القدس!

وهذا الشيء لا ينحصر في السيد هاشم والسيد حسن، فلقد خاطب الإمام عليه السلام الإنسان حينما قال:ـ

أتحسب أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذي   بأحرفه يظهر المضمر

فإذا استجليت نفسك من غير مراء وفي المرآة الصافية الصقيلة، فالرحلة مهيأة لك أيضا إذا أردت ذلك. وإذا عرفت نفسك عرفت ربك، ويجب تخطي النفس إذا أردت الوصول إليه، والاتصال فيه، والغوص في بحار الجمع، بل خوضها على انفراد، واستخراج كل يتيمة في هذا العالم الأكبر الذي انطوى فيك.

ويصف الشاعر هذه الرحلة المقدسة في الموت الاختياري:ـ

ونعت جلال منك يعذب دونه   عذابي وتحلو عنده لي قتلتي
وما احترت حتى اخترت حبك مذهبا   فوا حيرتي إن لم تكن فيك خيرتي
فقالت هوى غيري قصدت ودونه   اقتصدت عميا عن سواء محجتي

وكيف بحبي وهو أحسن خلة تفوز بدعوى وهي أقبح خلة
حليف غرام أنت لكن بنفسه وابقاك وصفا منك بعض أدلتي
فلم تهوني ما لم تكن في فانيا ولم تفن ما لا تجتلى فيك صورتي
وجانب جناب الوصل هيهات لم يكن وها أنت حي إن تكن صادقا مت
فقلت لها روحي لديك وقبضها إليك ومن لي أن تكون بقبضتي
وماذا عسى عني يقال سوى قضى فلان هوى من لي بذا وهو بغيتي
فلو قيل من تهوى وصرحت باسمها لقيل كنى أو مسه طيف جنة
وطاح وجودي في شهودي وبنت عن وجود شهودي ماحيا غير مثبت
وعانقت ما شاهدت في محو شاهدي بمشهده للصحو من بعد سكرتي
ففي الصحو بعد المحو لم أك غيرها وذاتي بذاتي إذ تحلت تجلت
فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن منادى أجابت من دعاني ولبت
وإن نطقت كنت المناجي كذاك إن قصصت حديثا إنما هي قصت
فقد رفعت تاء المخاطب بيننا وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي
فإن لم يجوز رؤية اثنين واحدا حجاك ولم يثبت لبعد تثبت
سأجلو إشارات عليك خفية بها كعبارات لديك جلية
فلو واحدا أمسيت أصبحت واجدا منازلة ما قلته عن حقيقة
ولكن على الشرك الخفي عكفت لو عرفت بنفس عن هدى الحق ضلت
وما ذاك إلا أن بدت بمظاهر فظنوا سواها وهي فيها تجلت
بدت باحتجاب واختفت بمظاهر على صبغ التلوين في كل برزة
متى حلت عن قولي أنا هي أو أقل وحاشا لمثلي أنها في حلت
ولي من أتم الرؤيتين إشارة تنزه عن رأي الحلول عقيدتي
فسمعي كليمي وقلبي منبأ بأحمد رؤيا مقلة أحمدية
وموتي بها وجدا حياة هنيئة وإن لم أمت في الحب عشت بغصة
ويا سقمي لا تبق لي رمقا فقد أبيت لبقيا العز ذل البقية
وكل الذي ترضاه والموت دونه به أنا راض والصبابة أرضت
ونفسي لم تجزع بإتلافها أسى ولو جزعت كانت بغيري تأست
وقد نلت منها فوق ما كنت راجيا وما لم أكن أملت من قرب قربتي

فأعجب من سكري بغير مدامة   وأطرب في سري ومني طربتي
فواجد كرب في سياق لفرقة   كمكروب وجد لاشتياق لرفقة
فذا نفسه رقت إلى ما بدت به   وروحي ترقت للمبادي العلية
وباب تخطي اتصالي بحيث لا   حجاب وصال عنه روحي ترقت
ولم أله باللاهوت عن حكم مظهري   ولم أنس بالناسوت مظهر حكمتي
ولما نقلت النفس من ملك أرضها   بحكم الشرا منها إلى ملك جنة
وقد جاهدت واستشهدت في سبيلها   وفازت ببشرى بيعها حين أوفت
فكلي لكلي طالب متوجه   وبعضي لبعضي جاذب بالأعنة
ومن كان فوق التحت والفوق تحته   إلى وجهه الهادي عنت كل وجهة
ولا شبهة والجمع عين تيقن   ولا جهة والأين بين تشتتي
وما فاقد بالصحو في المحو واجد   لتلوينه أهلا لتمكين زلفة
تعانقت الأطراف عندي وانطوى   بساط السوى عدلا بحكم السوية
وعاد وجودي في فنا ثنوية   الوجود شهودا في بقا أحدية
أشرت بما تعطي العبارة والذي   تغطى فقد أوضحته بلطيفة
فبي دارت الأفلاك فاعجب لقطبها   المحيط بها والقطب مركز نقطة
فعني بدا في الذر في الولا ولي   لبان ثدي الجمع مني درت
وأعجب ما فيها شهدت فراعني   ومن نفث روح القدس في الروع روعتي
وشاهد إذا استجليت نفسك ما ترى   بغير مراء في المرائي الصقيلة
أغيرك فيها لاح أم أنت ناظر   إليك بها عند انعكاس الأشعة
أهل كان من ناجاك ثم سواك أم   سمعت خطابا عن صداك المصوت
وغصت بحار الجمع بل خضتها على   انفرادي فاستخرجت كل يتيمة
لأسمع أفعالي بسمع بصيرة   وأشهد أقوالي بعين سميعة
وغنت من الأشعار ما رق فارتقت   لسدرتها الأسرار في كل شدوة

وجوب الأستاذ في العرفان

من الواضح أن هناك علمان: علم الأبدان وعلم الأديان، كما ورد في الحديث الشريف: «العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان». فعلوم الأبدان هي كل ما يتعلق بظواهر الأمور، وعلوم الأديان هي كل ما يتعلق ببواطنها. أما علوم الظواهر فهي التي يكتسبها الناس من المدارس والجامعات كالعلوم الإنسانية والتجريبية وغيرها، وقد ورد بشأنها الحديث الشريف: «أطلبوا العلم ولو بالصين»، وحديث آخر: «أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد». ووجوب الأستاذ في هذه العلوم ثابت لدى الناس ولا يحتاج إلى أي دليل وبرهان، وعلى الأخص العلوم التجريبية لخضوعها للتجربة والمراقبة.

أما علوم البواطن أو علوم الأديان فهي التي يثار حولها الجدل بشأن وجوب الأستاذ أو عدمه. ولقد قال رسول الله ﷺ بشأن هذا العلم: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء». فهذا العلم ليس اكتسابيا وإنما هو عناية خاصة يوليها الله من يشاء من عباده بحيث يقذف الأنوار قذفا في قلبه. ويظن معظم الناس أن علم الأديان هو ما يدرس في الحوزات العلمية من الاشتقاق والصرف والنحو وعلم البيان والبديع والمنطق والفلسفة والفقه. وواضح أن هذه العلوم تكتسب في المدارس وما هي إلا جزء من العلوم الإنسانية. وحتى العرفان النظري يقع في مجال الدراسات الفلسفية، بما تتضمنها من معالجات وتحليلات ذهنية تنخرط تحت نشاط ذهني محض، يحاول أن يفهم المجردات أو بواطن الأمور.

أما العلم الذي يصفه الرسول الأعظم ﷺ بأنه نور يقذفه الله في قلب من يشاء، فمن المؤكد أنه ليس علما يمكن اكتسابه بالتحليلات الذهنية

والفلسفية، وإنما هو علم آخر يتحقق بطريقة السير والسلوك، بمعنى أنه علم عملي يتعرض له السالك، بكل ما فيه من كدح وذكر وتزكية وارتقاء في المعارج من الطبع إلى النفس وإلى الروح، عبر تعليمات عملية (وليس نظرية فقط) يتلقاها السالك من أستاذه، ويطبقها على نفسه في انقياد واستسلام كامل، أو «كالميت في يد الغسال» كما يسميها العرفاء.

إذن فإن طريقة السير والسلوك هو منهج عملي يتعرض له السالك بمحض إرادته وطلبه الحثيث للوصول إلى النور الذي ذكره رسول الله ﷺ. ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾، وتتفجر الأنوار في قلبه ووجوده، نتيجة للتغيرات الجذرية التي تحصل للسالك شبيهة بالتغيرات الكيماوية التي تحول المادة من شكل إلى آخر، أو شبيهة بالإكسير الذي كان يحول الحديد أو النحاس إلى فضة أو ذهب.

إذن فالسالك يتغير كليا بعد معرفة نفسه، ويخرج من إسارة الطبع وسلاسله وأغلاله. فإذا قطع الطالب أشواطا كبيرة في العلوم الإكتسابية، كالفلسفة والمنطق والفيزياء والكيمياء وغيرها، فإن ذلك لا يخرجه من جاذبية الطبع وفلكه، ويبقى كما كان رغم ألمعيته وعبقريته في فلك الطبع، لا يرتقي منه إلى ما هو أعلى منه ـ تماما كالقمر الاصطناعي الذي يبقى في فلكه ولا يخرج منه إلا بقوة وطاقة إضافية. وهذا الفلك يسميه العرفاء بالنفس الأمارة أي هيمنة هذه النفس على الإنسان وعلى كل تصرفاته. فالعلوم الإكتسابية لا تخرج الطالب من هيمنة نفسه الأمارة رغم تقدمه الكبير فيها.

فلقد قال مولانا علي عليه السلام «رب عالم قد قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه». وهذا الصنف من العلماء اذا لم يقربه علمه الى الله، وأوصله الى التواضع وحسن الخلق وطهارة الروح، زاد بعدا عن الله، وكان ضرره أكثر من نفعه. والهداية الكبرى والعلم الحقيقي هو نور الله الذي يهدي لنوره من يشاء، وهو النور الذي يقذفه الله في قلب من يشاء. وكل ما عداه من العلوم التي لا تفضي الى هذا الشرف العظيم، فهي من نوع العلوم الاكتسابية التي

تراكم في ذهنيات الانسان، ومنها العلوم التي تكتسب في الحوزات العلمية من المنطق والفلسفة والفقه، وعلوم اللغة العربية من الاشتقاق والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع.

وربما ولعل تحول ضرر هؤلاء الى خطر جلل، وذلك بتشكيل خطورة على دين الله، بالتفضل والتباهي بحجج الدين وبراهينه التي يستظهرون بها على أولياء الله وعلمائه الحقيقيين، كما حصل في زمان الامامين الباقر والصادق عليهما السلام، ولا زال مستمرا الى يومنا هذا. ولمولانا عليه السلام كلام مع كميل بن زياد ومن ذلك قوله: «ومستظهرا بنعم الله على عباده وبحججه على أوليائه» أي يتباهون ويتفضلون عليهم بهذه الحجج.

وفي عملية الكدح والذكر والأوراد والعبادات والتزكية التي يتعرض لها السالك تحت إشراف وتربية أستاذه وتحت تعاليمه النظرية والعملية التي تساعده على معرفة النفس، يسهل عليه تخطي جاذبية الطبع والخروج من فلكه إلى معارج أعلى، ولكنها ليست نهاية القصة، بل إن الطبع هي العقبة الكأداء التي سهل الله عليه تخطيها.

فالسالك تتغير كل همومه واتجاهاته وتنصب في اتجاه واحد، ألا هو معرفة نفسه وتصفيتها من عيوبها وآثامها، والمراقبة الدائمة عليها لخلاصها من هذه السلاسل والأغلال. وهذه الحالة واضحة جدا في أدعيتنا التي تواردت عن أئمتنا عليهم السلام وتعكس صدقهم في مناجاة ربهم. ونحن نقرؤها دائما في تعقيبات صلاتنا وتمتلكنا حالة الخشوع والخضوع وإظهار الضعف والعجز أمام الباري تعالى واستغفاره واستجلاب عطفه علينا، ولكن فور انتهائنا من قراءة الدعاء نعود كما كنا وهمومنا مبعثرة في عيوب الآخرين كأننا لا عيب فينا. والسبب في ذلك هو عدم تعرض القارئ لتربية المربي في السير والسلوك.

وهذه التغيرات الجذرية في السالك لا يمكن أن تحدث لولا تعرضه لمنهج عملي تحت إشراف أستاذ قطع كل هذه الأشواط وتمرس في المعرفة الذاتية وارتقى معارج النفس والروح. يقول الإمام الباقر عليه السلام لأبي حمزة

الثمالي: «يا أبا حمزة! يخرج أحدكم فراسخ فيطلب لنفسه دليلا، وأنت بطرق السماء أجهل منك بطرق الأرض، فاطلب لنفسك دليلا»[١]. بمعنى أن الإنسان في سيره على الأرض يحتاج إلى دليل فكيف بطريق المجردات الذي لا يحمل في طياته طرقا ممهدة ولا لافتات، كأنه الطريق على ماء البحر لا يترك السائر فيه آثار أقدام. فلو فرضنا راكب سفينة في البحر تحطمت سفينته وهو موشك على الغرق، وعلى مقربة منه تقع جزيرة ولكنه لا يعرف مكانها ولا يرى آثار أقدام على البحر لأولئك الذين نجوا من قبله، فما عليه إلا أن يلتمس دليلا إن هو أراد النجاة. وهذا الدليل هو قطعا ذلك الشخص الذي قطع هذا الطريق إلى الجزيرة من قبله، وهو يعرف الطريق إليها حق معرفتها. فما على الغريق إلا أن يسلم إليه أمره ويأخذ بيده ليوصله إلى محل نجاته في تلك الجزيرة.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٢].فإذا لم تشغل لسانك وقلبك بذكر الله استحوذ عليك الشيطان فهو لك قرين. بمعنى أن النفس البشرية ليست جسدا هامدا بل قوة ديناميكية حركية، فإذا لم تستعمل قوتك لتوجيهها التوجيه الصحيح، فإن قوة شيطانية كامنة فيها ستوجهها إلى اتجاه الضلال والعياذ بالله. فخليق بالإنسان الذي يريد الوصول إلى الله أن يبتعد عن رفاق السوء ويلازم الأولياء بل ويتقرب إليهم ويحبهم.

يقول أحد العرفاء: «إذا لم تستطع أن تصاحب الله فصاحب من يصاحب الله». وقال صفي الدين الأردبيلي: «من يحيا في صحبة أولياء الحق لا يموت أبدا». فملازمة الأولياء توفر له دائما الدليل إلى طريق النجاة من نفسه ومن الشيطان الذي يقول الرسول الأعظمﷺ عنه: «إن الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم». وإذا لم يتعرض الإنسان للنفحات الرحمانية، ولم يتفرغ للسماع إلى الحكمة الربانية، في مصاحبة الأولياء

(١) كتاب أصول الكافي من كتاب الحجة الحديث رقم ٤٦٩.

(٢) سورة الزخرف الآيتان ٣٥-٣٦.

الصالحين، فإنه لا محالة سيصبح فريسة للشيطان وخطراته ونخواته ونزغاته ونفثاته، ويستفحل سلطانه عليه، وينفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر، حتى يعود الى حظيرته، وفي حنادس جهالته ومهاوي ضلالته، ومن ثم يقعي على ذنبه تحت أقدام إبليس إقعاء الكلب الذليل.

علي أصاحب من تصاحب في الورى وأشم في أنفاسه رياها

علي أعاف رفاق سوء في الورى وأحب رفقة من يحب الله[1]

فهذه المعاني تدلك على وجوب اتخاذ أستاذ في طريق المجردات إذا كنت تحب الله وتريد الوصول إليه. فإن لم تفعل فإنك لا محالة ستمسي فريسة للغو والغيبة والكلام الهراء، ومن ثم اجتراح المعاصي والذنوب ما يعرقل طريقك إلى الله. وأيضا ما يمنع الإنسان من اتخاذ أستاذ في طريق الله، هو صفات الغرور والتكبر والعجب الموجودة عنده التي تقول له بأنه الأعلم والأصلح، وأنه يعرف كيف يتصرف بنفسه. كان رسول الله ﷺ يردد كثيرا هذا الدعاء: «إلهي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين». فإذا وكل الله امرىءٍ إلى نفسه ـ والعياذ بالله ـ وقع فريسة سهلة للعجب والطمع وحب الدنيا.

وخليق بالسالك ان يدرع قناع التذلل والتواضع أمام الصالحين من عباد الله، وأن يخلع عن نفسه لباس التعزز والتكبر والعجب والتجبر. فقد جعل الله العز والكبرياء حمى وحرما على غيره، وأخرج إبليس من الجنة عن كبر ساعة واحدة، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمى حرمه على العالمين، كما قال مولانا علي عليه السلام. واذا خلع السالك لباس الكبر والعجب عن نفسه، وادرع قناع التواضع أمام أستاذه، مشى سالما في الطريق الطويل عبر معرفة النفس واتقاء شرورها ـ طبعا تحت إشراف الأستاذ وتربيته ـ وأصبح في النهاية سيد نفسه وكان من قبل عبدا لها.

وأنا لا أنكر وصول القليل جدا من السالكين إلى المقامات العليا من دون أستاذ، إلا أن السلوك وحده من دون أستاذ محفوف بالمخاطر

---

(١) السموات السبع صفحة ٦٢.

والصعوبات، وهذا النوع من السالك يجب أن يبذل مجهودات جبارة أضعاف ما يبذله السالك تحت إشراف أستاذه. بل يواجه صعوبات جمة في طريقه، هو في غنى عنها والتي يسهل عليه تحاشيها بوجود الأستاذ.

وكما ذكرنا فإن طريق العرفان العملي هو خروجك من فلك الطبع. وعلى عكس العامة الذين يقولون بأن قطع العادة عداوة، فإن العرفاء يقولون: «قطع العادة عبادة». يقول مولاي صادق العنقاء قدس سره: «ما دام الإنسان يمضي على سبيل العادة فإنه بعيد عن العبادة، وما دام هو بالنفس مغرور فهو في الحقيقة مهجور». فالأحرى بك أن تخرج من تيار العادة وتدخل في تيار معاكس تكسر فيه العادات الواحدة تلو الأخرى ـ طبعا تحت إشراف وتربية الأستاذ. فطريق العرفان العملي لا يتحقق إلا في المواجهة المعاكسة لتيار النفس التي تصنع العادات. فالنفوس الضعيفة هي كالغثاء تنجر رخيصا مع تيار النهر، في حين أن السالك يبقى صامدا في وجه التيار النفسي، كما تبقى الصخرة صامدة أمام تيار النهر الجارف. فإن لم تعاكس تيار النفس وعاداتها، فإنك مع النفس ومع الشيطان في تياراتهما الجارفة، ولات حين مناص!

وأهم طبع يلازم الإنسان هو النوم. والسالك في فترة صموده أمام الطبع، لا بد له أن يجاهد النوم، حيث يتلقى عبادة خاصة وأورادا معينة من أستاذه، يقضي بها لياليه، مركزا على قلبه، ينتظر الفرج في لياليه، حتى ينبثق النور في ليلة قدره، ويستقبل الأنوار الربانية من خلال نافذة قلبه.

ويصف الشاعر هذه الرياضات في حياة السالك:ـ

بدأوا جهاد النوم في سهراتهم ... وتهجدوا بالنافلات عشاها
صعبت عنانهم لحول منامهم ... فالنوم منهم في بلا وعناها
وجنوبهم متجافيات مضجعا ... وظهورهم متجافيات وطاها
وتلمسوا الوجه الكريم بقلبهم ... وجها له عنت الوجوه عناها

عشقوه إذ بصروه ملء فؤادهم　　عشقوا لطائف نوره بدجاها[1]

وفي قوله:ـ

أورادنا بالليل تنشد وصلها　　ومنامنا من وصلها ورضاها

وعيوننا بالليل ترقب فتحة　　تجلو القلوب بنورها وبهاها[2]

وهناك بين اليقظة والمنام، يتحقق للسالك أشياء، لا يمكن شهودها لولا السلوك وجهاد النفس. فهناك تتحقق له شفافية الجسم المثالي، التي هي حقيقته، والتي يراها بعيون البصيرة ويسمعها بآذان الباطن، التي ذكرها الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[3]. وهناك تتفتح هذه العيون وهذه الآذان، ويتميز السالك عن الكثير من الجن والإنس الذين ذرأهم الله لجهنم كما في الآية.

والشهود ورؤية الحق والحقيقة تختلف عن فهم الحقيقة ذهنيا، كما في العرفان النظري والفلسفة بشتى أنواعها، فهذه العلوم تنتمي إلى الذهنيات، في حين أن العرفان العملي ينتمي إلى الشهود والرؤية كما قال إمامنا علي عليه السلام «رأيته فعرفته فعبدته». وشتان ما بين العلمين!! فعلم العرفان هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء، في حين أن الأخرى هي سياحة ذهنية في مجالات هي محجوبة عن الذهن كأنها السير في الظلام.

وهناك قصة معروفة حدثت بين العارف الكبير أبو سعيد أبو الخير وابن سينا. فابن سينا كان فيلسوفا فذا وعبقريا ندر أن يبرز مثله في العباقرة، وقد سمع عن العرفاء وتجاربهم الشهودية، فأراد أن يصل إليها بذهنه، فقطع المسافات الطويلة حتى وصل إلى القرية التي فيها أبو سعيد أبو الخير. وكان العارف الكبير آنذاك في الحمام العام فزاره ابن سينا هناك.

---

(١) السموات السبع صفحة ٧٢.

(٢) السموات السبع صفحات ١٧٧-١٧٨.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٩.

ومضت بينهما سويعات، وكان في خارج الحمام ناس يشبهون «الصحفيين» في زماننا، فالتقوا بهما كل على حدة. وسألوا ابن سينا ماذا عرفت عن أبو سعيد ابو الخير فقال: «إنه يرى ما أنا أفكر به». ثم سألوا العارف الكبير فقال: «إن هذا الأعمى يمشي بعصاه في الظلام ويريد أن يفهم بفكره ما أراه وأشاهده أنا بعيني».

وهناك أيضا قصة معروفة عن أفلاطون، وهو من أوائل الفلاسفة الذين اعتقدوا في التزكية كطريق لحصول المعرفة. كان يعلم تلامذته بأن العلم ليس مجرد كلام وتوصيف وتبيين، بل هو محتوى وحقيقة ومضمون، وأن الكلام هو مجرد محاولة لحفز الطالب على الحركة باتباع منهج عملي للوصول إلى الحقيقة ومن ثم إلى لمسها والإستقرار فيها. وكان يضرب مثلا بسرداب مظلم تحت الأرض، ولد فيها جماعة من الناس وترعرعوا فيها ولم يجدوا في حياتهم شيئا اسمه النور، ناهيك عن الحدائق الغناء والبساتين الجميلة والمناظر الخلابة. وما أقرب اشتباه الأمثال! كما يقول مولانا علي عليه السلام.

ثم يخرج إليهم شخص ويتكلم إليهم عن النور والشمس والقمر، وألوان قوس قزح والشفق الزاهية، والحدائق والبساتين، والأشجار والزهور والورود، والأنهار الجارية والمناظر الخلابة. طبعا ستتحرك فيهم الأشواق، ولكن تصورهم عن كل هذا سيكون شيئا غير حقيقة الأشياء التي وصفها هذا الشخص، ومن ثم تبقيهم ذهنياتهم في العالم المظلم الذي جربوه طوال حياتهم، في حفنة من الأوهام والتصورات الخاطئة عن هذا الشيء الذي يتكلم عنه هذا الشخص.

وهذه الذهنيات المظلمة التي لم تر النور في حياتها هي حجاب الغرة والغفلة، ولو أنهم رأوا ولو في لمحة عين شعاعا من نور لاستيقظت بوادر الشوق عندهم لرؤية النور، وقامت أمنيات الهمة في أعماقهم لكشف الحجاب والغطاء عن أبصارهم. ولكن أكثرهم يحبون الحجاب والغفلة، وبينهم وبين الموعظة حجاب من الغرة، كما يقول الإمام عليه السلام، وما أعدل

الحكمة الربانية!! وربما برز من هؤلاء الجماعة ألمعيون يتكلمون عن هذه الحقيقة الجديدة في كل إسهاب، ولكن كلامهم عن أوصاف الحقيقة يبقى مجرد كلام، وتصوراتهم تبقى محصورة بالعوالم التي عاشوها وجربوها، بعيدا كل البعد عن واقع الحقيقة التي شاهدها ذلك الشخص، خارج السرداب المظلم، ثم أتى إليهم ليخبرهم بما شاهد ورأى.

وإذا كان هذا الشخص الذي خرج إليهم من عالم النور قد وجد طلابا للخروج إلى النور، فالأحرى بهم أن يتبعوا منهجه العملي، ولا يكتفوا بذهنياتهم التي ما شاهدت يوما في حياتها غير الظلام. والإتباع هو الحركة والخروج بأنفسهم من ذلك السرداب المظلم إلى عالم النور، عبر الدهاليز الضيقة المعتمة ـ تحت إرشادات ذلك الشخص وتوجيهاته العملية ـ ومن ثم مشاهدة تلكم الأشياء الجميلة التي كان يصفها ذلك الشخص. فإذا وجدوها فهموا ما يقوله ذلك الإنسان، وتحولت تصوراتهم وأوهامهم إلى حقيقة ملموسة، وتغنوا بغنائه وطربوا بموسيقاه. ولم يحتج يوما إلى (الألمعيين) الذين لما يخرجوا من الظلام إلى النور، وهم يظنون أنهم وجدوا النور، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[١]. ولم يحتج يوما إلى (الفضلاء العباقرة) الذين كانوا يستعرضون عضلاتهم وفضلهم وعلومهم أمامهم، وهم آنذاك في السرداب المظلم.

ويصف الشاعر شهود العرفاء ورؤيتهم الحقيقية:ـ

فالبعض ودع جسمه في فترة	طاروا الى قلل الجبال ذراها
بعض رأى قدامه جثمانه	متربعا محرابه بشراها
بعض سرى في العالمين بخفة	والبعض طار الى السما علياها
فالروح فارق جسمه في لحظة	فرأى بعين يقينه محياها[٢]

يقولون إنه في قصة أفلاطون عن «السرداب المظلم»، التي ذكرناها

(١) سورة الزخرف الآية ٣٧.

(٢) السموات السبع صفحة ٧٤.

آنفا، وعن الناس الذين كانوا يعيشون في تلك الظلمات، قد أتاهم آت من خارج السرداب، فكلمهم بما رأى خارج السرداب. فتعجبوا واستغربوا من كلامه، وقالوا إنه أتى من عالم آخر يتكلم بما لا نفهمه. وقال الكثيرون منهم إنه يدعي كذا وكذا، وما نظنه إلا مرائيا ومنافقا، ويريد أن يتفضل علينا، فما هو إلا مثلنا لا يزيد علينا شيئا. وقال الآخرون: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، و ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[١]. وقال الآخرون مستهزئين به: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[٢] ويعمل بالتجارة مثلنا. وقال المتزمتون منهم: «إننا لم نجده يصلي ويصوم ولم يحج البيت الحرام ونحن سمعنا عنه كذا وكذا». وقال الآخرون: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾[٣]. أما شرار الناس فطاروا هنا وهناك بأقاويل السوء والبهتان، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويكفئوا الحقائق السامية على وجهها .

قال سبحان الله! ما علي إلا البلاغ! إنني رأيت عالما عظيما مليئا بالأنوار، وبجمال البساتين وخضرتها وطراوتها. ألا تحبون الخروج من هذه الظلمات، والاطلاع على هذه العوالم المشرقة؟ فإن كنتم تحبون ذلك فاقتفوا أثري واحذوا حذوي، وإن كنتم لا تحبون ذلك فأنتم أحرار. . .
وما أنا إلا بشر حظيت من الدنيا بما حظي به المترفون، وابتغيت فيما آتاني الله الدار الآخرة، ولم أنس نصيبي من الدنيا، وأحسنت كما أحسن الله إلي، وأن الله سبحانه وتعالى صان وجهي باليسار ولم يبذل وجهي بالإقتار، وأن كراماته هطلت علي بعد قحوطها، ونعمه تفجرت علي بعد نضوبها، وبركته وبلت علي بعد إرذاذها، وأنه سبحانه اصطنعني على عينه، ودلني على مصالحي، وأخذ قلبي إلى مراشدي، فليس ذلك بنكر من

(١) سورة الزخرف الآية ٢١.

(٢) سورة الفرقان الآية ٨.

(٣) سورة فصلت الآية ٤.

هداياته، ولا ببدع من كفاياته.

ولكن قولوا لي لماذا تلصقون بي أنواع البهتان ومختلف التهم الواهية؟ هل لأنني دعوتكم فجهلتم ما أقوله فأضمرتم لي العداء والكراهية لذلك؟ إنني من عالم آخر ـ رغم وجودي بين ظهرانيكم ـ وقد أشفقت عليكم قعودكم في هذه الظلمات، وتمنيت من صميم قلبي خروجكم إلى عالم الأنوار، وإلى عوالم الجلال والجمال. . . فهل أنا فيما تمنيته مجرم ومذنب!!! بالله عليكم هل في الدنيا شيء أسهل وأبسط من كلام هذا الآتي الجديد الذي نزل عليهم من عالم آخر!!

وما أشبه العرفان بكلام هذا الآتي من عالم آخر! ولا ينحل اللغز إلا اذا كانت الحكمة هي ضالتك، وهل يسع المؤمن أن لا يكتشف ضالته حتى اذا كلفه ذلك التضحيات والمجهودات الجبارة؟ واذا خرج من جماعة «السرداب» قلة يريدون أن يفهموا الحقيقة، وجعلوا الحق ضالتهم، سهل عليهم الوصول الى الحقائق التي أتى بها هذا الآتي الجديد، وليس عليهم إلا ان يبذلوا المجهود للاقتداء بأثره في إيمان ويقين، والخروج من ظلمات السرداب الى العالم المشرق الجميل.

ولكن في السرداب المظلم أكثرية وهو مشفق عليهم إصرارهم في القعود في الظلمات وهم لا يشعرون. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1] فما أكثر تفاخرهم بأعمالهم وهم لا يعلمون أنهم الأخسرون أعمالا. وما أشق وأصعب سعيهم في الحياة الدنيا، ولكنهم لا يعلمون بأنهم قد ضلوا الطريق، واتجهوا الى الشك بدل اليقين، والى الظلمات بدل النور، والى الكبر بدل التواضع، والى حفنة من المعلومات الذهنية بدل العلم الذي هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء، والى العداوة والجدال والخصومة بدل التودد والبشاشة والنصيحة، والى طغيان النفس والشقاء بدل طمأنينة الروح

(١) سورة الكهف الأيتان ١٠٣-١٠٤.

والقناعة والرضا، والى دار الاضطرابات الروحية بدل الهدوء ودار السلام، والى عين الظاهر بدل العيون التي بقيت عمياء في بصائرهم، والى أذن الظاهر بدل الآذان التي تسمع كلام الملائكة في الملأ الأعلى، والى الرياء بدل الاخلاص، والى حب الدنيا بدل الزهد، والى قلب يسود وجهه يوما بعد يوم بدل القلوب التي ذرأها الله فيهم ليفقهوا بها.

فلقد قال مولانا علي عليه السلام «إن الإيمان يبدو لمظة في القلب، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة». واللمظة هي النقطة البيضاء. ويا ليت لهم هدف في نجاة أرواحهم، وأصغوا في سبيل ذلك الى من ينصح لهم وينقذهم، إذن لكان ذلك أسهل عليهم وألين. فالطريق الذي له هدف هو طريق الأكياس، في قول الامام علي عليه السلام «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظماء، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء، حبذا نوم الأكياس وإفطارهم».

كم هم يتباهون بالاعمال. . . ويا ليتها كانت المنجية! وما أعظم إسارتهم للعجب والغرور، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!

أليس خليقا بهم أن يتوجهوا الى العلم والمعرفة الحقة، فربما كانت هي المنجية. . . فلقد قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «إن قليل العمل مع العلم كثير وكثير العمل مع الجهل قليل». لقد ضل سعيهم في الحياة الدنيا، لأنهم سلكوا الطريق الذي يؤدي الى صحراء برهوت، وانحرفوا عن الطريق الذي يؤدي الى وادي السلام. فاذا كانوا قد سلكوا هذا الطريق، فإن كل أعمالهم تقربهم الى عذاب البرزخ وويلاته، ولا ينجون إلا اذا غيروا طريقهم، وعرفوا الهدف الذي خلقوا من أجله، وسلكوا الطريق الصحيح الذي يؤدي بهم الى دار السلام. ولا يكون ذلك إلا بمجالسة المربي والولي المرشد، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[1]. ويقول النبي صلى الله عليه وآله: «لا تجالسوا من العلماء إلا الذي يدعوكم من الخمس الى الخمس: من الشك الى اليقين ومن الكبر الى التواضع ومن العداوة الى النصيحة ومن

(١) سورة الكهف الآية ١٦.

الرياء الى الاخلاص ومن محبة الدنيا الى الزهد».

يا ليت قومي أدركوا وقت السرى   ركب الخلود وصاحبوا حداها[1]

وهو يتمنى لهم ان ترق قلوبهم، وتشف بصائرهم، وتستنير صدورهم، وتجلو فيهم عيون الباطن وآذانه، وتستيقظ فيهم جذوة الضمير، ويتلطف القلب بحب الله، ويبكي بالحنين الى لقائه، وينشد بياض القلب ويطلبه من الله، كما كان داودﷺ يطلبه في مزاميره، وينشد الخلاص من طغيان النفس، ويطلبها نفسا مطمئنة، تحب الرجوع الى ربها راضية مرضية، والدخول في عباده وجنته. ولا يكون ذلك إلا بالخلاص من الشك والكبر والعداوة والرياء وحب الدنيا.

ويتمنى لهم ان يبين في وجودهم وجه الله، ويستشف خماره، ويبزغ جماله، ويهيمن جلاله، حتى يميل حالهم الى جمال، ويحبوا الله من شغاف قلوبهم. فهذا هو الميزان!!! وكل الأعمال بعدها تؤدي الى هذا الهدف النبيل، والكنز الخفي، وتكون منجية اذا كانت في طريق الله. ولا يتأتى ذلك إلا بنيل اليقين والتواضع والنصيحة والإخلاص والزهد. ولقد جاء في الحديث القدسي: «يا أحمد الصوم يورث الحكمة، والحكمة تورث المعرفة، والمعرفة تورث اليقين، فاذا استيقن العبد لا يبالي كيف أصبح بعسر أم بيسر». ويقول: «يا أحمد إن عيب أهل الدنيا كثير فيهم الجهل والحمق لا يتواضعون لمن يتعلمون منه وهم عند أنفسهم عقلاء وعند العارفين حمقاء».

ويا ليتهم تباعدوا عن الريب والشك، وباشروا روح اليقين، وخرجوا من ظلمات الظنون، واستهدفوا اليقين في أرواحهم، وعملوا له بالصوم والتعرض للحكمة والمعرفة. قال مولانا عليﷺ «نوم على يقين خير من صلاة في شك». فما أسوأ انقداح الشكوك في القلوب، ومعتلج الريب في النفوس، والاستكانة الى ضلالة الظنون. ويا ليتهم وقفوا أمام تيار النفس الجارف، حتى لا تغلبهم النفس على ما يظن، بل يغلبونها على ما يستيقنونه.

---

(١) كتاب السموات السبع للمؤلف صفحة ١٩٣.

وما أكثر الأشياء التي استيقنوا منها، ولكنهم أمام أنفسهم عبيد أذلاء ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، لأنهم لم يقفوا يوما رافعين رؤوسهم أمام سلطانها وسيطرتها وهيمنتها، ولم يعرفوا قدر اليقين ومنزلته ومكانته في الدين وفي نجاة أرواحهم. ولم يعرفوا أن الظن وهوى النفوس هي انحراف وتباعد عن الدين واليقين، في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[1]. ولم يرفع الدين واليقين من شيء شرفا إلا أسرعت الظنون وهوى النفوس الكرة في هدم ما بنيا وتفريق ما جمعا، في قول مولانا عليه السلام واصفا هيمنة النفس على مقدراتهم، ووقوعهم تحت براثن الظنون: «تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن».

ويتمنى لهم ان يكونوا محارم الله يستحقون سره، ويكونوا محل جواهر علم الأنبياء والأئمة عليهم السلام. يقول الإمام زين العابدين عليه السلام:

إني لأكتم من علمي جواهره	كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن	الى الحسين وأوصى قبله الحسنا
يا رب جوهر علم لو أبوح به	لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي	يرون أقبح ما يأتونه حسنا

حتى ينزاح الخمار وستر الحجاب، ويخرجوا من الناسوت، ويدخلوا في الملكوت واللاهوت، لأن خمار الجلال ونصيف الغيب والجمال، جعله الله ستر الحجاب عن الغرباء، كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا، كما يقول الإمام عليه السلام. وأين الناسوت والنشأة السفلى عن الملكوت واللاهوت والملأ الأعلى، وعن سرادق عزها وعز بهائها!

ويتمنى لهم جلاء البرقع بهمة المرشد، اذ يوحي اليهم بإذن ربه ما يشاء، فتطرب أسماع الباطن لكلام الرب، كما يقول الله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[2]. فيكونوا قد ناجوا الله وكلموه من قلبه، وسمعوا كلام الله عن طريق وحي المرشد اليهم، وقد فازوا برعاية الولي

(١) سورة النجم الآية ٢٣.

(٢) سورة غافر الآية ١٦.

المرشد ودليلهم الى السموات السبع، بعد ان يكون قد أخرجهم من الضلالة الى أنوار الهداية، بإذن الباري تعالى.

ويتمنى لهم طرد الأغيار واهتماماتها، حتى يكون لهم هم واحد هو الله لا غيره. يقول الله في الحديث القدسي: «يا أحمد اجعل همك هما واحدا، فاجعل لسانك لسانا واحدا واجعل بدنك حيا لا تغفل عني، من يغفل عني لا أبالي بأي واد هلك». ويتمنى لهم التركز في قلوبهم، ونفي الخواطر عنها، والاستقرار في شغافها والنقطة النورانية فيها، حتى تتفجر هناك الأنوار القدسية، وينكشف ميثاق الفطرة الذي عقده الله معهم وهم في عالم الذرة، اذ قال لهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقالوا ﴿بَلَىٰ﴾.

ويتمنى لهم انكسار القلوب، وبزوغ قدسيتها، حتى تسع الله الذي لا يسعه أرضه ولا سماؤه. يقول الله في الحديث القدسي: «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المنكسر». فيذوب ههنا المكان والزمان، وتتحطم سدودها، وتزول السموات والأرضون والقبة الزرقاء ومجراتها ونجومها وشموسها وكواكبها من نقش الوجود. وتتحقق لهم العوالم اللامكانية واللازمانية، حيث تنتهي وكالة الأبدان والأعيان والأشخاص، وتقوم اصالة الهالة والمثال بالعروج الى الملأ الأعلى والسموات العلى.

فترى العيون هناك ما لا تراها في سجون المكان والزمان، وتسمع الآذان النداء: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[(١)]. وتبرز الحقيقة نصب أعينهم في قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[(٢)] ويرون هناك الملك والولاية قد عانقت أهلها، وهم ههنا ملوك على عروشها، فينكشف السراب عن الحقيقة، وزبارج المتاع وزينة الدنيا، التي لا تحمل الاصالة، عن عوالم أصيلة، يا ليت العيون تراها وتتعودها وتعرفها قبل الموت النهائي، وانتهاء فترة الأبدان في عالم الشخص والعيان! فالذي يهم هو

---

(١) سورة ق الآية ٢٢.

(٢) سورة ق الآية ٢١.

تفجيرات الأنوار في الباطن، وانفتاح العيون في الأعماق. أما الأعمال فما أكثر ما تكون كالصبغ الجميل يصبغ به المرء الجدار القذر البالغ السواد. ويكشف الباطن عن طياته لا بالعمل فحسب، بل بالرضا بعمل الآخرين في أكثر الأحيان، في قول الامام عليه السلام «الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم» أو قوله عليه السلام «وعلى كل داخل في باطل إثمان: إثم العمل به وإثم الرضا به».

وهناك تعود الولاية الى أهلها وأصحابها الحقيقيين، وربما كانوا في نظر أهل الدنيا شعثا غبرا وحفاة أقدام، لكنهم في نظر الله ربما إن أقسموا على الله لأبرهم، في قول الرسول صلى الله عليه وآله: «رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره». وربما يبدون للناس يعملون عمل النار، لكنهم يبدون لله من أهل الجنة، كالعارف الكبير بشر الحافي قبل هدايته على يد مولانا موسى الكاظم عليه السلام. يقول الرسول صلى الله عليه وآله: «وإن الرجل ليعمل عمل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة». لأن عاقبة الأمور وخواتيمها بيد الله، فربما الذي يعمل عمل النار فيما يبدو للناس، قد زرع الله في قلبه بذرا لا يريد علوا في الأرض ولا فسادا، والناس لا يعلمون عن هذا البذر شيئا، وينمو البذر الطيب، وتكون عاقبة ذلك الرجل الجنة. يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

ويتمنى لهم ان يروا هنالك الأولياء الفقراء المغمورين، الذين هم في هذه الدنيا عن أعين الناس مخفيون، لأن الناس لا تعلم عن بواطنهم شيئا، ولا يستشفون إشراقات عوالمهم، فهم مغمورون عند الناس معروفون عند الله. ويتمنى لهم ان يروهم هنالك حاسرين رؤوسهم، وقد استظل بظلهم ملائكة السماء، ورمزهم وشعارهم: «الفقر فخري»، وهم مع الأنبياء والصديقين. ويرون في الصدر الرسول محمدا صلى الله عليه وآله وهو يقول: «الفقر فخري» ومن بعده موسى عليه السلام وهو يقول: ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2]، وسليمان عليه السلام وهو يصل نفسه إلى صف الفقراء قائلا: «إنني من الفقراء».

---

(١) سورة القصص الآية ٨٣.

(٢) سورة القصص الآية ٢٤.

والفقر هو العجز الكامل أمام القادر المتعال، والحاجة المدقعة على مائدة الرب الكريم، واليد الممدودة بالتوسل والاستغفار أمام الرب الغفور الرحيم. وهو الواقع والحقيقة التي وعاها الصديقون، فأفرغوها في كامل وجودهم. ولكن أكثرية الناس رغم خطاب الباري لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1]، لا يعون ذلك، ناهيك عن إقرارهم بذلك والتسليم لهذا الواقع العظيم. فهم يظنون بأنفسهم القدرة والكمال والتدبير والخيرة، وهم عن حقيقة فقرهم وعجزهم وحاجتهم غافلون.

وهم اذا قرأوا أدعية الأئمةعليهم السلام ، والتي تطفح بهذه الحقائق، فكأنهم يرددون الكلام كالمسجل، لا تخرج الكلمات من قلوبهم، ولا تصل مناجاتهم الى بارئهم، لأنهم لا يشهدون ظلمات سرائرهم، ولا يقرون بمعاصيهم أمام الله، ولا يعلنون له حقائق بواطنهم، ولا يعترفون له بصدق عبوديتهم، ولا يلحون على عتباته بتوسلهم واستغفارهم، ولا ينوون التوبة النصوح، ولا يشعرون بعظمة حاجتهم، وكمال عجزهم وفقرهم، الى ساحة كرمه وجوده وفضله وإحسانه. وأتعجب كيف تتم استجابة أدعيتهم! والدعاء لا يخرج من القلوب المنكسرة، ولا يعبر عن صدق عبودية العبد ومشاعره وحاجاته ورغبته في الرجوع الى الله، واستعطاف جوده وكرمه!!

وكيف تتم الاستجابة والداعي بعيد كل البعد عن الله وعن أوليائه الدراويش الفقراء، واللهو أحب إليه من الذكر ـ والعياذ بالله ـ ولكنها الحقيقة المرة ظاهرة عند كثير من الناس، كما قال مولانا عليعليه السلام «اللهو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء». ألم يكن الأجدر به أن يناجي ربه على الفطرة والطبيعة، من دون رياء وتكلف، ويعرض عليه معاصيه وذنوبه، ويستعطف منه المغفرة، ويطلب منه الهداية بصدق الطلب، فإنه يهدي لنوره من يشاء، في قوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[2].

---

(١) سورة فاطر الآية ١٥.

(٢) سورة النور الآية ٣٥.

ويتمنى للحمقاء منهم والذين هم عند أنفسهم عقلاء، كما يقول الحديث القدسي، أن يستيقظوا من السبات العميق، وأن يتنبهوا من سنة الغفلة، وأن لا يسكروا سكر الضلالة، وأن يملكوا لسانهم، ويبكوا على خطيئتهم، في قول الرسولﷺ: «طوبى لمن ملك لسانه وبكى على خطيئته». وأن يتعرضوا لنفحات الله ويستمعوا إلى الحكمة ولا يعرضوا عنها، في قول الرسولﷺ: «وإن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها ولا تعرضوا عنها». وأن يشتغلوا بعيوبهم عن عيوب غيرهم، في قول امامنا علي؈ «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب غيره»، وكما قال الله في الحديث القدسي: «واذا نظرت الى عيوب الناس ونسيت عيوبك فقد أرضيت الشيطان وأغضبت الرحمن».

وأن لا يغتابوا المسلمين ولا يتبعوا عوراتهم، في قول الرسولﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولما يدخل الايمان قلوبهم: لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فان من يتبع عورة أخيه، يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته». وهو يتمنى لهم الخير من عند ربهم، وأكبر الخير أن يبصرهم الله بعيوب أنفسهم، في قول الرسولﷺ: «اذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه».

وقضت الحكمة الربانية أن طلاب النور قليلون، وأن القلة منهم يتحركون في إطار المنهج العملي، وأن الكثير من هؤلاء القلة يتغيرون عن كثير من حظهم، حتى أن شخصا في عظمة علي ؈ لا يستطيع مداواتهم، خوفا من أن يتحول مرضهم الى مرض أعصى وأعتى، كما ذكره؈ في رسالته الى أبي موسى الاشعري: «فإني أداوي منهم قرحا أخاف أن يعود علقا». وأن قلة القلة يعرضون بوجوههم عن الكبر الذي في صدورهم، ويتخذون التواضع مسلحة وحاجزا بينهم وبين إبليس، ويسلمون بقبول المعلم والمربي، حتى يكون الكبر هو أول شيء يحطمونه في طريقة السير والسلوك، وأول قربان يقدمونه على مذبحة التلمذة المقدسة.

أما الأكثرية فهم تغلفهم الخصال التي تشدهم إلى الظلام، وتعترضهم الحمية، وتقدح في قلوبهم من نار التعصب والكبرياء، وينغمسون في الخصام والكراهية والعداء وملاقح الشنآن، وفي النخوة والطاغوت والبغضاء ومنافخ الشيطان. ولا يطمحون إلى تغيير نفوسهم والإرتقاء إلى ما هو أعلى منها. وحتى إذا أرادوا ذلك تعوزهم الهمة للجهاد والتزكية عن خصال الظلام، كالعجب والغرور والغفلة وحب الدنيا، والتباهي بما كسبوا من المتاع، ومن جملتها متاع العلم.

يقول الامام علي عليه السلام «فلئن أمر الباطل لقديما فعل ولئن قل الحق فلربما ولعل». والكلمتان الأخيرتان «فلربما ولعل» هي روح الله الذي لا ييأس منه إلا القوم الكافرون، وهو الأمل الذي ينطق به لسان العارفين، وتبتهج به قلوب الأولياء والصديقين، وهو الباب المفتوح على مصراعيه يدخل منه العاصون، والفرج الذي ينتظره أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم، وأمرهم الله أن لا يقنطوا من رحمته في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] وفي حطام هذه الفطرة ربما كانت هناك بقايا وهي التي تطرب للنداء القدسي، وتنجذب إليه ومن ثم تدخل في طريقة السير والسلوك.

ويصف الشاعر غربة الأولياء وأملهم في بقايا الفطرة بين حطامها:ـ

ورأى القليل من الورى في وعيهم ... وكثيرهم في غفلة وكراها

فتيقنوا أن الحكيم بحكمة ... خلق الوقود لحر نار لظاها

وبأرضهم خلق القليل لنفسه ... ولخدمة الغيب الخفي براها

وغدا يفتش عن بقايا فطرة ... فلعل بين حطامها بقياها[2]

وحتى الأنبياء بحاجة إلى معلم، كما حصل لموسى عليه السلام حين أرشده

(١) سورة الزمر الآية ٥٤.

(٢) السموات السبع صفحة ١٣٦.

الله إلى معلم باطني وهو الخضر عليه السلام. فذهب إليه يتبعه فتاه يوشع بن نون. يقول الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾(١) والأنبياء قد تساموا وتعالوا عن رذيلة الكبر، فهم يتبعون النداء الرباني إلى حيث دعاهم من دون أي اعتراض. وكان من قصة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام ما جاء مفصلا في كتاب الله، مما يدل على هيمنة العلماء الباطنيين على أمور هذا الكون بإذن ربهم.

وجعلت في أرض الفرات معلما   خضرا لأخفى من خفاء خفاها
وعلمت أني إن لقيت ببابل   خضرا سجدت لقدسه بجباها(٢)

وحتى في زمان أئمتنا عليهم السلام كان المريدون قليلين، وكانوا يعدون بالأصابع، إلا في زمن الخلافة العلوية، وزمن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، حيث توسع نطاق التلمذة بسبب الحرية السياسية في أواخر العهد الأموي. أما في غير ذلك فإن أئمتنا عليهم السلام قد أزيحوا عن الحياة العامة بسبب جور الجائرين، إلا أن المريدين القليلين كانوا موزعين في أرجاء العالم، لحمل مشعل الهداية لمن أراد ذلك من عباد الله الصالحين. فكانوا كالبدور العاكسات ضياء الشمس في الليلة الظلماء، يستضيء بها العاشقون لوجه الله، ويستنير بها الطالبون لنور الحق، الذين ينطلقون من بحر الشريعة، ويركبون سفينة الطريقة، في اتجاه درر الحقيقة، في خفاء الأصداف في قعر البحار، بغرض الوصول الى هذه الدرر والأسرار الإلهية.

ويشبه الشاعر العرفاء بالبدور في زمن الغيبة:ـ

كالشمس ترسل نورها في ليلة   نحو البدور العاكسات ضياها
حتى ترى النور الجميل بلهفة   طلاب نور الحق في ظلماها

---

(١) سورة الكهف الآية ٦٥.

(٢) السموات السبع صفحة ١٤٨.

أهل الحقيقة درها في قعرها   أهل الطريقة فلكها بعلاها
أهل الشريعة زاخر من بحرها   تحوي السفائن والحلى وغثاها[1]

أما اليوم فكما كان بالأمس وكما يكون في الغد، فإن الملتمسين لجوهر الحقيقة متوجهون إلى وجه الله كما جاء في دعاء الندبة: «أين وجه الله الذي إليه يتوجه الأولياء». فالشوق إلى هذا الوجه الكريم، والحنين الدائم إليه، وهمة الرجال في مناجاة الرب لتزكيتهم وإعدادهم لملاقاة وجهه. . . هذا هو مفتاح الوصول إلى الحرم القدسي. والطالبون الذين يسعون إليه حثيثا هم بحق أولياء الله الذين يرعاهم الله حق رعايته ويوليهم حق عنايته، وهم تحت سمعه وبصره، ويلهب في قلوبهم الشوق، ويمتحنهم على هذا الصراط المستقيم، ليعرف مدى صدقهم وإخلاصهم وتفانيهم على هذا الصراط للوصول إليه.

فالولاية من فيوض الرب يفيضها عليهم ويقذف النور في قلوبهم، وقد خص لنفسه نعماء الهداية. يقول الحق: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2]. وما على الرسل إلا البلاغ، أما الهداية فمن الله سبحانه وتعالى. فمن أراد الهداية اتبع الأولياء، وتعرض للنفحات الرحمانية، وعشق مصاحبة الله ومصاحبة من يصاحب الله عز وجل.

ويصف الشاعر آل محمد ﷺ الذين هم وجه الله الذي إليه يتوجه الأولياء:-

أترى ولايتها تنال بدونهم   أم دونهم سهلت مراس سماها
فهم تراث من قرابة أحمد   بل هم لعهد رسالة ذكراها
وأحار من آل تواصل ركبه   فكأن هم في العالمين لطه
فمحمد ورسالة أبدية   تحيا بآل محمد محياها

(١) السموات السبع صفحة ٧٩.

(٢) سورة القصص الآية ٥٦.

والسالكون طريقنا وضحت لهم أن الولاية من فيوض إلاها[1]

فمن الطبيعي أن يكون مثل هذا السالك، الذي استقام على الصراط، محشورا مع صنف الأولياء وأن يكون في معيتهم وصحبتهم. فلقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾[2] فالطريقة هي القيام لله مثنى وفرادى، فلا بد من التوجيه الصحيح، وحلقات الذكر، ومصاحبة أحبة الله، حتى يتقوى السالك أمام عتاة النفس ومردة الشيطان وعمالقة الهوى. فلقد قال الرسول الأعظمﷺ: «المرء على دين خليله فانظر من ذا تخال».

ثم أن طريقة السير والسلوك التي تعدك للقاء الله هي التي تقوي فيك حب الله وعشقه، وتحضك على ترك الهوى ومفارقة الخصال الذميمة، وتغسل الأدران ظاهرها وباطنها من وجودك. وفي المراحل المتقدمة تعلمك الكتاب والحكمة، وتوجه قلبك نحو الله فقط حتى يكون العشق والصفاء خالصا له وحده، ويكون المطلوب منك التسليم كالميت في يد الغسال، أو المريض على منضدة الجراحة في يد الجراح الماهر. فإن اعتراضات النفس تعرقل تقدم السالك في الطريق، كما أن اعتراضات المريض وهو على منضدة الجراحة تؤثر سلبا على نتائج الجراحة، حتى ولو كان الجراح أمهر الجراحين في العالم.

وطاعة الولي المرشد هي طاعة الله، وكلما أخلصت الطاعة خفت الأرواح، وسهل المعراج والطيران الى أعلى عليين. وحبذا لو أصبحت الطاعة شعار الروح، وحادية الحق في أعماق السالك، ولطفا بين الأضلاع، وأميرا حاكما في كل الخلايا، ومنهلا لطلاب ماء الحياة، وشفيعا في طريق العروج، وجنة من الأهوال، ومصابيح القبور، وطمأنينة النفوس، وسكنا وخلاصا وفلاحا. فلقد قال مولانا عليعليه السلام «فاجعلوا طاعة الله شعارا دون دثاركم، ودخيلا دون شعاركم، ولطيفا بين أضلاعكم،

(١) السموات السبع صفحة ١٥٤.

(٢) سورة سبأ الآية ٤٦.

وأميرا فوق أموركم، ومنهلا لحين ورودكم، وشفيعا لدرك طلبتكم، وجنة ليوم مفزعكم، ومصابيح لبطون قبوركم، وسكنا لطول وحشتكم، ونفسا لكرب مواطنكم».

والشيطان دائما بالمرصاد وهو القائل مخاطبا الرب العظيم: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[1] وهذه الآية الكريمة تعني السالكين فهم على هذا الصراط، أما غيرهم فلا حاجة للشيطان أن يقعد لهم صراط الله المستقيم، لأن الشيطان يجري فيهم مجرى الدم كما قال الرسول الأعظم ﷺ. فالذي لم يسلك وعشا عن ذكر الرحمن قيض الله له شيطانا فهو له قرين، والشيطان مهيمن عليه ويتقاطر من كل أعضائه وجوارحه وحركاته وسكناته.

فكما أن وجه الإمام هو وجه الله فكذلك ولاؤه هو ولاء الله. والمعراج هو الطيران إلى أعلى عليين، وأجنحته هي الولاء والمودة في القربى. وبهذه الأجنحة القوية يسهل الارتقاء والعروج من أفلاك العوالم السفلى إلى الملأ الأعلى والمراتب القدسية العليا.

ويصف الشاعر أسرار أجنحة ولاء أهل البيت عليهم السلام :ـ

فسراهم سر سرى وبسرهم ... همنا هياما في ربى بيداها
وجناحها في العاليات ولاؤهم ... سلم لهم في طاعة عمياها
وولاؤهم في العالمين حديثنا ... وحديثه بالحب في قرباها
وبسرهم سرنا لفي أسراره ... دخلوا بنا ليلا لفي إسراها
وبراقهم حملت لطائف روحنا ... في رحلة غنت لها شعراها
وفؤادنا في حبهم لمتيم ... وقلوبنا ريانة بهواها
أهدوا لنا من مشعل في روحهم ... ومضت لنا من بارقات سناها
وحريم آيات لمن أسرارهم ... أهدت لنا قبسا لمن ومضاها
عرجت بنا في هالة من نورها ... صرنا لفي أسرارها حيراها

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٦.

همنا بهم وبجدهم في رحلة　　كادت تزول بها قلى رضواها
هنئت معيشتنا برفقة زمرة　　من سدرة في منتهى علياها
فاضوا بموكب حسنهم وجمالهم　　بمجرة كان الجلال رداها[1]

والطريقة هي كالسفينة تمخر عبابها فوق بحر الشريعة، ويقودها قائدها إلى مواقع در الحقيقة في البحار الغامرات. فإذا كنت في مثل هذه السفينة فلا بد أن تنتهي الرحلة المقدسة إلى الحقيقة في عالم الله. والراكبون على السفينة ليس لهم هم إلا حب الرسول وآله، وليس لهم غناء إلا في ثنائهم. وهم لشدة القربى والزلفى يتغذون من كنوز أنفاسهم، ومن دافئات زفيرهم وشهيقهم، ولا تستقيم لهم حياة إلا بهذا الغذاء القدسي.

ويصف الشاعر غناء السالكين وثناءهم لآل بيت الرسولﷺ بقوله:ـ

ولهمنا حب الحبيب وآله　　وغناؤنا في العالمين ثناها
أنفاسهم غذت نفيس كنوزنا　　فلنحن من أنفاسهم أحياها
وصدورنا من دافئات زفيرهم　　وشهيقهم من قدسها طفحاها
وعيوننا في جلنار وجوههم　　أمست بلون وجوههم حمراها
ونفوسنا من عطر أنفاس لهم　　طفحت بطيب عطورها وشذاها[2]

وفي هذه الرحلة المقدسة يحظون بأسرارهم القدسية. وفجأة ينفجر كتاب الله طاقة وقوة، ويستعيد حياته كما لو كانت كلماته المقدسة تخرج الآن من فم الرسول المقدس ﷺ، ويتفجر القرآن الكريم دررا وحكمة. ويعلمهم قائد السفينة الكتاب والحكمة في عملية قدسية شبيهة بتعليم الرسولﷺ وصيه علياًعليه السلام كما في قول الإمامعليه السلام «علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب»، أو في قولهعليه السلام «هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة»، فكأنها عملية انعكاس الشيء على المرآة، أو انعكاس الحقائق الأزلية على مرآة البصيرة الصافية.

---

(١) السموات السبع صفحات ١٥٨-١٥٩.

(٢) السموات السبع صفحة ١٧٢.

وشبيهة بما ذكره الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[1]. فهو يفجر عين الحكمة تفجيرا، ويتلقاها السالكون على صدورهم ويحسون بثقلها، فكأنهم في لحظة وقد فتح الله عليهم فتوحات العارفين، وفتحت السماء عليهم أبوابها وانهمرت عليهم سيول الكتاب والحكمة. إنها عملية قذف النور وتفجير العيون، وليست عملية تدريجية في اكتساب الذهن للعلوم كما في علوم الأبدان أو علوم الظاهر. فهم حينئذ يشاهدون المعاني جلية ببصر الله من دون حاجة إلى وسيلة الكلمات والألفاظ والأسماء. وما أشبههم بالذين وصفهم مولانا عليه السلام بقوله: «وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة الى دينه».

ويصف الشاعر عملية قذف النور في قلوب الأولياء بقوله:ـ

وبسرهم عشنا ونلنا جودهم	جدنا بسرهم لأهل صفاها
عشنا خبايا في حريم علومهم	صنا خبايا من علوم خفاها
ولقد شففنا بحرهم في غمرة	وقد استشفت روحنا مغزاها
بدت المسمى وانمحت أسماؤها	ذاب الكلام كما اعتلى فحواها[2]

وكما ذكر في كتاب «لب اللباب» لحجة الإسلام السيد محمد حسين الحسيني، فإن طرق الصوفية يبلغ عددها حوالى مائة طريقة، منها ٩٧ في العامة وثلاثة فقط في الخاصة. وطبعا كل هذه الطرق تنتهي سلسلتها إلى مولانا علي عليه السلام، وكلها تدين بالولاء لأهل بيت العصمة ومعدن الطهارة. إلا أن الفرقان أو الفارق الحاسم هو اعتقاد الخاصة بوجود الإمام الحجة المنتظر عليه السلام حيا بين ظهرانينا، وهو المعلم الأول للأولياء، وما الأبدال إلا كالبدور تعكس ضياء شمسه في عهد الغيبة وظلمة ليلها الطويل.

فكما ورد عن اشتياق سيد علي القاضي وسيد حسن المسقطي لملاقاة

(١) سورة الدهر الآيتان ٥-٦.

(٢) السموات السبع صفحة ١٧٣.

الإمام الحجة ﷺ، فهذا الشوق لرؤية الطلعة الرشيدة هو سر الارتقاء في معارج السلوك إلى سدرة المنتهى، وما أكثر ما يتوقف الارتقاء في نصف الطريق لعدم وجود هذا العنصر الغيبي عند السالكين. فالعترة هو فرقان السير والسلوك عندنا، وهذا يعني ارتقاء المعارج إلى نهايتها في مجاورة منازل العترة ومقاماتهم. فهم سراة طرائقنا، ونحن نهل ماء الحياة من عيونهم لا من أفلاج غيرهم. ننهل ماء الخلود عذبا زلالا يهب الحياة الخالدة، ولم ينتن كما في الأفلاج بتوقفه هنا وهناك.

ويقيننا منهم حيث فاق رواسي الجبال، ونحن معهم في فلك البقاء وسفينة نوح، وهي ترسو على الجودي وعلى الأرضية الصلبة وميناء النجاة. وحولنا طوفان وما أكبره من طوفان! وقد طغى على الخلائق طوفان ظلمهم وضلالتهم، وكل منهم يقول: ﴿سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾[1] ويأتي الجواب من السفينة: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾[2]. والذين ذاقوا ماء الخلود أصبحوا ملوك الخلد أو «ملوك العاقبة» كما قال مولانا الباقرﷺ أمام الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك: «نحن ملوك العاقبة». فهم لا يموتون أبدا، بل هم أحياء عند ربهم يرزقون.

ويصف الشاعر تمسك العرفاء بالعترة من أهل بيت الرسولﷺ، الذين وصفهمﷺ: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى»:ـ

ولعترة فرقان سير سلوكنا	وهم سراة طرائق بسماها
ولقد شربنا من عيون معينها	وتركنا ماء أنتنت بغثاها
ولنا العيون لغيرنا أفلاجها	ولنا الثريا غيرنا بثراها
ويقيننا فاقت رواسي طودها	ورست على الجودي فلك بقاها
فلنحن في فلك البقاء وحولنا	طوفان نوح تزدري صرعاها
وملوك خلد نحن في جوف الثرى	وهم على ساحاتها قتلاها

(١) سورة هود الآية ٤٣.

(٢) سورة هود الآية ٤٣.

ولنحن بعد منية أحياؤه وهم لقبل منية موتاها
ولنا لبعد رسولنا في عترة فلك النجاة وعروة وثقاها[1]

والأولياء الذين هم على سفينة النجاة لا يتوقفون عن الأوراد التي كتب وصفها القائد، وقد تبدل الذكر عندهم إلى الذكر الخفي، حتى أن قلوبهم أصبحت دقاقة من وردهم، وأنفاسهم دافئة من حرارة الذكر والعشق والهيام. وغدت الأسرار المحمدية تسمو بهم، ومشوا على الصراط وهو أشد من السيف، ولكن لم يحملوا ثقل الهوى، حتى يثقلوا على الصراط فيقطعهم، كما يقطع السيف الشيء الثقيل الذي يمشي عليه. وجاوزوا الصراط الذي هو أدق من الشعرة، فقد حافظوا على توازنهم الدقيق الكامل عند عبورهم على هذه الشعرة، لخفة روحهم وطهرهم وخلوها من أثقال العتو والطغيان والعصيان.

ويصف الشاعر أسرار القربى والزلفى في جوار أهل البيت عليهم السلام :-

وقلوبنا من وردهم دقاقة أنفاسنا من دفئهم طفحاها
نفس الحياة لطيفة في فلكهم وثمود ناقتها بنا سقياها
وسمت بنا أسرارهم في عزة وأسرة رب السما أولاها
وصراطنا كالسيف تقطع عابرا إن كان في قطمير ثقل هواها
وكشعرة ضاع التعادل فوقها إلا بخفة طهر روح هداها[2]

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3]. وقد أوتي الأولياء هذا الفضل من الله بسبب محمد وأهل بيته الأطهار سلام الله عليهم، ولولاهم لأتعجب كيف يصل هذا الفضل العظيم لهؤلاء الفقراء المساكين! فمحمدصلى الله عليه وآله الطاهرون هم السبيل إلى الله، وهم الدليل إلى اللطائف السماوية، وإلى حقيقة خلود ذواتنا، وإلى النعيم المقيم فيها، وإلى جنان وجودنا، هربا ونزوحا عن الحجيم

(١) السموات السبع صفحات ١٧٣-١٧٤.
(٢) السموات السبع صفحة ١٧٤.
(٣) سورة الحديد الآية ٢٩.

الجاثم على صدورنا. يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾[1]. ويقول بعد ذلك: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[2] فهم الدليل إلى هذا النعيم الدائم، والسعادة التي ننشدها ولكن ما أكثر من ضلوا الطريق إليها.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[3] ونحن في الغيبة الكبرى قد تفضل الله علينا بالأبدال من أمثال سيد علي القاضي وسيد حسن المسقطي وغيرهم لكي يصلونا بالأجر المحمدي وبالحجة الغائب المنتظرعليه السلام حتى نتخذ إلى ذي العرش سبيلا. فهم وجه الله ونورهم نور الله وعشقهم عشق الله وسرهم سر الله. والأولياء يلتمسون الحظوة عندهم والدخول إلى حريم أسرارهم حتى ينالوا بفضلهم الجذبات الرحمانية التي قال عنها الرسول الأعظمﷺ: «جذبة من جذبات الرحمن تعادل عبادة الثقلين».

ويصف الشاعر أسرار علم العترة من آل الرسولﷺ:ـ

فهم السبيل إلى العلي بعرشه ... وهم الدليل إلى زقاق سماها
من عترة خدمتهم ملك السما ... والجبرئيل بليلها وضحاها
هم وجهه في العالمين فنورهم ... نور الإله ورب عرش علاها
فهم الدليل إلى خلود ذواتهم ... وإلى مقيم نعيمها ومناها
وهم الدليل إلى جنان وجودهم ... وإلى نزوح عن حطام لظاها
وهم الدليل إلى السعادة فيهما ... في عيشة الأولى وفي أخراها
وهم الخلاص لمن رداء منية ... وهم الحياة وخلدها وطراها[4]

فهم ساداتنا وما نحن إلا جمع من المتسولين على موائدهم، نتسول منهم الفضل العظيم، فعسى أن يطفح علينا من إنائهم ماء الحياة وماء

---

(١) سورة التكاثر.

(٢) سورة التكاثر.

(٣) سورة الفرقان الآية ٥٧.

(٤) السموات السبع صفحات ١٧٥-١٧٦.

الخلود والبقاء. وهل لا يستحق ذلك منا ذل التسول وإلحاح السؤال؟ نعم هكذا يفعل الشجعان الشرفاء على عتبات السماء. فالسالكون يجلسون بأدب جم وفي خضوع وخشوع تامين في حضورهم، طالبين صقل الروح وجلاه، عسى أن تطفح عليهم الهداية من كؤوسهم. وفي هذه الحالة من الفقر التام تجلو مرآة قلوبهم ويمحي الغبار عنها ويبزغ الكوكب الدري. نعم بفضلهم وبيد لهم بيضاء تتفجر عين الحياة في قلوب الأولياء، ومن ثم يفجرون من زلال مياهها روحا وريحانا في جميع أرجاء المعمورة، ليجعلوها أبوابا فتحا الى فضل الله وكرمه وجوده، وأسبابا ذللا لعفوه وغفرانه.

فهم الفقهاء الحقيقيون الذين لا يقنطون الناس من رحمة الله، ولا يؤيسونهم من روح الله، ولا يؤمنونهم من مكر الله، في قوله عليه السلام «الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله». فطريقة الأولياء تفتح أبوابها للعاصين مهما كبرت معاصيهم حتى يدخلوا في رحمة الله، في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾[١].

وما أكثر العاصين الذين ختم الله أعمالهم بعمل أهل الجنة، كالعارف الكبير بشر الحافي وغيره. وطريقة الأولياء تحذر «المطيعين المتزمتين»، الذين لا بصيرة لهم في أحناء الحكمة الإلهية وجوانبها، أن لا يركنوا الى طاعاتهم الظاهرية، وأن لا يتباهوا بأعمالهم، وأن لا يتفضلوا ويتكبروا على الأولياء بحجج الله، وأن لا يأمنوا مكر الله، في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٢]. وليعتبروا بكلمات محمد صلى الله عليه وآله القدسية: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم عمله بعمل أهل الجنة»، أو بقوله المقدس: «إن الرجل ليعمل عمل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل

---

(١) سورة الزمر الآية ٥٣.

(٢) سورة الأعراف الآية ٩٧.

عمل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة».

ويصف الشاعر خشوع السالكين على موائد الرحمة في حضور الولي المرشد حتى يطفح عليهم من إنائه ماء الحياة:ـ

طفحت علينا من إناء نبوة ماء الحياة وخلدها وبقاها
وتفجرت عين الحياة بقلبنا وبقوة بيد لهم بيضاها
فإذا دعيت الى موائد رحمة بحضور صيقل أمر روح جلاها
فاجلس على أدب لنيل ثمارها فعسى تفيق لمن سبات كراها
فقد انجلت مرآتنا بخضوعنا وخشوعنا في القرب من عرفاها
طفحت علينا عذب ماء هداية من كأسهم وهم ملوك حباها
محي الغبار لعن صحيفة قلبنا فالكوكب الدري عاد سناها
فقد امتلأنا من مصابيح الجلا وقد استعادت دارنا مشكاها[1]

وبالنسبة لوجوب الأستاذ في السير والسلوك من وجهة نظر السيد علي القاضي ـ قدس سره ـ هو قوله: «إن أهم ما يحتاجه السالك في طريق العرفان هو الأستاذ الخبير، المتحرر من الأهواء، والإنسان الكامل المتبحر في المعارف الإلهية، والذي طوى إضافة إلى سيره إلى الله ثلاثة أسفار أخرى، وكانت سياحته في عالم الخلق بالحق. ولو قضى السالك إلى الله تعالى نصف عمره في البحث عن أستاذ، لم يكن عندي ملوما. فإن حصل على الأستاذ الكامل فقد قطع نصف الطريق».

ولقد ذكر السيد محمد الحسين الحسيني[2]: «فقال السيد (هاشم الحداد) لقد انكشف لي مطلب جديد، وهو أن تربية الإنسان هي عينا بمثابة هذا الطابوق الذي يعمل هؤلاء العمال في صناعته. فهذا الطين مهما كان ملائما لدرجة كبيرة ومتماسكا لكنه لا يصبح طابوقا بشكل تلقائي، بل إنه يحتاج إلى الخلط والمزج بالماء بقدر معين، ثم إلى تحريكه وتقليبه

---

(١) السموات السبع صفحات ١٧٥-١٧٧.

(٢) الروح المجرد صفحة ٦٠٨-٦١٢.

لتتماسك أجزاؤه، ثم إلى صبه في قوالب معينة ليخرج بهذه الأشكال المكعبة التي تشاهدونها.

والنفوس البشرية هي الأخرى تحتاج في تكاملها إلى أستاذ عليه أن يوصلها من حالة الاستعداد المحض إلى الفعلية. فالخوف والسرور، القبض والبسط، والوعد والوعيد، والاشتغال بالأعمال التي توجب رفع الحجب ينبغي تحققها لهذه النفوس لتصل إلى مرحلة التوحيد الكامل. وهذا ما يمكن الوصول إليه فقط بتدبير وتصرف وتعليم وتربية أستاذ كامل ولمدة طويلة. وبغير ذلك فإن تلك النفوس ستبقى بحالتها الأولية أو ستخضع لتغييرات عشوائية لا تحكمها أسس وأصول حتى يحين موتها.

وهذه التربية تحت إشراف الأستاذ وولايته لها حكم أعمال تحريك الطين وتقليبه ومزجه ثم صبه في قوالب ليصبح له قيمة ويمكن الاستفادة منه.

ولو انقضت على هذه الأراضي آلاف السنين ولو هطلت عليها الأمطار وسطعت عليها الشمس بأشعتها، فإنها ستبقى مع هذا كله في حالتها الخام الأولية ولن يسمح هذا التراب في ذاته لنفسه بالتحول إلى طابوق، بل إن يد المربي الخارجي هي التي تحدث فيه تغييرا وانقلابا وتمنحه فعليته.

وعليه فإن الأستاذ ينبغي حتما أن يكون مسلما شيعيا قد وصل إلى التوحيد وامتلك مهارة في فن تربية الطلاب، لأن من المحال عليه ـ بغير ذلك ـ أن يتمكن من إخراج الطالب في صورة كماله. ونعني بالشيعي: التابع لنهج الولاية والسائر على خطها، وبالمسلم: التابع لشريعة خاتم المرسلين ومنهاجه وسنته. فهذان هما الجناحان لتحليق الروح في فضاء عالم القدس، وسيمكن لأستاذ بهذه المواصفات إيصال طينة الوجود والفطرة المستعدة في طريق النبوة الخاتمة والولاية الخاتمة إلى غاية الكمال ومنتهاه الذي يمثل أعظم مراتب الإنسانية ودرجاتها.

أما لو كان الأستاذ غير مسلم أو غير شيعي، فإن بصيرة كهذه ستنعدم لديه، كما أنه سيفتقد الاستعداد والقابلية لإجراء هذه التغييرات والتبدلات.

وأما لو كان الأستاذ مسلما شيعيا لكنه لم يطو بعد جميع مراحل السلوك ومنازله، فإنه سيفتقد إمكانية التعليم والتربية إلى هدف خاتمة النبوات وخاتمة الولايات، هدف لم يطو طريقه بنفسه بعد ولم يطلع على أسراره وخفاياه.

ولذلك فإن النفوس مهما كانت ذات قابلية فذة واستعداد كبير، فإنها لن تتمكن من طي هذا الطريق لو حاولت ذلك باتباعها فكرها وإرادتها وبتعلقها في العمل بالمستحبات والرياضات المشروعة، لان الطريق إنما هو طريق العبور من النفس وتخطيها، فكيف يمكن للنفس أن تتخطى نفسها وتفنى في حين أن إرادة هذا التخطي وهذا الفناء من رغبات النفس وحين يحصل ذلك لتقوية النفس ومن أجل كمالها؟

وعليه فإن نفس الإنسان مهما سعت وجهدت فإنها لن تخرج من دائرة إرادة النفس ورغبتها، وهي محتاجة في وصولها إلى تضحية ينبغي حتما أن تحدث بيد الغير خلافا لرغبة النفس وإرادتها. وهكذا فإن حصول الكمال للإنسان أمر غير ممكن إلا بحصول الإفناء في الله، وهو أمر لا يمكن حصوله على يد الإنسان نفسه.

أما الرجوع إلى أي أستاذ ولو كان غير كامل وغير ممتلك للتوحيد المحض على نهج خاتم النبيين وخاتم الوصيين فهو أمر خاطئ أيضا، لأن غاية درجة تربية الأستاذ وتكميله هي أن يربي السالك ليصير نظيرا له، فكيف يمكن لأستاذ لم يحز بنفسه ذلك المقام أن يوصل التلميذ إلى ذلك المقام والمنزلة حيث إيداعه على مذبح التضحية؟

على أن من الممكن أن يكون هناك البعض من المسلمين أو من الشيعة ممن تميزوا بتدينهم وصلاحهم الظاهر، وممن امتلكوا النية الحسنة والنهج النزيه، وممن أعرضوا حقا عن الدنيا والتفتوا إلى عالم العقبى، لكن هؤلاء أنفسهم لم يصلوا إلى التوحيد المحض و «لا إله إلا الله وحده

وحده». وأمثال هؤلاء ليس لهم الحق في إرشاد الآخرين وإعانتهم في السلوك، ذلك لأنهم ليسوا أفضل من الأنبياء ، ولو قدر اليوم لنبي من أعاظم الأنبياء أن يبعث حيا، كموسى أو عيسى على نبينا وآله وعليهما الصلاة والسلام، لما أمكننا الرجوع إليه وطلبنا منه برنامج عمل وخضوعنا لولايته في طريق السير والسلوك الإلهي. فمع وجود شريعة وولاية خاتم المرسلين فقد صار الباقون في مقام أدنى، بينما يتوجب علينا أن نسير في هذا النهج والمسار فنصل بأنفسنا إلى التوحيد عن هذا الطريق الذي هو أكمل وأفضل مراتب التوحيد.

إننا لو عملنا بشريعة عيسى الأصلية ـ لا بهذا الدين المحرف الموجود في أيامنا هذه ـ فإننا سنصبح مع ذلك مؤمنين موحدين عيسويين، بينما يتوجب علينا أن نكون مؤمنين موحدين محمديين.

وعلى هذا الأساس فقد نسخت جميع الشرائع عدا الإسلام، أي إن ولاية الأنبياء والأولياء قد نسخت، فهم لا يمتلكون القدرة والإمكانية على سوق أمة خاتم المرسلين هذه إلى مقام العز الربوبي والفناء في الذات القدسية الأحدية عن طريق اسم ورسم خاتم النبيين، لذا فقد صار هؤلاء جميعا في مستوى أدنى وصاروا محتاجين للوحدة المحمدية.

وهكذا فإن أيا من الأساتذة والمربين الذين لم يصلوا إلى مقام التوحيد المحض والفناء الخالص المحمدي لا يمتلك الحق ـ وفق هذا البيان ـ في إعانة وإرشاد السالك والولاية عليه، لأن الأنبياء أنفسهم لا يمتلكون حقا كهذا في عصر الرسالة الخاتمة فكيف بأتباعهم والسائرين على نهجهم، وفضلا عن أولئك الذين ليس لهم علاقة حقيقية بأولئك الأنبياء، وإنما يتبعون شرائعهم المتخيلة ومناهجهم الظنية. ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وآله يغضب حين يعطيه عمر ورقة من التوراة الصحيحة كان قد وجدها، فيطلب من النبي أن يعمل بها، فيخاطبه النبي بخشونة وشدة:

لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني!

وعليه فإن اتباع الأستاذ غير الكامل ليس أولى من اتباع الأنبياء أولي

العزم، وحين لا يجوز ذاك فكيف يمكن أن يكون هذا جائزا؟!»

جواز الأستاذين أو عدم جوازه: ولا يجوز اتخاذ أستاذين في زمن واحد، ولكن يجوز التتلمذ على أستاذ ثاني عند موت الأستاذ الأول، بشرط أن يكون في مقام المعلم الكامل المكمل.

فلقد ذكر السيد محمد الحسين الحسيني[1]:

«وكان السيد (هاشم الحداد) يقول: ينبغي أن يكون الأستاذ ممتلكا لمقام التوحيد، كما أن الإنسان لا يمكنه اتخاذ أكثر من أستاذ واحد في زمن واحد، بيد أنه يمكنه الرجوع إلى غيره عند موته، على أن يكون الأستاذ الجديد هو الآخر ممتلكا لمقام التوحيد.

على أن شأن الذين ينتخبون أستاذين فيأخذون التعليمات من هذا وذاك، أو أن يرتبطوا بهما سويا، كشأن مريض يراجع طبيبين معا وفي عرض أحدهما الآخر، حيث أن عاقبة هذا العمل ستكون الهلاك، كما أنه أمر مذموم شرعا وعقلا وشهودا.

هؤلاء الأفراد الذين يختارون أستاذين، مثلهم كمثل طيور الحمام التي لها عشان، فهذه الطيور مهما تميزت بطيران سريع وقوي ومهما طارت ساعات متمادية في الجو عطشى وجائعة، لكنها لا تمتلك أبدا أي قيمة. لأن أحدا لا يشتريها لعلمه أنه مهما اشتراها بثمن بخس فإنه هو المغبون في الصفقة، فهي حالما ستطير فإنها ستعود إلى عشها الآخر فتذهب معها جميع أتعاب ومرارات صاحبها أدراج الرياح.

أما طيور الحمام التي تمتلك عشا واحدا فإنها تمتلك قيمة وثمنا، وصاحبها مطمئن أنها مهما حلقت وأينما ذهبت فهي عائدة لا بد إلى عشها هذا وباقية في ملكه وحيازته. وإذا ما ألجأها أحيانا الجوع والعطش أو الأنس بالطيور الأخرى إلى الهبوط في مكان ما، أو إذا وقعت أسيرة بيد

---

(١) الروح المجرد صفحة ٤٥٣-٤٥٥.

شخص ما من محترفي اللعب بالطيور، فإنها ستعود إلى عشها ذلك بمجرد طيرانها ولو مرت عليها أيام عديدة. هذه الطيور تمتلك قيمة وثمنا، وإذا ما ربيت ودربت على أن تطير في الجو مثلا يوما كاملا بشكل متواصل، فلربما صارت قيمتها مائة دينار أو أكثر.

ولكن يشاهد أحيانا أن بعض محترفي اللعب بالطيور يحتاجون مبلغا بسيطا من المال فيخرجون طيورهم هذه ويعرضونها للبيع بسعر زهيد، بمائة فلس مثلا فيبيعونها لمن لا خبرة لهم ولا اطلاع، فيأخذها هؤلاء إلى بيوتهم باطمئنان كامل، فيشاهدون أنها بمجرد أن يضعها المشتري إلى جنب طيوره الأخرى، أو بمجرد أن يدعها تطير فإنها ستتجه مباشرة إلى عشها المعهود الأول.

أما ذوي الخبرة والاطلاع فلا يشترون مثل هذه الطيور، لعلمهم أنها مهما كانت زهيدة الثمن فإنهم سيكونون هم المغبونين وإن هذا المبلغ البسيط الذي دفعوه بإزائها سيضيع منهم.

وعلى هذا الأساس فإن أساتذة العرفان يعمدون إلى تربية تلميذ ما سنين طوال وإلى اطلاعه على الأسرار والرموز، ثم يرسلونه لغرض ما مدة معينة للتلمذة عند أستاذ معروف في ذلك الزمن، وهذا يحصل لعدة أسباب:

الأول: امتلاك ذلك الأستاذ لأسلوب خاص في التربية أو لكمالات خاصة، فيضع هؤلاء تلميذهم تحت إشرافه وتربيته مدة معينة أو إلى الأبد ليتدرب على ذلك الأسلوب أو ليكمل بتلك الكمالات. وفي حالة أعلمية وأكملية الأستاذ الثاني فإن من الجلي أن هذا التلميذ ينبغي أن يبقى هناك، أما في حالة كونه غير أعلم فإن التلميذ يكتسب كمالات الأستاذ الثاني ثم يعود إلى الأستاذ الأول.

الثاني: أن يكون للأستاذ الثاني كمالات خاصة أو أسلوب وطريقة خاصة في التربية لا يعلم عنها هذا الأستاذ شيئا، لذا فإنه يضع التلميذ مدة تحت إشرافه وتربيته حتى إذا ما تعلم التلميذ تلك الطريقة أو اطلع على

ذلك الكمال فإنه يعود إلى أستاذه الأول فيشرح له الأمر، وهكذا يطلع على تلك الطريقة في التربية والتعليم.

الثالث: أن يكون للأستاذ الثاني تلامذة لديهم قصور وأخطاء في نحو سلوكهم أو أن يكون للأستاذ نفسه قصور وخطأ، فيرسل الأستاذ الأول تلميذا بعنوان التلمذة إليه، ليقوم بإصلاح أخطاء أولئك الطلبة أو ذلك الأستاذ من حيث لا يشعرون، ثم يعود تلقائيا إلى أستاذه من جديد.

وإذا ما لوحظ أحيانا أن أفرادا ما يمتلكون أستاذين أو أكثر في زمن واحد، فهو أمر صائب إذا ما كان من قبيل هذه الاحتمالات.

وفي الحقيقة فإن للتلميذ أستاذ واحد، وهو الأستاذ الذي خضع ذلك التلميذ لولايته الأصلية والأولية، وعليه فإن ولاية الأساتذة الآخرين ستكون طولية لا عرضية، وفرعية وثانوية لا أصلية. وعلى هذا الأساس فإن التلميذ في عمله بتعاليم الأستاذ الثاني فإنه يمتثل في الحقيقة أمر وتعاليم الأستاذ الأول، فلا تنافي ولا تنافر ولا اختلاف في الأمر».

والمعروف أن العارف الكبير نجم الدين الكبرى، وهو من أكابر أقطاب الطريقة الأويسية، تتلمذ على كثير من العرفاء، في أزمنة مختلفة، إلا أن حماه وأبا زوجته روزبهان البقلي، الذي كان يعيش في مصر، كان له المعلم الأكبر الذي اقتبس منه الطريقة الأويسية. ونجم الدين الكبرى كان يلقب بالطامة الكبرى وبصانع الولي، وربى مريدين وتلامذة كبار في طشقند. والشاعران المعروفان في العرفان، فريد الدين العطار النيشابوري والملا الرومي، المعروف بالمولوي، كانا قد تتلمذا على تلامذة نجم الدين الكبرى. واستشهد وعمره ٩٧ عاما، وقصة شهادته معروفة في التاريخ، وهي أنه عندما علم بغزو المغول لمدينته، جمع مريديه وتلامذته، وأمرهم بالانتشار في الأرض، وحمل رسالة العرفان إلى مناطق شاسعة في العالم. أما هو فسيبقى في المدينة وسيحارب المغول. وفي الصباح دخلت جيوش المغول الى طشقند، فجمع العارف الكبير حصوات في دشداشته، وواجه المغول وبدأ برشقهم بالحجارة، ثم أتى جندي فطعنه وقتله.

حقائق في مسيرة السير والسلوك

ما هي السعادة والبقاء؟ ولماذا البشر في بحث حثيث عنهما، لا يؤلون جهدا في العمل من أجلهما ليل نهار من دون كلل ولا ملل؟ إنه ليس بخاف بأن هذين الهدفين هما الدعامة في الفطرة البشرية، وأن الإنسان بنى الحضارات في سعيه الحثيث الدائم للحصول عليهما، وهو ينشدهما في كل محاولاته واختراعاته وعمرانه بل في كل مساعيه. وقد برزت العلوم على أساسهما وفي سعي الإنسان الحثيث وراءهما. فالعلوم الرياضية من الحساب والجبر والمثلثات ظهرت في الحضارة البابلية في منطقة ما بين النهرين في العراق الحالية، ومن بعدها في الحضارة المصرية الفرعونية في مصر، لأجل التغلب على فيضانات أنهر دجلة والفرات والنيل، وتطويعها من أجل الزراعة لتأمين حياة أفضل أو السعادة والبقاء لأبناء الحضارتين. في حين أن الشمال الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط ـ ومنها اليونان ـ كان مهد العقائد في الآلهة أو قوى ما فوق الطبيعة. فظهرت العلوم النظرية ومنها المنطق والفلسفة، وتطورت في الحضارة اليونانية لتطويع قوى ما وراء الطبيعة، لتأمين السعادة والبقاء أيضا. وفي الحضارة المصرية القديمة تطورت أساليب التحنيط لحفظ الموتى لتأمين الخلود لهم في حياة ما بعد الموت.

يقول أستاذي العظيم صادق العنقاء قدس سره في كتابه «سر البشرية»: «هدف كلية المساعي البشرية هو السعادة والبقاء، فهما قانونان أصيلان وفريدان من نوعهما ويضمان كلية المساعي البشرية من الطفولة حتى الموت».

فلا غرابة أن تكون قصة الخضر عليه السلام وعين الحياة قد سحرت الناس على مدى التاريخ. ولا غرابة أن يدهش الإنسان بقصة الخضر عليه السلام وعين

حياته. فمن منا لا يريد البقاء والخلود! ومن منا لا يريد السعادة من دون نكد ولا تنغيص! ومن أجل هذين الهدفين الأساسيين في الفطرة البشرية قامت الحضارات، ولا زالت تتطور لتكميل السعادة والبقاء للجنس البشري.

فالإنسان الذي لم يصطبغ بالدين فهو في حيرة من أمره: فمن ناحية فإن هذين الهدفين هما الدعامة في الفطرة البشرية، ولا بد من وجود الاستجابة في الوجود لتحقيق مصداقية لهما. ومن ناحية أخرى فإنه يفعل المستحيل لتحقيق البقاء والسعادة للجنس البشري ولكنه لا يفلح في ذلك. وسبب فشله وإحباطه هو تصوره للإنسان في إطاره المادي فحسب، ولا يجد له امتدادا بعد موت جسده. في حين أن الدين يعرف حياة الإنسان في روحه، والروح في نشأة معينة يستعمل الجسد البشري بكل تفاصيل جهازه المعقد الفريد، وبعد ذلك في نشأة أخرى يستغني عن الجسد ويستمر في حياته في استقلال عن الجسد، عبر الحياة البرزخية التي تطول أو تقصر، حسب شدة وضعف التعلقات القلبية بنشأة الدنيا.

فإذا تحرر القلب عن التعلقات الدنيوية، تجاوز الروح المرحلة البرزخية وارتقى إلى الملأ الأعلى. أما إذا كان مثقلا بحب الدنيا ومتاعه فالبرزخ يطول. قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1]. إذن فجواب الدين لهذه الاحتياجات الأساسية في الفطرة البشرية هو في إطار وجود الإنسان المادي والروحي، وليس في الإطار المادي فقط الذي يتصوره من هو خارج الصبغة الدينية. وعلى ضوء ذلك فالاستجابة قائمة في الوجود لاحتياجات البقاء والسعادة في الفطرة البشرية.

بل هي قائمة فعلا في طريقة السير والسلوك لا غيرها، فهنا تنال السعادة الحقيقية في هذه النشأة، ومن ثم استمراريتها في نشأة الآخرة أضعافا مضاعفة، ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾[2]. وفي حديث للإمام

(١) سورة المؤمنون الآية ١٠٢.

(٢) سورة الضحى.

الصادق عليه السلام إلى جابر بن حيان يقول بأن الجنة موجودة مصغرة في هذه الدنيا، وهي تتضاعف أضعافا مضاعفة في الآخرة. وأما مسألة البقاء والخلود فهي مسألة أساسية في السير والسلوك، فكل التركيز في الطريقة هو في رشد الروح وطهارته وصفائه ونقائه، لانتمائه إلى عالم البقاء والخلود.

وطريقة السير والسلوك تتعامل مع الباقيات الصالحات، وهي الوسيلة الوحيدة لتأمين السعادة في دار الدنيا ودار الآخرة. وهي تتعامل أساسا مع العناصر الخفية الكامنة في السالك التي لها علاقة مباشرة بدار الخلود، وتؤمن رشدها ونموها في هذه الحياة، حتى تكتمل كما يكتمل الجنين في بطن أمه، وبعملية شبيهة بولادة الجنين إلى نشأة الدنيا، يخرج الروح سالما إلى نشأة الآخرة ودار السلام، وهو يحمل القلب السليم ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١]. في حين تبذل محاولات جبارة بميزانيات ذات أرقام نجومية ـ خارج طريقة السير والسلوك ـ لتأمين السعادة والخلود، ولكنها كلها تبوء بالفشل والإحباط، وإن أنتجت شيئا فهي آثار مؤقتة على هذه الأرض وفي هذه الدنيا، وهي ظاهرية محضة لا تحمل في باطنها شيئا حقيقيا.

ويصف الشاعر هذه الحقائق بقوله:ـ

سحرتهم عين الحياة فأصبحوا ... يترنمون بمدحها وثناها
دهشوا بقصة خضرها ومريده ... فتنتهم قصص البقا وخفاها
والعالمون يرددون كلامهم ... وبدينهم وبذكرهم تتباها
وتشدهم بالخلد حبل طموحهم ... والى السعادة شوقهم لصفاها
فهما الدعامة في صحيفة فطرة ... وهم من الغايات في قصواها
وجدوا السعادة والخلود بنهجهم ... وحديثهم والدين من علياها[٢]

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٨٧ ـ ٨٩.

(٢) السموات السبع صفحة ١٧٦.

وما هو ميثاق الفطرة؟ الذي كتب على أرواحنا؟ ولماذا غفلنا عنه ونسيناه؟ فالقرآن الكريم واضح في ذلك: ففي عالم الذرة في الأزل أخذ الله علينا ميثاقه إذ قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقلنا ﴿بَلَىٰ﴾. فلماذا حدث ذلك يا ترى!

قصة الإنسان عجيبة جدا. . . فهو تركيب من عقل وشهوة. والمراد بالعقل هو العقل الواسع الروحاني، وليس مجرد عقل المعاش الذي نستعمله في إمرار معاشنا، أو مجرد العقل الذهني الذي نستعمله في تحليلاتنا الفلسفية والعلوم الذهنية من الإنسانية والتجريبية. فمتى غلب عقله شهوته صار أعلى من الملائكة ومتى غلبت شهوته عقله صار أدنى من البهائم. فهذا الموجود العجيب مع هذه المرونة الواسعة والإمتدادات الكاسحة ليس له نظير بين الموجودات.

فالموجودات غير البشر تؤدي وظائفها بأحسن صورة وحسب البرنامج الذي وضعته العناية الإلهية لإدارة هذه الأكوان. والإنسان أيضا في جملة الخطة الواسعة والبرنامج الكوني العظيم يؤدي الوظيفة المطلوبة على مدى المسيرة الطويلة الأمد. إلا أنه على مدى الحياة اليومية يختلف عن سائر الموجودات لوجود المرونة فيه للإرادة الظاهرية حسب النتائج اليومية من الصراع بين العقل والشهوة. فإن تمايلت إرادته نحو سيادة العقل على الشهوة صار من أحسن أصناف الموجودات بل ما فوق الملائكة. أما إذا تمايل نحو سيادة الشهوة على العقل أصبح كالبهائم والأنعام بل أضل منها.

فلتوجيه هذه الإرادة المرنة بعث الأنبياء وأقيم الأوصياء والأئمة والأولياء لتوجيه الناس بشأن هذه الأمور. قال مولانا علي عليه السلام «إن الله أمر عباده تخييرا، ونهاهم تحذيرا، وكلف يسيرا، ولم يكلف عسيرا، وأعطى على القليل كثيرا، ولم يعص مغلوبا، ولم يطع مكرها، ولم يرسل الأنبياء لعبا، ولم ينزل الكتب للعباد عبثا». وهذه الكلمات الشريفة تلغي الفلسفة التي قامت على موضوع «الجبر والاختيار» والجدل التاريخي الذي أثير حوله، وتثبت أن «لا جبر ولا اختيار ولكن أمر بين الأمرين» كما يقول إمامنا الباقر عليه السلام.

ولكن ما هو نقطة الوصل بين الأنبياء والصديقين والصالحين وبين الناس العاديين؟ فعلى سبيل المثال لا توجد أذن صاغية لرسالة الأنبياء في الحيوانات والنبات والجمادات والماء والهواء والغازات وغيرها لعدم وجود نقطة الوصل. ولكن يوجد التجانس بين رسالة الأنبياء وبين بني البشر، فأين هي نقطة الوصل بينهم؟

إن نقطة الوصل موجودة في الفطرة البشرية، فإن الإنسان في قرارة فطرته مقر لعبوديته أمام ربوبية الله. وعلى الرغم من عصيانه وطغيانه في حالات نسيانه وغفلته، إلا أنه في حالة الأزمات والشدائد، كالمرض العضال والأزمات الإقتصادية، وموت الأحبة والإشراف على الغرق، والتيه في البراري والقفار او في لجج البحار، والحروب والهزائم العسكرية ومرارة الإضطهاد وغيرها، يقر في قرارته بالعجز والضعف والعبودية أمام ربوبية الخالق، ويلتجىء إليه ملتمسا النجاة، ويتوسل إليه توسل العبد إلى سيده. فميثاق عبوديته لله مكتوب على صحيفة روحه وإن تناساه أو تغافل عنه ظلما وعتوا.

فهذا الميثاق هو الذي تخاطبه الرسالة السماوية، وتحث الغافلين على مراجعة عتوهم وعصيانهم وطغيانهم والارتداع عنها، ومعرفتهم قدر أنفسهم أمام خالقهم. فقد قال الإمام علي عليه السلام: «رحم الله امرئ عرف قدر نفسه». ورغم غلبة عوامل الكفر عند الناس، إلا أن هناك من يؤثر فيه النداء القدسي للرجوع والتوبة إلى الله، والاستقامة على طريقه، لأن في ذلك مصلحته وسعادته في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[1]. فإن الإنسان وإن كان مؤمنا فإنه دائما بحاجة إلى التذكير، في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

(١) سورة الشورى الآية ٢٠.

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٥.

ويصف الشاعر كتاب الفطرة واحتواءه على ميثاق رب العالمين في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[1]:

كتبت فأوبوا لانجذاب لقاها	ميثاق فطرتكم على أرواحكم
والله قد ملأ الثرى نعماها	فبأي آلاء تكذب بعدها
فاقرأ كتابك والتقط فحواها[2]	كلماته مقروءة في نفسكم

وما هي الجذبة الرحمانية التي يتوق إليها العرفاء؟ وما مدى جدواها في طريقة السير والسلوك؟ فالسالك يبدأ سلوكه بالتركيز مثلا على نقطة في الجدار قدامه لمدة معينة، مبعدا عن نفسه الخواطر والأفكار المبعثرة بحيث لا تفكير له إلا النقطة التي أمامه. وهذه التمرينات ـ وعلى الأخص قيام الليل حيث يركز السالك على قلبه لفترات معينة ـ تعوده على السيادة على أفكاره وخواطره، لأن المطلوب منه أن يكون سيد نفسه، وكان من قبل هذا عبدا لها. وبذلك يتحرر شيئا فشيئا عن عبودية نفسه وأفكاره وخواطره، ومن ثم عن عبودية عاداته ورغباته وشهواته، وعن عبودية تعلقاته بمتاع الدنيا. حتى يصل في النهاية إلى عبودية الله وحده لا يشرك معه في عبوديته أحد. ومن تركز اهتمامه في الله فقط دون غيره بحيث هيمنت عليه جذبته، فهي العبادة الكبرى التي يتوق إليها الأولياء، في قول الرسول ﷺ: «جذبة من جذبات الرحمن تعادل عبادة الثقلين».

والجذبة إنما هي بهذه العظمة والمكانة والمنزلة عند الله، لأنها اللحظة التي يتفرغ العبد فيها عن الأغيار، أي من كل ما سوى الله، وينجذب إلى الرحمن بكل ذرات وجوده. وما الصلاة التي فرضها الله، والنوافل التي يتقرب بها العبد الى ربه، إلا مقدمات لنعمة الجذبة الرحمانية. وقد وصفها الإمام عليه السلام بقوله: «وإنها لتحت الذنوب حت الورق وتطلقها إطلاق الربق وشبهها رسول الله ﷺ بالحمة تكون على باب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرات، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن؟».

(١) سورة الإسراء الآية ١٥.

(٢) السموات السبع صفحة ١٧٧.

والشقي كل الشقي من تبقى عليه أدرانه، ويستفحل على روحه سلطان المعاصي الكبيرة، غير آبه بها رغم مواظبته على الصلوات في أوقاتها. فالصلاة التي لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ما هي إلا رياء ومحاولة لخداع الناس، يتخذها أعداء الله مطية لدنياهم، ولإيقاع المساكين من الناس في حبائلهم ومصائدهم ـ والعياذ بالله!!! فإذا أصبحت صلاة المؤمن معراجا، بكل تفرغها عن الأغيار، في قول الرسول ﷺ: «الصلاة معراج المؤمن»، فهناك تتحقق الجذبة الرحمانية. أما إذا تحققت الجذبات في الصلاة المكتوبة وفي النوافل وفي أوقات أخرى خارجهما، فالولي من الذين ذكرهم الله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[1]. ومعنى ذلك أن الصلاة وجدت أساسا لقيادتنا الى جذبة من جذبات الرحمن، والتي هي بدورها اذا تحققت بالفعل، تعادل عبادة الثقلين.

أما مدى جدوى الجذبة الرحمانية في السير والسلوك، فإنها توفر للعبد الصالح ملاقاة محبوبه. فهي اللحظة التي يكرمه الله فيها بالفناء عن نفسه والوصال في حبيبه، وهي النهاية ومسك الختام للذين شربوا شراب الأولياء في حديث الشراب لمولانا علي عليه السلام. فهي لحظة الرؤية والوصال واللقاء، وتتنزل فيها عليه الملائكة بالروح من أمره، في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾[2]. فيسمع صوت الملائكة المليح، وتطرب له آذانه، وتدوي ألحان البلابل في أعماقه، فيقشعر جلده وتصدي لها أوتاره. وهي اللحظة الرائعة التي تهز جميع كيانه، وتهيمن عليه هيبة الخالق ورهبته، ويدب كهرباء البرق في وجوده وعروقه وشرايينه. وهناك يضيع خيال وجوده، ويضيع «الأنا» وتتحطم خرباته، ويفنى «الأنا» في هذه الجذبة الرحمانية.

ويصف الشاعر عظمة الجذبة الرحمانية وقدرها وحلاوتها بقوله:ـ

أو ما رأيت عبادة في قدرها   أو ذقت شهد حلاوة شرواها

---

(١) سورة المعارج الآية ٢٣.

(٢) سورة النحل الآية ٢.

أو ذقت لذات كمثل عبادة	فرغت من الأغيار من غرباها
فرغت من الثقلين لحظة جوده	فرغت من الدارين وقت رؤاها

وفي قوله:

وخمار حب في لقاء مهيمن	في رؤية ووصالها ولقاها
ومليح صوت من ملائكة السما	طربت لها آذاننا ثملاها
ورقيق لحن من بلابل جنة	دوت لفي أعماقنا أصداها
فرؤوسنا ثملى لمن ألحانها	وقلوبنا خفاقة لجواها
ضاعت خيال وجودنا في ليلة	يا روع من ديجورها وضياها[١]

ما هو الجسم الأثيري أو الجسم المثالي؟ الجسم المثالي حقيقة واقعة، وأسهل طريق للتحقق منه هو ملاحظة الفرق بين اليقظة والمنام. فالذي يميز النوم عن اليقظة، أو ما يحدث فعلا خلال النوم، هو مفارقة الجسم المثالي لصاحبه عند النوم لمدة معينة، وبعدها يعود إلى جسد صاحبه. وعند العودة أو ما نسميه اليقظة، ترى الفرق الشاسع واضحا على المستيقظ، كأنه استعاد مغناطيسا كان قد فقده. وقصور العين عن رؤية المجال الأثيري هو السبب في تردد الآراء في تصديقه. إلا أنه في أيامنا هذه نجح العلم في تصوير الهالة أو الجسم الأثيري لكوكبي المشتري والأرض كما أوردناه في الفصول السابقة. وما ذلك اليوم الذي يصور فيه الجسم الأثيري للإنسان ببعيد!

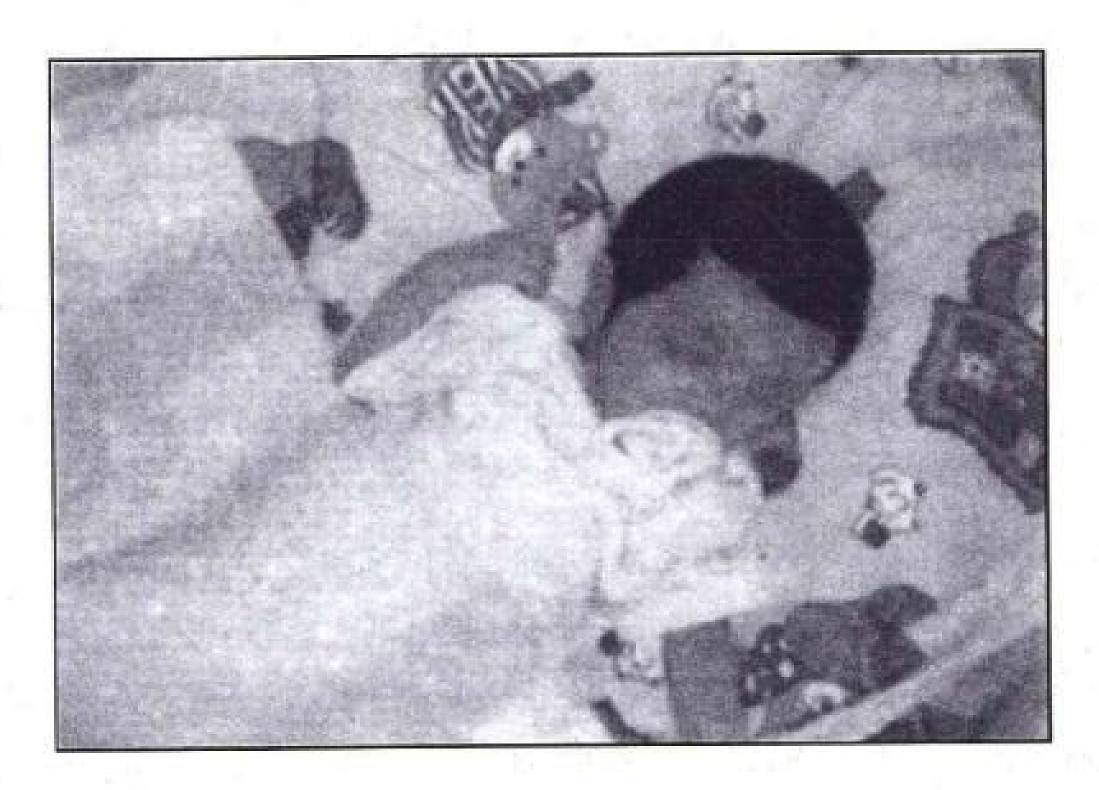
أما الدليل من القرآن الكريم فهي الآية الشريفة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢] أو الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣]. فالآية

(١) السموات السبع صفحات ١٨٧ ـ ١٨١.

(٢) سورة الأنعام الآية ٦٠.

(٣) سورة الزمر الآية ٤٢.





ومضة المغناطيس التي تميز حالة اليقظة عن حالة النوم، وهي ومضة الجسم الأثيري العائد توا إلى البدن، وهي الفارق في ما بين اليقظة والمنام، حيث يعود الجسم المثالي إلى البدن عند اليقظة بعد مفارقته البدن عند النوم. وهذا يشبه البعث بعد الموت حيث يتكرر للإنسان ليل نهار.

الأولى تتكلم عن الوفاة بالليل ثم البعث في النهار ليقضى أجل مسمى، وهو المنام أو الوفاة المؤقتة التي يتبعها البعث أو الاستيقاظ من النوم. أما الآية الأخرى فتتكلم عن النفس التي توفاها الله ولم تمت في المنام فيرسلها الله إلى أجل مسمى، وهي أيضا الوفاة المؤقتة أو النوم ثم إرسال النفس الأخرى التي لم تمت إلى أجل مسمى، وهذا هو الاستيقاظ من النوم.

والنوم يشبه الموت، والاستيقاظ من النوم يشبه البعث بعد الموت، تماما كالأشجار التي تنام في فصلي الخريف والشتاء، فتصفر أوراقها وتتساقط على الارض، ثم تبعث من جديد في أواخر الشتاء وأوائل الربيع، وتستيقظ من نومها، فتنمو فيها أوراق خضراء جديدة. والحديث النبوي الشريف: «النوم صنو الموت» يؤكد هذه الحقيقة.

وفي خلال النوم تولد خلايا جديدة بأعداد هائلة جدا تصل إلى آلاف الملايين، لتحل محل الخلايا التي ماتت أثناء فترة اليقظة، والتي يبدأ انهيارها (وبعبارة القرآن جرحها) المؤدي إلى موتها خلال النشاط الجسمي العادي في فترة النهار.

وهذا الجسم المثالي هو حقيقة واقعة أكثر من الجسم المادي الذي تعهدناه، لأنه الأصل والبدن هو الفرع، ولأنه الشيء الملموس والبدن هو الظل، ولأنه الحقيقة والبدن هو الخيال الذي يعيش أياما ثم يتلاشى ويختفي. والأنبياء تعاملوا مع هذا الجسم، وكذلك الأئمة الطاهرون، ويليهم العرفاء والأولياء الصالحون.

أما العلم الحديث فلقد ذكرنا في فصل سابق بأنه شرع في تصوير الهالة التي تحيط بالأجسام المادية. فلقد نجح حتى الآن في تصوير هالة كوكبي المشتري والأرض، وذلك بمساعدة أجهزة بالغة في الدقة والحساسية، التي صرفت عليها آلاف الملايين من الدولارات.

وتأثير الجسم المثالي على الجسد يتم عن طريق تفاعلات مغناطيسية

مع آلاف الملايين من الخلايا في جميع جوارح البدن وأعضائه من المخ والعيون والآذان، والأنف والفم واللسان، والعمود الفقري واليدين والرجلين، والرئة والقلب والكبد والكلى، والشرايين والعروق والأوعية الدموية والأمعاء وغيرها. فكل ما يحدث في البدن ما هو إلا انعكاس عن أحداث النشاط في المجال المغناطيسي للهالة أو المثال. وهذا ما ذكرناه أيضا بالتفصيل في فصل سابق.

والمثال والهالة من النشأة الآخرة، ويكتشفها العرفاء أثناء رياضات السير والسلوك التي تصقلهم إلى حد الشفافية، فيرون ما لا يرى غيرهم، ويسمعون ما لا يسمع غيرهم. وما الأسرار التي اكتشفها الأولياء وهم في فلك النجاة مع قائدهم ومعلمهم إلا تلك التي تحملها عوالم الهالة من لدن بصير سميع عليم. وفي هذه الأسرار نجاتهم وفلاحهم، فهم قد نفذوا إلى الشهود واللطائف من خلال عوالم الجسم السميك. يقول الإمام الصادقعليه السلام «القرآن عبارة وإشارة ولطائف وحقائق». ثم يعقب على ذلك: «فالعبارة للعامة والإشارة للخاصة واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء».

فالعرفاء يرون اللطائف، وتنجلي أمام شفافيتهم أسرارها، بل هو انقشاع الغطاء وكشف الحجاب، في قوله تعالى في سورة ق: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1]. وفرق العرفاء والأولياء مع غيرهم هو حصول هذا الكشف في حياتهم، في حين أن غيرهم يحصل لهم ذلك بعد الموت وبعد فوات الأوان.

والمثال قوة مغناطيسية عارمة، فهي تبقي آثارا قائمة في الحياة الدنيا وما بعدها بالنسبة لأولئك الذين استطاعوا أن يملكوها ويجمعوا شملها، كالآثار التي أبقاها الرسول الأعظمصلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء من قبله والأئمة الأطهارعليهم السلام والأولياء والصالحون من بعده. «فالرياضات الروحية هي في الحقيقة عملية تجميع شمل المثال، فإذا تحقق الجمع كان له أثر كبير ليس على البيئة التي تحيط بالولي مباشرة فحسب، بل ينفذ أثره عبر الزمان،

(١) سورة ق الآية ٢١.

وخلود أولئك الذين يمارسونها وتأثيرهم على الأمم أكبر دليل على ذلك»[1].

فغرائزنا وديناميكيتنا وطاقاتنا، وحركاتنا وسكناتنا، وحاجاتنا ورغباتنا، كلها تتفجر من هذه القوة المغناطيسية العارمة. ومن دون هيمنتها على وجودنا يصبح الجسد ميتا وهامدا. بل إن الجسد مطية الروح يستعملها حينا، ويقضي بذلك وطره على هذا الممر الذي نسميه الأرض وفي فترة النشأة السفلى. فطاقات البصر والسمع تنبعث من المثال، فالمثال هو الذي ينظر ويسمع سواء في اليقظة أو في المنام. وما العينان والأذنان إلا جهاز وآلة يستعملها المثال للرؤية والسماع في اليقظة. وفي حين المنام يستعمل المثال العيون والآذان الأخرى، فسبحان الخالق الظاهر الباطن!

وإذا نظرت ببصيرتك إلى حقيقة الأمر، فأنت الروح لا الرفات، وأنت المثال لا الجسد، وأنت الروح الباقي لا الرفات الذي يبلى. فانظر لمن تعمل في هذه الدنيا ولمن تكد وتكدح، لرفات الموت أو لروح البقاء!

فإن كنت تعمل لرفات الموت فذلك هو الخسران المبين! قال الله تعالى في سورة العصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾. فإن كنت تؤمن حقيقة، فآمن بكل قلبك حتى لا يدخله الشك والريبة، ويكون يقينك كرواسي الأطواد. وإن أردت عمل الصالحات فادخل في طريقة السير والسلوك، حتى يمتلىء وجودك ويطفح بالحق وبالصبر، ومن ثم تتواصى بهما. وليس عمل الصالحات إلا الكد والكدح لروح البقاء، وأن تنشد سلامة الروح في الخلود، وتقي الروح الخدوش والجروح، والأمراض والعاهات والتشويهات التي تصيبه من أثر المعاصي أو حتى أفكارها.

«المثال أو الجسم المثالي هو الجسم الثاني الأثيري وهو جسم الإنسان الحقيقي الذي يبقى بعد موت البدن. وهو شفاف ولا يرى بالعين،

---

(١) حاشية كتاب السموات السبع صفحة ١٨١.

وإنما يراه في بعض الأحيان من كانت عنده موهبة الصفاء والشفافية، وهذه الموهبة يمكن تنميتها في الإنسان بواسطة الرياضات الروحية. والبدن ما هو إلا تصوير مادي منه في هذه النشأة الأولى. وكما يصاب البدن بالجروح والخدوش والمرض وعوارض سوء التغذية والفلج (الشلل) والتشويهات والعاهات، كذلك يصاب الجسم المثالي. والسالك الروحي يقي مثاله هذه الخدوش والجروح والأمراض والعاهات والتشويهات، تماما كما يقي جسمه المادي، بل أكثر وأكثر لأن البقاء وسلامة المثال وسعادته هي الأولوية عنده»[1].

فصحة المثال هي بالتقوى، وسقامه ومرضه بالمعاصي والذنوب، وبالنهج الفكري الذي هو أساس المعاصي. فالأحرى وقاية المثال أكثر من الجسم، لأن المثال باق والجسم زائل وفان، ويجب أن تكون الأولوية لروح البقاء لا لرفات الموت والبلى. والأجدر الكد والكدح لرعي صفاء الروح وجلائه، لأن في جلائه ملاقاة الله، وهو الوسيلة للوصول إلى نشأة الآخرة، التي هي نشأة الحياة والحيوان والبقاء والخلود، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾[2].

والأحرى رعاية الروح وصيانة صحته من الداء، وعلاج أمراضه وأسقامه، تحت إشراف الطبيب الذي يتعهده بالمعالجات اللازمة، حتى تتوج أخيرا بشفائه ومعافاته. والأجدر التطهر من موجبات هلاك الروح والتعفف عما يشوب صفائه، والنظر إلى خلو بيئته من رفاق السوء، وتطهير مناخه، وإقامته في البيئة قدسية التي تتغذى من أولياء الله ومن معلمي الصفاء والولاية.

وكأن جسم المثال جنين في رحمنا، وعلينا أن نعتني بهذا الجنين، كما تفعل الأم بجنينها، حتى يولد في النشأة الأخرى سوي الخلقة سالم البنية يتمتع بالعافية والصحة الكاملة. فكما أن الجنين يولد في النشأة الدنيا

---

(١) حاشية كتاب السموات السبع صفحة ١٧٩.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٦٤.

وتستقبله العائلة بالفرحة والسعادة، كذلك الروح يولد في النشأة الأخرى وتستقبله الأرواح هناك بالفرحة والسعادة، وتريد احتضانه في ذلك العالم الغريب. ولكن هل يولد هناك سويا أو مريضا أو مشوها وناقص الخلقة؟ فإذا كان مشوها تصعب عليه الحياة وينكد عيشه هناك. أما إذا كان يحمل الأمراض وهي كثيرة فتصعب معالجتها في عالم البرزخ، في حين أن معالجتها في عالم الدنيا كان أسهل، ولكن الفرصة تعتبر ضائعة عليه. يقول الرسول الأعظمﷺ: «الدنيا مزرعة الآخرة». أي أن الدنيا هي الفرصة الوحيدة للزراعة الصالحة للآخرة، فمن زرع خيرا حصد خيرا، ومن زرع شرا حصد شرا.

ومن الطبيعي أن الروح المريض لا يمكنه أن يتقبل الواقع كما هو، فهو لا يتقبل الحدث الكبير وهو الموت، ويبقى على تصوره بالعيش في الدنيا كما كان قبل الموت. ثم إن أمراض العجب والكبر والغرور لا تمكنه من الإنسجام في نشأة الآخرة، فيبقى عبثا على النشأتين: لا هو في الدنيا التي يحبها وكان يقضي وطره منها بحواسه وجوارحه، ولا هو منسجم في النشأة الآخرة، لأنه لا زال يحمل التبعات والتعلقات القلبية بالدنيا، في حين أنه مفتقد لآلية إرضاء رغباته وشهواته الدنيوية. فمثله كمثل الغريق لم يجهز نفسه بآلية النجاة، حين كان قادرا عليها، فيبقى نادما وأنى ينفع الندم! ويريد النجاة ولات حين مناص!

ويذكر إنجيل برنابا ـ وهو أحد حواري عيسىعليه السلام الذي كان يكتب الوحي الذي كان ينزل عليه ـ إن ناسا سألوا عيسىعليه السلام لو أن أحدا منا مات ثم رجع إلى الحياة وأخبرنا بهول المطلع هناك لصدقناه. فقال لهم عيسىعليه السلام إن النبي إبراهيمعليه السلام رجع إلى الحياة وأخبركم بهول المطلع الذي ينتظر العصاة هناك فلم لم تصدقوه؟

فالأنبياءعليهم السلام لم يخبرونا من فراغ بالسعادة التي تنتظر الصالحين، والعذاب الذي يتلقى الطالحين هناك في النشأة الآخرة، وإنما رأوا كل ذلك ثم بشرونا وأنذرونا بذلك.

وإذا علمنا أن النشأة الآخرة هي نشأة الخلود، لعلمنا خطورة الأمر وجديته، فبالإمكان تحمل المشقات في النشأة الفانية، أما تحملها في النشأة الباقية فهو هائل جدا وخارج عن تصورنا، وذلك هو الخسران المبين. فمتى يلم الناس بخطورة الأوضاع، ومتى تتحرك فيهم الهمم لإصلاح ما يمكن إصلاحه في هذه الفترة المتبقية من عمر الدنيا.

وقليل من العقل يرشدنا أن نجعل أولويتنا الأولى والأخيرة نشدان سلامة الروح في دار الخلود، وأن نعالج أمراضه الواحدة تلو الأخرى، تحت إشراف طبيب متمرس جدير بعلاج أمراض الروح. ولا أفهم كيف يكون التغافل عن هذا الأمر مقبولا من العقلاء، أو من كان في قلبه ذرة من الشفقة على نفسه! وإذا تكلمنا عن معلم الفيزياء أو الكيمياء كان كلامنا مقبولا عند الناس، أما إذا تكلمنا عن معلم العرفان العملي والأستاذ الروحي قوبلنا بعدم التصديق! أليست هذه الدنيا عالم العجائب والغرائب! يسكنها الكثير الذين هم عند أنفسهم عقلاء وعند العارفين حمقاء ـ كما يقول الحديث القدسي ـ ولكن على من تقرأ زبورك يا داود!!

فهذا الجنين الذي نحمله في أرحامنا أهمله الكثير من الناس، بل استهتروا به ولم ينل منهم إلا الهزء والسخرية والإنكار والترفع والاستكبار. ألا يشبه هؤلاء الناس أما مستهترة ضحوكة لعوبة سمحت أن يرض جنينها في بطنها، وأن يشوه عزيزها في أحشائها؟ وكم نقول ونكرر أن العرفان ليس فلسفة ترفيهية على موائد المترفين، وإنما هي حقائق أبرزها الأنبياء ﷺ ومن سار على نهجهم من العارفين وأولياء الله الصالحين. إنما هي حقائق يطفح بها كتاب الله كما يقول مولانا الصادق ﷺ. فانظر من ذا يتلو عليك آياته ويقرأ عليك لطائفه وحقائقه!

فإذا عرفت قدر الروح، وقدر هذا الجنين المقدس في رحمك، وأوليته الرعاية والعناية، وحفظته حتى يبلغ رشده، وحولته إلى دار السلام ونشأة الآخرة سويا سليما معافى، فأنت الأم الحقيقية التي تناولها الحديث الشريف: «الجنة تحت أقدام الأمهات». فالأولياء أحن على جنين مثالهم

من الأم بجنينها، فإذا كانت الأم تراجع طبيبها على الدوام لتلقي الإرشادات اللازمة لحفظ جنينها ومن أجل سلامته وصحته، فإن السالكين أيضا يراجعون طبيبهم لتلقي الإرشادات والتوصيات، لأجل سلامة وصحة الروح الذي يبقى في دار الخلود.

فهم أحاطوا ببقائه وخلود عيشه، ورأوه في رياضات ليلهم، وفي جهاد السهر وعشق السهاد، وزلفى المناجاة وخلوص الدعاء، وطهور الذكر وخشوع الصلاة وخمار حب الله. فمثله عندهم كمثل الطفل في رحم الأم، تتعهده بكل حب وحنان بالرعاية والعناية، حتى يرشد سويا كاملا قويا وهو في بطن أمه.

ويصف الشاعر دور المثال وأسراره في حياة العارف بقوله:ـ

ووقوا نفوسهم سقام مثالهم ... من نشأة الأخرى اللطيف براها
فكأنما جسم المثال بجوفنا ... كأجنة لا بد أن نرعاها
عاشوا الأمومة في رفيع مقامها ... جنات عدن تحتها لوطاها
حفظوا أجنة خلدهم في هالة ... حتى لتبلغ رشدها ونماها
كدحوا لرعي صفائها وجلائها ... حتى يلاقوا في جلاها الله
فهي الوسيلة للوصول لنشأة ... من نوعها من جنسها شرواها
فهموا الحقيقة والأمور جلية ... كشفت عن الحدقات سمك غشاها
ورأوا لفي هالاتها أسرارها ... وجدوا لفي أسرارها منجاها
نفذوا من الجسم السميك بكدحهم ... نفذوا إلى لطف الصدى ورؤاها
رأوا اللطائف وانجلت أسرارها ... كشف الحجاب بل استرق غطاها
فهم أحن على جنين مثالهم ... من أمهم بجنينها بحشاها
وهم أحاطوا بانفتاح بصيرة ... بخلود عيش مثالهم وبقاها
رأوا المثال لفي رياضة ليلهم ... وجهاد سهر في خلوص دعاها
وسهاد عشق بانقياد عنانهم ... وطهور ذكر في خشوع صلاها
ولمن يجمع شمل جسم مثاله ... أثر محال منك أن تنساها
أثر عظيم في الطبيعة حوله ... بل نافذ عبر الزمان مداها

وفي قوله:

بل جسمنا دون المثال لميت ... آثارها من دونها أصداها
بل جسمنا للروح مثل مطية ... وطرا على هذا الممر قضاها
فانظر إلى فرق المنام ويقظة ... سترى لمغناطيسها ومضاها
سترى بعينك كيف حال جسومنا ... بفراق جسم مثالنا ونواها
بل أنت تنظر من مثالك بالكرى ... بل أنت فيها نشأة أخراها
ورفات جسمك قد سجت بفراشها ... صماؤها عمياؤها بكماها
بل أنت روحك لا رفاتك يا فتى ... بل أنت باق لا رفات بلاها
ولمن عملت طوال عمرك يا فتى ... لرفات ميت أم لروح بقاها[1]

ما هو كلام الله وما هو نعمة النظر إلى الله؟ إن حجاب التكاثر قد حجب علينا حقائق الأمور. فنحن نعرف الكلام على أنه اللغة التي يتخاطب بها البشر، رغم وجود آلاف اللغات واللهجات على أرض البسيطة. وهذا هو الحجاب الذي ابتلينا به لوجودنا في سجن الدنيا. فإننا لا نعرف في هذا السجن إلا ما تعودنا عليه من طفولتنا ونعومة أظفارنا. وإذا ظهر شيء آخر فإننا ننكره بل نسخر منه ونستهزىء به. وقد ثبت علميا في اختبارات العلم الحديث بأن الطيور والأسماك والحيوانات والحشرات وغيرها تتخاطب فيما بينها بمختلف الوسائل واللغات من أنواع الأصوات ومختلف المواد الكيماوية التي تفرزها أبدانها وتنبعث منها الروائح المختلفة التي تتخاطب بها. بل إنها تتخاطب أيضا عن طريق الكهرباء والإشعاعات التي تصدرها وعن طريق الأمواج الكهرومغناطيسية وغيرها الكثير مما لم يتناوله العلم الحديث حتى الآن.

وحتى الأشجار والنباتات تتخاطب مع بعضها البعض. وهاكم اختبار أجراه العلماء على عدة نباتات وزهور وضعوها في غرفة وأوصلوها بأجهزة قياس الأمواج الكهرومغناطيسية. ثم أدخلوا إلى الغرفة شخصا حطم إحدى أشجار الزهور وبعثر أوراقها وزهورها. وبعدها أدخلوا أشخاصا كثيرين لم

---

(١) السموات السبع صفحات ١٧٩ ـ ١٨٢.

يفعلوا شيئا. وبعد سويعات أدخلوا الجاني مرة ثانية، فارتفعت الأمواج الكهرومغناطيسية وتذبذبت مؤشرات الأجهزة الحساسة بقوة، وكأن الأشجار الأخرى تعلن بأعلى صوتها اعتراضها واحتجاجها على الشخص الجاني، الذي حطم إحدى زميلاتها أمام الأشجار الأخرى، وعلى بشاعة جريمته. والمعروف عند الذين يتعاملون مع الأشجار والزهور ويتعهدونها على الدوام بالرعاية والعناية، بأنها تتجاوب معهم ومع الرفق والحنان الذي يظهرونه حيالها بنضارتها وطراوتها، وكأنها تتكلم إليهم بلغة الأمواج غير المرئية.

وحتى الجمادات تتكلم بلغتها الخاصة بها وتتمتع بشعور، لأن كل مادة تنقسم إلى جزيئاتها ومن ثم إلى الذرة، والذرة توجد فيها حركات سريعة جدا للإلكترونات والبروتونات حول النواة، وهذه الحركات تؤثر وتتأثر مع القوى والعوامل المحيطة حسب قوانين الفيزياء. وما ظهور الطاقة الكهربائية إلا انفصال الإلكترونات عن نواة الذرة، وجريان هذه الشحنات السالبة في الأسلاك. وهذه الطاقة الكهربائية أحدثت تأثيرا عظيما في الحضارة الإنسانية في القرنين الماضيين، وعلى الأخص القرن العشرين. وهذا هو عين الشعور وردود الفعل، وهو عين الكلام الذي تظهره الجمادات. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[1].

وأما كلام الله إلى البشر، فلقد أعلن الله تعالى بأنه سبحانه يكلم البشر بثلاث طرق في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[2]. فالواضح من هذه الآيات الكريمة وضوح الشمس بأن الله يكلم البشر ـ لا الأنبياء فقط ـ وذلك بثلاث طرق:ـ

ـ وحيا كما حصل للأنبياء عليهم السلام .

ـ من وراء حجاب كما حصل لموسى عليه السلام إذ تكلم الله إليه من خلال

---

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤.

(٢) سورة الشورى الآيتان ٥١.

الشجرة الملتهبة.

ـ عن طريق الرسول إذ يرسله الله، فيوحي الرسول إلى مريده بإذن الله ما يشاء الرسول، فيكون هذا الوحي هو كلام الله إلى عبده.

فالبشر يتلقون كلام الله بهذه الطرق الثلاثة. والفيض جار في الوجود ولكن أين جهاز الاستقبال؟ فالله قد خلقنا في أحسن تقويم، وكأحسن أجهزة استقبال لأمواج الوجود، أروع وأقوى بكثير مما نعمله بأيدينا من أجهزة الراديو والتلفزيون والرادار. ولكن قضت حكمة الله أن يردنا أسفل سافلين، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[1]. فكان لهم أجر غير ممنون أولئك الذين كدحوا إلى ربهم كدحا فلاقوه، وكان أجرهم هو الصعود مرة ثانية إلى خلقتهم الأولى التي خلقهم الله عليها في أحسن تقويم. فترجع إليهم شفافيتهم الروحية، ويرتقوا إلى مستوى أعلى من أجهزة حساسة ـ أعلى بكثير من أجهزة الاستقبال التي يعملها الإنسان بيديه ـ لاستقبال أمواج الفيض الوجودي.

يقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[2]. فقد فتحت هذه الآية أبواب السماء لمن يرجو لقاء ربه، وذلك بأن يعمل عملا صالحا في اتجاه استعادة شفافيته وحساسية جهازه الرائع للقاء الله وتلقي أمواجه القدسية. ومتى ما تيسر له ذلك بأن لا يشرك بعبادة ربه أحدا. . . أي أن ينظم مؤشر الراديو على الموج الدقيق بحيث يضبطه على عبوديته لله وحده، مزيلا بذلك التداخلات الأخرى التي تحمل عبوديته للأغيار ولكل ما سوى الله. يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك».

ولقد ذكر أستاذي الأعظم صادق العنقاء قدس سره في كتابه «الزوايا

(١) سورة التين الآيتان ٤-٥.

(٢) سورة الكهف الآية ١١٠.

الخفية للحياة» ثلاثة عشر نقطة مغناطيسية في بدن الانسان لتلقي أمواج الفيوض الوجودية، واهمها القلوب التي في الصدور. ولكن مع الأسف مع تردي الانسان الى اسفل سافلين، فقد تعطلت هذه النقاط المهمة في بدن الانسان عن اداء وظائفها، لاتجاه الانسان الى الاغيار وانشغاله بها بعيدا عن نفسه وعن معرفتها، ومن ثم معرفة الله والاتصال به. فعلى الرغم من نهي الانبياء عن الشرك بالله، الا ان الانسان يشرك به عمليا في حياته وفي اهتماماته اليومية. وحتى المؤمنون ابتلوا بالشرك الخفي، في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1]. أو في قول النبيﷺ: «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء».

ولقد خلقنا الله أجهزة حساسة للقاء الله واستقبال كلامه ـ كالراديو ـ وكلامه ووجهه الكريم ـ كالتلفزيون ـ وهو يريد منا ان نرجو لقاءه، ونرتقي من ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ الى ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. واذا توفقنا الى بروز الرجاء في انفسنا، والتغيرات الجذرية في داخلنا، والتفجرات الباطنية في قلوبنا، سمعنا الحادي الذي يحدونا الى «الكنز الخفي» والى خلوص المحبة لله وحده. ومن ثم عملنا ما هو الصالح والمناسب، وهو تصليح جهازنا الحساس الذي تحطم خلال سقوطنا الى ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾. ومن ثم نستعيد شفافية الفطرة الصافية، وعملها الهام في الوجود، وهو التحلي بلقاء الله واستقبال فيوضه وكراماته التي لا تعد ولا تحصى، والالتقاء الدائم مع امواجه الكريمة في الوجود، والاتصال بأنواره القدسية، بعد التخلي عن كل انواع الشرك الخفي، والعبودية الخافية للاغيار وكل ما سوى الله.

وهذا ما كان يفعله اهل الصفة، اذ يقول الله فيهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2]. وهذا هو المطلوب منا ان نريد وجهه ونعمل جاهدين من اجل ذلك، كي يستعيد جهازنا عمله

(١) سورة يوسف الآية ١٠٦.

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٢.

الاستقبالي في الوجود، ونستعيد البصيرة وعيون الباطن لرؤية الله عز وجل. يقول الامام الصادق عليه السلام «يري المؤمن ربه بعد موته وقد رآه في الأزل عندما خاطبه ربه ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقال ﴿بَلَىٰ﴾. وحتى في هذه الدنيا يرى المؤمن ربه ولا تكون الرؤية بالبصر وإنما بالبصيرة».

واذا لم نفعل شيئا في هذا العمر القصير، ولم نتدارك الفرصة الممنوحة لنا لاصلاح جهازنا، واستعادة مركزنا في الوجود، فالويل والثبور لنا، وذلك هو الخسران المبين. ومع الاسف الشديد فبدل ان يعمل الانسان في هذا الاتجاه، يضيع عمره في انكار الحقائق الساطعة، وحجب الانوار واستجلاب الظلمات بيديه. اي انه يعمل في عكس الاتجاه، كأن المطلوب منه ان يحقق بيديه ومجهوده الخسران المبين لنفسه، في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾!!

كما ان الانتكاسة الروحية التي حصلت عند العامة بعد الرسول ﷺ حسب الآية الكريمة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾(١)، ما كانت إلا لأنهم ذهبوا في عكس الاتجاه الذي أوصى به الله جل وعلا ورسوله ﷺ. فالآيات الكثيرة التي جاءت في القرآن الكريم بشأن أجر الرسالة المحمدية، بأنه المودة في القربى، وأكد على ذلك القرآن مرارا وتكرارا، إلا أن العامة ذهبوا في اتجاه معاداتهم، والحط من أقدارهم، ظانين في قرارة نفوسهم بأنها مسائل عرقية ـ والعياذ بالله ـ أي بأن الرسول ﷺ يحابي أقاربه... وحاشاه من ذلك! وتعالى عن ذلك علوا كبيرا! فالرسول ﷺ في مقام السماء، وليس عنده ذرة من المحاباة لأحد، وكل اهتمامه منصب في مصلحة الأمة، وأن تكون مستقيمة من بعده، وأن تتخذ إلى الله سبيلا، في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾(٢)، أو في قوله

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

(٢) سورة الفرقان الآية ٥٧.

تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[1]، أو في قول الرسولﷺ بعد حجة الوداع في غدير خم: «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا». فالعترة والقربى هم السبيل إلى الله، والأمان من التيه والضلال، وأن على المسلمين أن يتخذوهم وسيلة وسبيلا إلى ربهم.

فظنت العامة في قرارة نفوسهم بأنها محاباة الأقارب، فذهبوا في عكس اتجاه القربى، وسلبوهم حقوقهم في ولاية المسلمين. ولو أن العترة بقوا على رأس ولايتهم واستلموا أزمة إدارتهم، لبقي المسلمون كيفا وعددا على القوة والشوكة التي كانوا عليها في زمان النبي ﷺ، ولم يهنوا ولم يضعفوا كما نراهم اليوم. يقول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2].

ولو أن المسلمين بقوا على مودتهم، وسلموا اليهم أزمة أمورهم وإدارة دنياهم وآخرتهم، لفتح الله عليهم إلى يوم القيامة بركات من السماء والأرض. ولكنهم سلموا امورهم الى بني أمية الذين كانوا يعادون العترة من زمان النبي ﷺ. وعندما تسلموا أزمة المسلمين أمعنوا في القربى ظلما واضطهادا لم يشهد له التاريخ مثيلا. فصدق فيهم قول الرسول الأعظمﷺ: «كما تكونوا يول عليكم».

والعامة الى يومنا هذا لا تعترف لهم بالولاية في كل شؤونهم، وربما اكتفى البعض بالتغني بمودتهم. ولكن المطلوب العمل وليس التغني، ولكن هكذا قضت الحكمة الربانية أن يضطهد القربى ويقتلوا تقتيلا. فما من إمام إلا وقتل إما بالسيف أو بالسم، ولا زال الاضطهاد مستمرا الى يوم قيام المهدي عليه السلام.

ورغم الانتكاسة الروحية بعد الرسولﷺ ، إلا أن هذه الأمة أكرمها

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٣.

(٢) سورة الأعراف الآية ٩٦.

الله بكنوز من العلم لم يكرم بها بني إسرائيل رغم وجود الأنبياء بينهم. يقول الرسول ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل»، أو في رواية أخرى، «علماء أمتي أفضل من أنبياء بني اسرائيل». والأمة بحاجة الى المحتوى والمضمون لا الى الاسماء. فالرسول ﷺ بهذا الحديث الشريف جعل خزائن النبوة مستمرة في هذه الأمة الى يوم القيامة.

فإذا كان عندنا هذا الرصيد من خزائن النبوة وكنوز المعرفة، فلماذا أدرنا لها ظهورنا؟ ولماذا لا نفهم المضمون والمحتوى ونتمسك بالاسماء والتقليديات؟ لقد حمل أئمتنا عليهم السلام علم النبيين وأسرارهم، فلم يجدوا عند قومهم من يقدر هذه الخزائن والكنوز إلا القليل. وعندما هاجر الإمام الرضا عليه السلام من مدينة الرسول إلى ايران، وحصل ما حصل له من جفوة أخيه ابراهيم، أخبر أحد خواصه وهو علي بن أسباط من جملة ما قال: «. . . ولكن الله تبارك وتعالى لم يزل منذ قبض نبيه ﷺ هلم جرا يمن بهذا الدين على أولاد الأعاجم ويصرفه عن قرابة نبيه ﷺ هلم جرا فيعطي هؤلاء ويمنع هؤلاء»[1]. ولقد ذكر الله أيضا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].فهذا الفضل العظيم وهذه الخزائن والكنوز تعطى الى أقوام هذه الأمة العظيمة حسب قابلياتها، في قول الرسول ﷺ: «العطيات على قدر القابليات». فاذا لم تسع قوما حولها الله الى قوم آخرين، في مجموعة هذه الأمة العظيمة، يحبهم ويحبونه.

ويصف الشاعر نقل الإمام الرضا عليه السلام أسرار علم النبيين إلى فارس بقوله:ـ

بث الرضا في الطوس من أسرارها	سر النبوة در علم بقاها
وغدت رجال قلة من فارس	بعد الرضا للسر كنز خفاها
حملت صدورهم خزانة سرها	تبعوا أئمة عترة من طه

(١) كتاب أصول الكافي للعلامة الكليني الحديث ٩٨١.

(٢) سورة المائدة الآية ٥٤.

نقلوا أمانة ربهم من مرشد | وإلى المريد وشيخهم لفتاها[1]

فهل آن الأوان لكي ترجع هذه الكنوز والخزائن النبوية الى شبه الجزيرة العربية مرة أخرى؟ وهل نحتاج الى ثورة روحية كالثورة التي حملها الإمام الرضا عليه السلام من مدينة الرسول الى ايران؟ ولماذا هاجر سيد حسن المسقطي الى الهند ليجد هناك مريدين لعلم النبيين في حيدراباد وومومبي وكشمير؟ ولماذا النجف الأشرف لم تسعه، ولم تسع كنوز الأنبياء وخزائنها وأسرارها؟ ولو أنها وسعت هذه العلوم وهذه الكنوز لكان للتاريخ مجرى آخر!

واذا كان علماء أمة محمد صلى الله عليه وآله كأنبياء بني اسرائيل أو في رواية أخرى أفضل منهم، فكلنا نعلم أن أنبياء بني اسرائيل كان ينزل عليهم الوحي. فهل يعقل أن من كان أفضل منهم لا يحظى بهذا الشرف وبهذه العناية الربانية؟ واذا كان الله سبحانه وتعالى يوحي الى النحل في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[2]، والى الارض في قوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[3]، فهل من المعقول ان لا يوحي الى اولئك الذين يحملون علم النبيين؟

إن الله سبحانه وتعالى يقول بأنه يكلم البشر إما وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء. وفعل «يرسل» هو فعل مضارع ويدل على الاستمرارية، ويؤكد الله بأن وحي الرسول الى مريديه هو كلام الله، فلماذا ينكر البعض كلام الله؟ وعندما يستعمل الله تعالى فعل المضارع إذ يقول: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[4]، والذي يدل على الاستمرارية، فلماذا ينكر البعض ذلك؟ وعندما يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «لولا تمريج في قلوبكم ولغو في لسانكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع»، فهل لا يدل ذلك على أنه فتح لنا أبواب السماء

(١) السموات السبع صفحة ٨١.
(٢) سورة النحل الآية ٦٨.
(٣) سورة الزلزلة الآية ٥.
(٤) سورة الحج الآية ٧٥.

على مصراعيه، ودلنا على إزالة التمريج عن قلوبنا، ورفع اللغو عن لساننا، حتى نرى ما يراه ونسمع ما يسمعه؟

واذا كان الله سبحانه وتعالى بهذا الكرم العظيم الذي لا ينقطع، حين يوحي الى النحل والى الارض، فلماذا هذا البخل والشح من جانب بعض الناس؟

واذا كان الرسول الأعظمﷺ بهذا الكرم النبوي والجود السماوي، حين يدلنا على الطريق لكي نرى ما يراه ونسمع ما يسمعه، فلماذا هذا البخل والشح من جانب بعض الناس من أمة محمدﷺ؟

واذا كان الله بهذا الكرم العظيم الذي لا ينقطع حين ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ و﴿يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ في هذه الاستمرارية في حياتنا المقدسة، فلماذا هذا البخل والشح من جانب بعض الناس؟

أليس الناس قد أصبحوا يعتقدون من حيث لا يشعرون ـ والعياذ بالله ـ بأن الوجود قد أصبح أبكم أصم، وأن الله قد أصبح ـ والعياذ بالله ـ ويده مغلولة كما يقول اليهود؟

لا والله إن الوجود يتكلم بكل طلاقة، كما كان وكما يكون الى الابد. ولكن فلنرفع الوقر عن آذاننا، والتمريج عن قلوبنا، واللغو عن لساننا، حتى ندخل في حريم قدسية الله سبحانه وتعالى. وإن الوجود ليتفاعل معنا بكل جوده وكرمه، وبكل قوته وحيويته، ولكن بشرط أن نرفع الظلم عن أنفسنا، التي ظلمناها بأيدينا ومجهودنا، وباعتقاداتنا التقليدية التي تحجب النور عن البصيرة، وتحرمنا من قدسية الباري، ومن جوده وكرمه الذي لا ينقطع. يقول الباري تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1].

ومن هو أقرب إلينا منه! يشاهدنا في سرائرنا، ويطلع علينا في ضمائرنا، ويعلم مبلغ بصائرنا، ويجيبنا اذا دعوناه، ويرد علينا اذا كلمناه،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦.

ويأمرنا أن نستجيب له ونؤمن به. فإن فعلنا ذلك، فتح لنا أبواب الرشد والنماء، الى ما شاء الله من مناهل جوده وكرمه، ورياض قربه وغدرانه، وأودية أنسه وغيطانه، وعيون مقاماته التي لا تنضب، وجداول كراماته التي تجري عذبا زلالا. ويقول مولانا علي‏عليه السلام «اللهم إنك أنس الآنسين لأوليائك وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك». ويقول الإمام الحسين‏عليه السلام «أنت المونس لهم حيث أوحشتهم العوالم».

أما آن الأوان أن نتزحزح عن الغي والغفلة، ونصغي الى ملكوت الله مسامع قلوبنا، حتى تفضي كرامة الله الى الأنس به، والوحشة عن عوالم الأغيار التي تطردنا عن دار السلام، وتسلبنا النفس المطمئنة، التي ترجع الى الله دون غيره راضية مرضية، وتدخل في عباده وجنته. فالاعتقادات الباطلة في الفكر تؤدي بنا الى تمريج القلب. وكل فكر يمت الى الأغيار بصلة فهو باطل، وكل فكر يمت الى الله بصلة فهو حق. فليكن هذا معيارك في تصحيح اعتقاداتك الفكرية.

أما الاعتقاد الصحيح أو الايمان الذي يباشر الله به قلوبنا، فيقع في مجال العرفان العملي الذي يتسامى عن الفكر أصلا، ويتصل بالقلب الذي يسمو ويفارق تمريجه. قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[1]. فالقلب وتحرره عن التمريج هو ما يقع في مجال العرفان العملي وطرية السير والسلوك. واللغو في اللسان! وما أدراك ما اللغو في اللسان! يقول الله تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[2].

فمن أعرض عن اللغو كان مفلحا، ومن لم يعرض عنه لم يصل الفلاح والنجاة من سبع اللسان وتبعاته، وما أعظمها من تبعات، في قول الرسول الأعظم‏صلى الله عليه وآله: «وهل يكب الناس في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم!». يقول مولانا علي‏عليه السلام «اللسان سبع إن خلي عنه عقر»، وهذا

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ١٩٣-١٩٤.

(٢) سورة المؤمنون الآية ٣.

السبع يؤدي بنا الى إلصاق التهم والبهتان بعباد الله وأخلائه. واللغو والتمريج في القلب هما الحاجب الذي يحجبنا عن الوجود، وعن حيويته وطراوته، كمن يسد نوافذ غرفته بيديه، ثم يقول لا أرى نورا!! وكمن يغمض عينيه ويضع يديه عليهما ثم يقول لا يوجد هنا شمس!!!

فالله قد فتح لنا الأبواب على مصراعيها للكلام إلينا وإلى قلوبنا بطرقها الثلاثة التي ذكرها في سورة الشورى. . . وبأي طريق يختاره هو لا ما نختاره نحن. فإن أراد أن يكلمنا، سمعته آذاننا فنبقى حيارى من ذلك. . . أو سمعنا دويه العظيم في رؤيانا الصادقة فترتعد له فرائصنا. . . أو نزل إلى قلوبنا فتقشعر له جلودنا، كأنه برق الكهرباء أصابنا في لمحة بصر.

ولماذا طغت علينا محدوديتنا، فنلتمس أسباب الخوارق والمعجزات في طبيعتنا المحدودة؟ أليست الطبيعة مخلوقة؟ وأليس الخالق على كل شيء قدير؟ ألم يحدث لك شيء مما ذكرته، فصددت له آذانك وأغفلته قائلا: «ما هذا إلا نسج من الخيال»؟ أما آن أن يكسر «الأنا»؟ وأن تكسر الغشاوة من القطرة، فيرجع الماء إلى محيط الأقيانوس؟ وأن تخرج من قفصك المحدود إلى عوالم اللانهاية؟

إن الله عندما كلم مريم عليها السلام أكدت لزوج خالتها زكريا عليه السلام بأنه هو الله الذي كلمها! فقال الكهنة وهم رجال الدين التقليديون، وابتسامات الهزء والسخرية ترتسم على شفاههم (المقدسة): «وهل يكلم الله امرأة»؟ كأنهم هم الذين احتكروا الله، وهم الذين يعينون لمن يكلم الله ولمن لا يكلم! وفي أيامنا هذه وشمس القرآن بازغة على رؤوسنا، يعلن بأن الله يكلم البشر، تقوم القيامة هنا وهناك تريد إسكاته بمختلف التفسيرات والتأويلات. والقرآن فصيح بليغ يدوي كالرعد، ولكن الضجيج حولك، والتمريج واللغو في باطنك، تجعل صوته خافتا يصل الى حد الهمس.

وعندما ظهر الله لشعيب عليه السلام في أنواره القدسية، كان يقول لمن حوله: «إنني أرى النور». فكان الناس يسخرون منه ومن أقواله... الى ان أتى موسى عليه السلام فأخبره، فصدقه موسى عليه السلام. ترى لماذا الذين يسدون النوافذ ويمنعون النور، يسخرون من الذين فتحوا النوافذ وأبصروا النور!! لماذا بدل الهزء والسخرية لم يفعلوا ما فعلوه، ولم يفتحوا النوافذ حتى يدخل النور الى حياتهم! يقولون إن وقتهم الثمين ضيق! ولكن أكثرهم أعداء ما جهلوا، كما قال مولانا علي عليه السلام، ويقولون ما هذا الكلام إلا هراء!!!

يقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1]. فما هو يا ترى نور الله الذي يريدون أن يطفئوه بأفواههم؟ وهل هذا ضرب من التاريخ قد حدث في زمان معين ولا يحدث مثل ذلك الآن؟ لا والله إنه ليس كذلك، فالقرآن حي يصلح لكل زمان ومكان، ويصدق لكل زمان ومكان... ومرة أخرى إنه فعل المضارع الذي يدل على الاستمرارية. إن نور الله أزلي أبدي لا يمكن حجبه... ولكن باستطاعة اللغو والتمريج أن يحجبا صاحبهما والآخرين الذين يحذون حذوه... ويعمل فيهم ظلما، وما أكبره من ظلم! في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[2]. فيا عجبا ضياع عمرهم في حجب النور وإسكات الحق وركوب الخسران المبين!

إن أصحاب اللغو تتغير تعابيرهم في كل زمان ومكان حسب العقلية السائدة في المجتمع، ولكن مضمونها واحد. فعند ظهور النور المحمدي تظافرت أفواه اللغو على إسكات الحق بقولهم: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا

(١) سورة التوبة الآية ٣٢.

(٢) سورة الأنعام الآية ٢٦.

سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1]، أو قولهم: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[2]. أو قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[3]. أو قوله تعالى فيهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[4].

وعند ظهور الخلافة العلوية تظافرت أفواه اللغو على إطفاء نور الله بقولهم: «لا حكم إلا لله»، فانقادت ضعفاء النفوس لمثل هذا الكلام الذي هو كلمة حق يراد بها باطل. وفي خضم الخلافات بين الصحابة، حصلت الفتنة والامتحان الحقيقي للصحابة، في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[5]، وصعب التمييز بين من هو أهل الحق ومن هو أهل الباطل. فكان الإمامعليه السلام يقول لهم: «انظر إلى ما قيل ولا تنظر إلى من قال» أو قولهعليه السلام «إنك لم تعرف الحق فتعرف أهله ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه»، بمعنى أنهعليه السلام قد نصحهم أن لا يحجب عنهم الأشخاص وظاهر صحابتهم للرسولصلى الله عليه وآله نور الحق ولب الحقيقة، وأن يهتموا بما يقال، لا بمن يقول، ثم يميزوا الخبيث عن الطيب.

وفي أيامنا هذه تتنوع أساليب اللغو لتحجب الكثيرين عن نور الله... بنفس المضمون الذي ذكرناه، ولكن بتعابير جديدة تناسب عقلية المجتمع السائدة اليوم. ولكن اذا نظروا الى ما قيل والى ما ينفعهم بغض النظر عن القائل، وسعوا في معرفة الحق قبل تعيين من هو أهل الحق، لكان خيرا لهم. وحبذا لو التزموا الصمت ونقص كلامهم، واقتربوا الى تمام العقل في

(١) سورة المؤمنون الآية ٢٤.
(٢) سورة الزخرف الآية ٢١.
(٣) سورة الفرقان الآيتان ٧ ـ ٨.
(٤) سورة الفرقان الآية ٢٢.
(٥) سورة العنكبوت الآية ١.

قوله عليه السلام «اذا تم العقل نقص الكلام». فالمرء ينكشف على حقيقته بكلامه، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فالكلام يشرف العاقل المتقي، ويفضح الجاهل الفاجر، في قوله عليه السلام «المرء مخبوء تحت لسانه».

والكثيرون يصدرون أحكامهم بكل سهولة على عباد الله، يتهمونهم بمختلف التهم، غافلين عن الحقيقة بأن الله هو أحكم الحاكمين، وهو العالم ببواطن الأمور، وأن الذي يخاف الله يعرض عن اللغو، ولا يحكم بهذه السهولة على الناس حسب ظواهرهم، وعلى الأخص الصالحين من عباد الله. وأتعجب كيف يسمح الناس لأنفسهم القضاء على الثقاة بمحض الظن، و ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[1] كما يقول الله تعالى. وما قيمة الانسان اذا لم يحمل صفات العدل والانصاف في وجوده، وأطلق أحكامه على هذا وذاك من دون رادع من ضميره، ومن دون خوف من الله، وكيف يسمح لنفسه اذا كان مدعيا للايمان ان يلطخ عباد الله الصالحين بتهمه الزائفة، ويلصق بهم البهتان ظلما وعدوانا، وما أكبره من ذنب!! يقول الإمام علي عليه السلام: «ليس من العدل القضاء على الثقة بالظن»، أو قوله عليه السلام «بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد».

وكيف ينسون موعظة الإمام الصادق عليه السلام «احمل أخاك المؤمن على سبعين محمل». وكيف لا يخاف الله من أن لا يحمل أخاه على سبعين محمل، وأن لا يختلق له مختلف الأعذار، لأن اللطيف الخبير هو وحده الذي يعرف الظروف والبواطن. وكيف ينسون موعظة الإمام علي عليه السلام: «أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم فما يعثر منهم عاثر إلا ويده بيد الله يرفعه». وكيف لا يخاف الله من أن لا يقيل ذوي المروءات عثراتهم، ويدهم بيد الله يرفعه، وكيف يلوم أحدا على ما يجد العذر في مثله عند غيره حتى يسمع اعتذاره كما يقول الإمام عليه السلام. وما أجدر بالناس أن لا يحجبوا الحكمة عن أنفسهم بحجاب الأشخاص، وحقيق بهم أن يكلوا إصدار الأحكام الى أحكم الحاكمين.

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٢.

وما أكثر الناس الذين يحتجبون عن الحق بسبب الأشخاص، ويا ليتهم سمعوا الكلام ولم ينظروا إلى قائله! والانسان على الرغم من انه سمع الموعظة آلاف المرات، إلا أنه في العمل تنصب اهتماماته على الأشخاص، فيحجبه ذلك عن الحق، وينظر الى القائل من وراء تصوراته وأحكامه، فيحرم نفسه من الحكمة التي هي ضالة المؤمن. يقول الإمام زين العابدين عليه السلام «هلك من لم يكن له حكيم يرشده». فأكبر المعاصي أن تحجب نفسك عن الحكيم بتصوراتك وأوهامك والأحكام التي تطلقها عليه ظلما وعدوانا. والمفلح من تجرد عن الأحكام، والتمس الحكمة في كل مكان وزمان، واهتم بما قيل بغض النظر عمن قاله، يستثير بالحكمة الربانية دواء دائه، وينتقي منها ما ينفعه، كما تفعل الأكياس من المؤمنين.

فخليق بنا أن نوجه كل اهتماماتنا الى معرفة الحق لأن في ذلك فلاحنا ونجاتنا، وأن نعرف بالجزم واليقين بأنه لا يمكن معرفة أهل الحق إلا إذا عرفنا الحق. وأنه لا يمكن معرفة الحق إلا إذا كان الحق ضالتنا، وكنا ننشده بكل إخلاص وجدية، بالتجرد الكامل عن التحيز لهذا أو ذاك. فمتى يصلنا التوفيق الى هذا التجرد، والابتعاد عن التعصب والتحيز، الذي أوجدناه على أساس الأحكام الموهومة المتصورة؟

والعرفان هو الحق والنور الذي احتجب عن كثير من الناس، لأنهم انعمقوا في الدين وأصبحوا إخوان جدل وأصحاب رأي وأسراء آفات الشك والتردد، كما وصفهم إمامنا علي عليه السلام:

فاترك أخا جدل في الدين منعمقا   قد باشر الشك فيه الرأي مأؤوفا

وأصبحوا ما نسميهم «مؤمنين متزمتين»، بعيدين عن فطرة الله الذي هو الدين القيم لقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. وغدوا بعيدين عن الحنيفية السمحة التي قال الرسول

(١) سورة الروم الآية ٢٩.

الأعظمﷺ عنها: «بعثت بالحنيفية السمحة». فهذا الدين الحنيف «لا ضنك لطرقه ولا وعوثة لسهولته ولا سواد لوضحه ولا وعث لفجه» كما يقول الإمامعليه السلام. أما هم فقد جعلوا هذه الحنيفية صعبة على أنفسهم وعلى غيرهم، كالقشرة الصلبة التي على ظهر السلحفاة. وصدق فيهم قول مولانا عليعليه السلام «ومن شاق وعرت عليه طرقه، وأعضل عليه أمره، وضاق عليه مخرجه»، وقولهعليه السلام «وإنكم لتشقون على أنفسكم في دنياكم، وتشقون به في آخرتكم. وما أخسر المشقة وراءها العقاب، وأربح الدعة معها الأمان من النار».

ثم إنهم انعمقوا في الدين، وجعلوا الجدال والمراء ديدنهم، فلم يصبح ليلهم، ولم تنجل ظلمات ضلالتهم عن صباح الانابة وأنوار الهداية. فقد وصفهم الإمامعليه السلام بقوله: «فمن جعل المراء ديدنا لم يصبح ليله». وتركوا قول «لا أدري» و «لا أعلم»، وما أبسط الكلمة وأسهلها على الفطرة، ضاربين بذلك قول الإمامعليه السلام عرض الحائط في قولهعليه السلام «من ترك قول «لا أدري» أصيبت مقاتله». أو في قولهعليه السلام «ولا يستحين أحد منكم اذا سئل عما لا يعلم أن يقول «لا أعلم» ولا يستحين أحد اذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه». وكل يفكر أنه علامة الدهر، ويجادل ويماري من منطلق العجب، «وأوحش الوحشة العجب» كما يقول الإمامعليه السلام.

واذا نظروا الى باطن انفسهم وجدوا هناك آفة الشك لا تجد الى اليقين سبيلا. فهم لا يحبون الطريقة التي تأخذهم الى اليقين، ويبقون تحت وطأة الشك والريب، في قولهعليه السلام «ومن تردد في الريب وطئته سنابك الشياطين».

وكأن العرفان هو من عالم آخر يجدونه صعبا عليهم لا يستسيغونه، ومستحيلا لا يمكن مناله. فقد أصبحوا غرباء عن الفطرة والدين السمح وعن الثقة واليقين. واذا تكلم من كان له نصيب من العرفان، وأبرز حالته الجميلة التي وفقه الله اليها، وأبرز حب الله وكراماته، تناوشته عيون الشك من كل جانب، وأحاطت به همسات الريبة تشكك في شخصه وفي

أقواله. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

في حين أن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام قد نصحنا بالتمسك بهم ومصاحبة هذا النوع من الناس الذين عشقوا الله، وحدثوا بنعمة ربهم من الكرامات وجمال الحال إذ يقول سلام الله عليه:ـ

واصحب أخا ثقة حبا لسيده ... وبالكرامات من مولاه محفوفا

أمسى دليل الهدى في الأرض مبتسما ... وفي السماء جميل الحال معروفا

فانظر كيف اصطنعهم الله على عينه، وكيف نشرت نعمة الحال والمقامات عليهم جناح كرامتها، وأسالت لهم جداول نعيمها، فأصبحوا في نعمتها غرقين، وفي خضرة عيشها فكهين، وكيف استلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، كما قال الإمام عليه السلام.

ومع الأسف الشديد فالناس بدل أن يتمسكوا بهؤلاء العرفاء ويقدروهم، يستكبرون عليهم ويتهمونهم بالرياء والنفاق، فهم لا يرون الأشياء والأشخاص إلا من مرآة أنفسهم المظلمة المتزمتة. «فالانسان مرآة نفسه» كما يقول الحكماء، لا يرون في غيرهم إلا انعكاس أنفسهم وأخلاقهم وخصالهم.

فاذا كان العارف يتكلم عن الله وعن حبه، فانه يفعل ذلك لان الله هو كل شيء في حياته، وليس له هم غير الله، وهو يعلم علم اليقين أن بيده ناصية كل دابة، وإليه مصير كل نسمة، ويختار مصيره الى الله في كل حركاته وسكناته، وبكل قلبه وتعلقاته، وفي كل ذكره وهمساته، فنحو الله قصد سبيله، وإليه مرامي مفزعه. فاذا كان يعيش كما يعيش الناس، فانظر الى باطنه حتى ترى الحال الجميل الذي يعيش فيه. وانظر الى الحال ولا تنظر الى اعمال الظاهر، التي يشترك فيها الجميع. فكلا الجيشين في يوم عاشوراء كانوا يصلون ويحجون. فان هذا النوع من النظر الضحل مضلل،

(١) سورة الأنعام الآية ٢٦.

فربما كان عمل الظاهر باطلا في لباس الحق، كالصلاة والصوم والحج التي كان يمارسها قتلة الحسين عليه السلام، وربما كان حقا في لباس باطل، كالاعمال التي عمل بها الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام.

ولقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «إن العمل لا ينجي»، فعمل الصالحات التي ذكرها الله إنما هو في الحقيقة الحال والمقام الذي يحمله الانسان معه الى عالم الآخرة، وهذا ما كان يعنيه الإمام عليه السلام في دعاء كميل: «واجعل حالي في خدمتك سرمدا». فاذا كنا نتكلم عن مقامات العارفين فإنما نتكلم عن حالاتهم وملكاتهم الرفيعة، وهم بعين الله لا يعرف باطنهم إلا الله، والذين رحمهم الله بصبوغ المقامات عليهم. يقول مولانا علي عليه السلام «إن الله يدخل بصدق النية والسريرة الصالحة من يشاء من عباده الجنة». ويقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «يبعث الناس يوم القيامة على نياتهم»، ويقول أيضا: «ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها إن خيرا فخير وإن شرا فشر». وهل هناك رداء أبهى وأزهى من التغني بحب الله وعشقه، والتكلم عن الله وعظمته، والدعوة الى الله والى هدايته!!

ولا تجدن من كان لسانه بذكر الله لهجا ولا من كان حاله في خدمته سرمدا غيرهم. فهم إما أن يكونوا لهجين بذكر الله لسانا وقلبا، وهذا هو ذكر الظاهر، وأما ان يكونوا لهجين بذكره قلبا، وهذا هو الذكر الخفي، وهذا هو ديدنهم بكرة وأصيلا، لا تشغلهم عن الله زينة متاع، ولا قرة عين من ولد ولا مال. وقد سماهم الله ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ لان حياتهم كلها لا تخلو من الذكر طرفة عين، فنافذة قلوبهم منفتحة على أنوار الله في ليلهم ونهارهم، وهم شهود الحق على بعثة الرسل والوحي الذي نزل عليهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. وما عساي أن أقول أكثر من ذلك! وما عساي أن أعرف العرفان بأفضل من ذلك! وهل في الدنيا شيء أسهل وأبسط من هذا الذي أقوله؟

---

(١) سورة النحل الآية ٤٣.

نفي الخواطر دليل على دخول حرم الله

وإذا ثبت السالك في سيره وسلوكه وأفاض الله عليه بالاستقرار في قلبه والسيطرة على خواطره ودخل حرم الله فإن الله يصونه في حصن «لا إله إلا الله» ويأمنه من عذابه. ولقد قال الله في حديثه القدسي: «كلمة لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي». ولقد ذكر السيد محمد الحسين الحسيني[1]:

«وكان السيد (هاشم الحداد) يقول: إذا ما صار نفي الخواطر يحصل بصورة جيدة لدى السالك، فإنه سيوصله أخيرا إلى عالم الفناء الذي هو وجود محض. فلا يتوقف عنه ورود الخواطر فقط، بل إن ذلك ينتفي ويصبح أمرا غير ممكن، وهو سيصبح ذلك السالك مستغرقا في عالم التوحيد بشكل لا مجال له معه في النزول إلى عالم الكثرات ولا لمرور الخطرات عليه، لكأن سد الإسكندر قد شيد بينه وبين الخواطر، ذلك السد المنيع الذي لا يستطاع نقبه وثلمه. وفي هذه الحال فإن الخواطر سترد عليه بإجازته وإذنه النفساني، فإن أجاز لخاطرة ما بالخطور على ذهنه خطرت وإلا فلا.

وهكذا فإن حال السالك ستصبح معاكسة تماما لحاله السابقة، فقد كانت الخواطر في الوهلة الأولى تهجم عليه بلا إذن أو سماح فتحتل زوايا قلبه، وحسب تعبيرنا فإنها تحدث انقلابا مدبرا في قلبه ينبغي للسالك معه أن يتجشم الأتعاب والمشاق ليستعيد حضور قلبه وليدفع الخواطر عنه بشكل تام، أما في هذه الوهلة فإن السالك هو مع الله دوما وفي حرمه،

---

(١) الروح المجرد صفحة ٦١٢-٦١٣.

فلا حق هناك لخاطرة ما في الورود عليه، ولربما مرت الأيام والشهور دون أن تخطر في ذهنه خاطرة ما إلا الخواطر الحسنة وغير الضارة التي تعد من لوازم الحياة كلزوم شرب الماء عند العطش ورد السلام عندما يسلم عليه أحد وأمثال ذلك.

ويتضح هنا الفارق بين السالك الحقيقي وبين مدعي السلوك، ويمتاز هنا الوارد في الحرم عمن يدعي الورود فيه، ومن انتمى إلى حقيقة العبادة والعبودية عمن يعد نفسه عابدا وزاهدا فيشتغل بالقيام والقعود والركوع والسجود دون إدراك للذة العبادة».

وبعد الموت والمحو في الله يستعيد العارف صحوه، ولكن أولياء الله في خطر، فإن الشيطان يقعد لهم صراط الله المستقيم. يقول الله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[1]. ويبقى الامتحان مستمرا، كما حدث لموسى عليه السلام. يقول الله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾[2]. والشيء الذي يبقى من العهد القديم هي حظوظ النفس، فيتوصل الشيطان إلى الولي في حظوظ نفسه، ويبدأ هناك الجهاد الأكبر. يقول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[3].

والعمل هنا أصعب، والشرك والشيطان هنا أخفى وأخفى، كدبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصفا. ولا يتم نفي الخواطر بالطور المطلق إلا بعد الغلبة على حظوظ النفس. ويلح العارف بالتمسك بالزلفى والقربى والإنابة الدائمة إلى الله والاعتصام به. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4]. ومن دون هذه القربى والإنابة والاعتصام والاستقامة، يبقى هناك خطر الدعاوى والعياذ بالله.

---

(١) سورة الأعراف الآيات ١٦ ـ ١٧.

(٢) سورة طه الآية ٤١.

(٣) سورة هود الآية ١١٤.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٠١.

ويعود الولي ويقاوم حتى دواعي القيل والقال ناهيك من الدعاوى بأشكالها المختلفة. وفوق كل جهاد جهاد أكبر منه، ولا يتيسر إلا بذكر الله المستمر، كما قال الله تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1]. وبعد الإعراض عن القيل والقال وأي نوع من الدعاوى، يجاهد ويشاهد في نفسه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال أحد. وينزل الله سكينته عليه ويؤيده بجنود لا ترونها. ويفارق ضلال الفرق والتكاثر، ويقبل على الجمع وجمع الجمع، حتى يتم نفي الخواطر بالإطلاق. ويرى الجمع هو الجمال فيطلقه ولا يقيده بسبب الميل لزخرف الدنيا وزينتها. وكما يقول الشاعر:ـ

والنفس كالطفل إن تتركه شب على   حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وكما يصدق هذا في بداية الطريق، يصدق هنا أيضا في حالة حظوظ النفس، وأثناء المجاهدات الكبرى في حياة الولي. وهذه العملية تستمر إلى أن يخلو الولي من حظوظ نفسه بالكل، وتتم الغلبة على الخواطر، ويصل إلى حالة الولي الأعظم الإمامﷺ حين يقول: «إليك عني يا دنيا فقد طلقتك ثلاثا لا رجعة لي فيها إليك. . . آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق». بهذا الأنين والنحيب والحنين يكون الله أنيسه في هذا الطريق، وتقر عينه بجمال محياه، ويشاهد حسنه بكل ذرة في وجوده، ويثني عليه بكلية لسانه، وينشق رياه من كل هبة، ويسمع كلامه بالآذان التي في القلوب، ويلثم كل جزء منه أياديه الكريمة السخية. فماذا يبقى بعد فيه من خاطرة، وفي كل ذرة من وجوده جوهر يطفح بماء الحياة والمحبة.

والولي في تردده بين النفس والروح، إنما هو يتردد بين الصيغة الصورية والصيغة المعنوية. فروحه نسخة من اللاهوت، وصورته نسخة من الملك والملكوت. والذكر يهديه الروح، والورق تشدو وتغني فيهيج سمعه، وينعم طرفه في ملك الله وملكوته، ويذوق الشراب ويلمس الكؤوس، وتصبح كل ذرة وكل جارحة وكل خلية في وجوده رسولا يتلقى دروسا وحكمة، وينساب الوحي من قلبه إلى الجوانح في باطنه. وتصفو الجوانح

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥.

الباطنية من الخواطر، ويدخل حرم الله، ويشهد الله بجملته، بكل جوارحه وحواسه، لا يرى غيره ولا يسمع غيره، ويدخل في الجذبة الرحمانية، التي تعادل عبادة الثقلين.

وحين سمع وحي الرسول بآذان قلبه تذكر حقيقته، ولم يقر له بعد ذلك اليوم قرار. قال الله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[1]. وحن لتجريد الخطاب من فم الولي المرشد، فوجده أعذب من الماء المتدفق من عين الزلال، فكأنما كلمات الله تتهاطل تترى عليه، طافحة بأنوار طه، وأنى للظلمات أن تغشاه! ويتدفق العدل من هذه الكلمات الرحمانية، فأنى للظلم أن يختشى! وأطفأت نعمة النور نار النقمة، وأشهدته حسن الربوبية وجمالها وجلالها، فشده عن عقله وحجاه، وتحقق أنهما في الحقيقة واحد.

ولله در الشاعر يصف هذه اللطائف:ـ

وأمس خليا من حظوظك واسم عن	حضيضك واثبت بعد ذلك تنبت
وسدد وقارب واعتصم واستقم لها	مجيبا إليها عن إنابة مخبت
وعاد دواعي القيل والقال وانج من	عوادي دعاو صدقها قصد سمعة
فجاهد تشاهد فيك منك وراء ما	وصفت سكونا عن وجود سكينة
فمن بعد ما جاهدت شاهدت مشهدي	وهادي لي إياي بل بي قدوتي
وفارق ضلال الفرق فالجمع منتج	هدى فرقة بالاتحاد تحدت
وصرح بإطلاق الجمال ولا تقل	بتقييده ميلا لزخرف زينة
وهذبت نفسي بالرياضة ذاهبا	إلى كشف ما حجب العوائد غطت
ويا كل ما أبقى الضنى مني ارتحل	فمالك مأوى في عظام رميمة
ويا ما عسى مني أناجي توهما	بياء الندا أونست منك بوحشة
وعندي عيدي كل يوم أرى به	جمال محياها بعين قريرة
يشاهد مني حسنها كل ذرة	بها كل طرف جال في كل طرفة

(١) سورة الشورى الآية ٥١.

ويثني عليها في كل لطيفة بكل لسان طال في كل لفظة
وانشق رياها بكل دقيقة بها كل أنف ناشق كل هبة
ويسمع مني لفظها كل بضعة بها كل سمع سامع متنصت
ويلثم مني كل جزء لثامها بكل فم في لثمه كل قبلة
فلو بسطت جسمي رأت كل جوهر به كل قلب فيه كل محبة
وإني وإياها لذات ومن وشى بها وثنى عنها صفات تبدت
فذا مظهر للروح هاد لأفقها شهودا بدا في صيغة معنوية
وذا مظهر للنفس حاد لرفقها وجودا غدا في صيغة صورية
لروحي يهدي ذكرها الروح كلما سرت سحرا منها شمال وهبت
ويلتذ إن هاجته سمعي بالضحى على ورق ورق شدت وتغنت
وينعم طرفي إن روته عشية لإنسانه عنها بروق وأهدت
ويمنحه ذوقي ولمسي أكؤس الشراب إذا ليلا علي أديرت
ويوحيه قلبي للجوانح باطنا بظاهر ما رسل الجوارح أدت
ويحضرني في الجمع من باسمها شدا فأشهدها عند السماع بجملتي
فينحو سماء النفح روحي ومظهري المسوى بها يحنو لأتراب تربتي
فمني مجذوب إليها وجاذب إليه ونزع النزع في كل جذبة
وما ذاك إلا أن نفسي تذكرت حقيقتها من نفسها حين أوحت
فحنت لتجريد الخطاب ببرزخ التراب وكل آخذ بأزمتي
فلا ظلم تغشى ولا ظلم يختشى ونعمة نوري أطفأت نار نقمتي
وقد أشهدتني حسنها فشدهت عن حجاي ولم أثبت حلاي لدهشتي
تحققت أنا في الحقيقة واحد وأثبت صحو الجمع محو التشتت
وفي رحموت البسط كلي رغبة بها انبسطت آمال أهل بسيطتي
وفي رهبوت القبض كلي هيبة ففيما أجلت العين مني أجلت

رواية عنوان البصري
عن الإمام الصادق عليه السلام في السير والسلوك

وإذا كنا نبحث عن أسلوب السيد علي القاضي في تربية السالكين، فلا بد من ذكر «رواية عنوان البصري» عن الإمام الصادق عليه السلام، الذي كان يعتبر ركنا مهما في أسلوبه التربوي. ذكر سماحة العلامة آية الله السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني[1]: «لقد كان المرحوم الأستاذ الكبير (السيد علي القاضي)، عارف القرن الذي لا نظير له، بل هو حسب قول أستاذنا حضرة الحاج السيد هاشم: «لم يأت في مثل شمول وجامعية المرحوم القاضي، من صدر الإسلام حتى الآن»، كان قد أصدر تعليماته لتخطي النفس الأمارة والرغبات المادية والطبعية والشهوية والغضبية التي تنشأ غالبا من الحقد والحرص والشهوة والغضب والإفراط في الملذات.

وكان قد أصدر أمره إلى تلامذته ومريديه في السير والسلوك إلى الله ليكتبوا رواية عنوان البصري ويعملوا بها. أي إن العمل وفق مضمون هذه الرواية كان أمرا أساسيا ومهما. وكان يقول علاوة على ذلك: ينبغي أن تحتفظوا بها في جيوبكم وتطالعونها مرة أو مرتين كل أسبوع. فهذه الرواية تحظى بالأهمية الكبيرة وتحوي مطالب شاملة وجامعة في بيان كيفية المعاشرة والخلوة، وكيفية ومقدار تناول الغذاء، وكيفية تحصيل العلم، وكيفية الحلم ومقدار الصبر والاستقامة وتحمل الشدائد أمام أقوال

(١) في كتابه الروح المجرد صفحة ١٨٦-١٩١.

الطاعنين، وأخيرا مقام العبودية والتسليم والرضا، والوصول إلى أعلى ذروة العرفان وقمة التوحيد.

لذا فلم يكن المرحوم القاضي ليقبل تلميذا لا يلتزم بمضمون هذه الرواية. هذه الرواية منقولة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وقد ذكرها المجلسي في كتاب «بحار الأنوار». وباعتبار أن هذه الرواية تمثل برنامجا عمليا شاملا نقل عن ذلك الإمام الهمام، لذا نورد عين ألفاظها وعباراتها بلا تصرف، ليفيد منه محبو وعشاق السلوك إلى الله :

أقول: وجدت بخط شيخنا البهائي قدس الله روحه ما هذا لفظه:

قال الشيخ شمس الدين محمد بن مكي: نقلت من خط الشيخ أحمد الفراهاني رحمه الله، عن عنوان البصري ـ وكان شيخا كبيرا قد أتى عليه أربع وتسعون سنة ـ قال: كنت أختلف إلى مالك بن أنس سنين، فلما قدم جعفر الصادق عليه السلام المدينة اختلفت إليه، وأحببت أن آخذ عنه كما أخذت عن مالك.

فقال لي يوما: إني رجل مطلوب ومع ذلك لي أوراد في كل ساعة من آناء الليل والنهار، فلا تشغلني عن وردي، وخذ عن مالك واختلف إليه كما كنت تختلف إليه. فاغتممت من ذلك، وخرجت من عنده وقلت في نفسي: لو تفرس في خيرا لما زجرني عن الاختلاف إليه والأخذ عنه.

فدخلت مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسلمت عليه ثم رجعت من الغد إلى الروضة وصليت فيها ركعتين وقلت: أسألك يا الله يا الله! أن تعطف علي قلب جعفر وترزقني من علمه ما أهتدي به إلى صراطك المستقيم! ورجعت إلى داري مغتما ولم أختلف إلى مالك بن أنس لما أشرب قلبي من حب جعفر. فما خرجت من داري إلا إلى الصلاة المكتوبة حتى عيل صبري.

فلما ضاق صدري تنعلت وترديت وقصدت جعفرا وكان بعدما صليت العصر. فلما حضرت باب داره استأذنت عليه فخرج خادم له فقال: ما حاجتك؟! فقلت: السلام على الشريف!

فقال: هو قائم في مصلاه. فجلست بحذاء بابه، فما لبثت إلا يسيرا، إذ خرج خادم فقال: ادخل على بركة الله. فدخلت وسلمت عليه. فرد السلام وقال: اجلس غفر الله لك!

فجلست. فأطرق مليا، ثم رفع رأسه وقال: أبو من؟!

قلت: أبو عبد الله!

قال: ثبت الله كنيتك ووفقك، يا أبا عبد الله! ما مسألتك؟!

فقلت في نفسي: لو لم يكن لي من زيارته والتسليم غير هذا الدعاء لكان كثيرا. ثم رفع رأسه ثم قال: ما مسألتك؟!

فقلت: سألت الله أن يعطف قلبك علي ويرزقني من علمك، وأرجو أن الله تعالى أجابني في الشريف ما سألته.

فقال: يا أبا عبد الله! ليس العلم بالتعلم، إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه، فإن أردت العلم فاطلب أولا في نفسك حقيقة العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك!

قلت: يا شريف! فقال: قل: يا أبا عبد الله!

قلت: ما حقيقة العبودية؟!

قال: ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله ملكا، لأن العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به. ولا يدبر العبد لنفسه تدبيرا. وجملة اشتغاله فيما أمره تعالى به ونهاه عنه.

فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوله الله تعالى ملكا، هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالى أن ينفق فيه. وإذا فوض العبد تدبير نفسه على مدبره، هان عليه مصائب الدنيا. وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه، لا يتفرغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس.

فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة هان عليه الدنيا، وإبليس، والخلق. ولا يطلب الدنيا تكاثرا وتفاخرا، ولا يطلب ما عند الناس عزا وعلوا، ولا

يدع أيامه باطلا.

فهذا أول درجة التقى، قال الله تبارك وتعالى:

تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين.

قلت: يا أبا عبد الله! أوصني!

قال: أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى، والله أسأل أن يوفقك لاستعماله.

ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم. فاحفظها، وإياك والتهاون بها!

قال عنوان: ففرغت قلبي له.

فقال: أما اللواتي في الرياضة:

فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه فإنه يورث الحماقة والبله. ولا تأكل إلا عند الجوع. وإذا أكلت فكل حلالا وسم الله، واذكر حديث الرسولﷺ: ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه. فإن كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه.

وأما اللواتي في الحلم:

فمن قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشرا فقل: إن قلت عشرا لم تسمع واحدة.

ومن شتمك فقل له: إن كنت صادقا فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذبا فيما تقول فالله أسأل أن يغفر لك.

ومن وعدك بالخنى فعده بالنصيحة والرعاء.

وأما اللواتي في العلم:

فاسأل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألهم تعنتا وتجربة. وإياك أن

تعمل برأيك شيئا، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلا. واهرب من الفتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسرا!

قم عني يا أبا عبد الله! فقد نصحت لك، ولا تفسد علي وردي، فإني امرىء ضنين بنفسي. والسلام على من اتبع الهدى.

ويتضح بالتأمل والدقة في المطالب الواردة في هذا الحديث المبارك في مراده والعظيم في مفاده، درجة السمو والرفعة التي رقت إليها تعاليم آية الحق والعرفان، وسند التحقيق والإيقان، وعماد البصيرة والبرهان: الحاج السيد علي القاضي قدس الله تربته الزكية. فلقد كان يعطي هذه التعاليم التي تنصب بشكل كامل في طريق الإعراض عن مشاعر العداء والانتقام وكسر صولة النفس الأمارة، والعثور على نافذة للإطلال على عالم المعنى والتجرد والملكوت، ومن ثم لعرفان ذات الحق تعالى واندكاك الوجود المعار المجازي في الوجود المطلق والوجود المحض والصرف السرمدي والأزلي والأبدي الذي لا يتناهى لذاته القدسية».

لقاء الله والإندكاك في حضرته

ولتوضيح وتحديد رؤية هذه المدرسة العرفانية عن «رواية عنوان البصري»، وتمايزا عن تفاسير محتملة ربما اتخذتها مدارس أخرى عرفانية أو فلسفية أو ربما المتشرعون أو غيرهم، ولوضع النقاط فوق الحروف، وتمايز هذه المدرسة عن غيرها، ننقل عن العلامة السيد محمد الحسين الحسيني [١] ما يلي:ـ

ولقد كانت تعاليم الإمام جعفر الصادق عليه السلام في هذه الرواية أيضا متخذة من آيات القرآن الكريم المعجزة في قوله:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [٢].

أو قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [٣].

حتى يصل إلى قوله:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [٤].

ولدينا في القرآن الكريم أن: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [٥]. والوصول إلى لقاء الأحدية ومشاهدة الجمال والجلال الأزلي هو من أفضل

---

(١) كتاب الروح المجرد صفحة ١٩٢-١٩٩.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٩.

(٣) سورة الفرقان الآية ٦٣.

(٤) سورة الفرقان الآية ٧٢.

(٥) سورة آل عمران الآية ٩٢.

أقسام البر والخير، فلن يكون ميسورا بالطبع إلا إذا صرف سالك طريق الله نظره عما يملك وأنفقه في سبيل الوصول لهذا الهدف الأعلى والمقصد الأسنى.

كما أن المخاصمة والشتم والسب للمخاصم والشتام والسباب هي من الغرائز الطبيعية للإنسان، وطبيعي أن كل شخص يرغب في إحقاق حقه والاقتصاص من شاتمه، لكن هذه الرغبات ناشئة جميعا من الميول والرغبات النفسية، فما لم يتخط الإنسان رغبات نفسه وآثارها فلن يصل إلى ما وراء النفس. فالتجرد عن الهوى والهوس تجرد عن الميول والرغبات النفسية، كما أن الإصرار والإبقاء على المشتهيات النفسية واللذائذ الطبيعية والانغماس في الشهوات الحيوانية والأوهام الشيطانية وثورات الغضب السبعية تجعل وصول الإنسان إلى مقام التجرد محالا، إذ ان ذلك هو الجمع بين النقيضين.

التجرد هو التنزه من النفس وآثارها النفسانية، بينما الإصرار على مشتهيات النفس يعني الإصرار على إبقاء النفس وآثارها النفسانية، وهما أمران يقعان على طرفي نقيض. وعليه ينبغي رفع اليد عن الرغبات والميول النفسية وتجاهلها ليتجلى جمال زينة عالم ما وراء النفس.

لقد كان حضرة الحاج السيد هاشم يعد الكثير من أعمال الخير من حظوظ النفس لأن النفس تلتذ به، وكان يقول: إن المجالس التي يشكلها بعض السالكين فيقرأون فيها الشعر، هي غالبا من حظوظ النفس، ومع أنهم يحصلون فيها على لذة معنوية لكنها تبقى من حظوظ النفس، كما أن الناس يأتون بالكثير من الأذكار والأوراد لأغراض النفس وحظوظها.

فالقرآن الذي يتلونه إن استلفتهم فيه جمال جلده وورقه وخطه، ولو تلوه وهو على رحل مشبك بحيث أثر ذلك الرحل في حالة قراءتهم لكان ذلك من حظ النفس. كما أن السجادة البيضاء بلا نقوش أمر مطلوب ومقبول، في حين أن السجاد الجميل الملون الذي تنتظمه النقوش هو من حظ النفس. كذلك فإن تربة سيد الشهداء عليه السلام إن كانت على هيئة القالب

المعين المعهود المستعمل للسجود عليه في الصلاة أمر مطلوب ولو كان سطحها خشنا غير مستو، ولكن إن اشترط فيها صفاء سطحها وصقله لتحولت إلى حظوظ النفس.

وعليه ينبغي الانتباه بدقة كم أن الشيطان قد وسع دائرة نفوذه بحيث أنه يرغب في ترك تأثيره في محل سجود المؤمن الشيعي، وذلك على التربة الطاهرة لتلك الأرض المقدسة.

كما أن المسبحات الجميلة التي تؤثر في ذكر الإنسان هي جميعا من حظ النفس، وهكذا الأمر بالنسبة للعمامة والعباءة والرداء وغيرها من الأشياء التي تؤثر في عبادة وصلاة ودعاء وزيارة وتلاوة وذكر المؤمن ووِرده.

وكان يقول السيد الحداد: إن الرغبة في الأحلام والرؤيا المعنوية والروحية هي من حظوظ النفس، كما أن طلب المكاشفات الاتصال بعالم الغيب والاطلاع على الضمائر والعبور على الماء والهواء والنار والتصرف في مواد الكائنات وشفاء المرضى هي كلها من حظوظ النفس.

وكان يقول: أعجب لتلك الجماعة من السالكين الذين يريدون المكاشفة! فليفتحوا أعينهم، فهذا العالم كله مكاشفات.

إن المكاشفة ليست مشاهدة صورة في زاوية على هيئة خاصة وحالة استثنائية، بل إن كل كشف عن إرادة الحق واختياره وعلمه وقدرته وحياته هو مكاشفة. فافتح عينيك وتأمل ان هذا العالم في الخارج كل ذرة فيه مكاشفة، وهو حاو على عجائب وغرائب لا سبيل للفكر إلى منتهاها.

وإذا ما أراد السالك في السير والسلوك ـ أو في طريق غير هذا الطريق عموما ـ شيئا غير الله، فإنه لم يرد الله سبحانه، وستكون إرادته ورغبته النفسية هذه مانعة من وصوله إلى ذات الحق القدسية.

فإن طلبت الجنة، أو الحورية والغلمان، فلن تكون قد طلبت الله أو أردته! وإن طلبت المقامات والدرجات فمن الممكن أن يمن بها الله

عليك، لكنك لم ترد الله، لذا فقد تسمرت في ذلك المقام والدرجة واستحال عليك الارتقاء منها إلى أعلى منها، وذلك لأنك لم ترد ولم تطلب.

ولو جاءك جبرئيل مثلا فقال لك: تمنّ ما شئت من الدرجات والمقامات والسيطرة على الجنة والجحيم وخلة حضرة النبي إبراهيم عليه السلام ومقام الشفاعة الكبرى لمحمد صلى الله عليه وآله والحب له، فقل: ما أنا إلا عبد! ولا طلب للعبد في شيء، فما أراده لي ربي فهو المطلوب. وإن أنا أردت لتخطيت بذلك القدر من إرادتي المتعلقة بي ساحة عبوديتي ولوضعت قدمي في ساحة عز الربوبية، لأن الإرادة والاختيار مختصان به وحده سبحانه.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

كما لا تقل: أريد الله! فمن تكون أنت ـ ترى ـ لتريد الله؟! فأنت لم تقدر ولن تقدر أن تريده وتطلبه! فهو غير محدود وأنت محدود وطلبك بنفسك والناشيء عن نفسك محدود، فلن نقدر له أبدا أن تريد الله اللامتناهي أو أن تطلبه. وهذا لأن ذلك الإله المطلوب لك محدود في إطار طلبك ومحدود ومقيد بإرادتك ووارد في ظرفية نفسك بسبب طلبك، فذلك الإله ليس هو الله، بل إن ذلك الإله المتصور والمتخيل والمتوهم بتصورك وتخيلك وتوهمك ليس في الحقيقة إلا نفسك التي تصورتها إلها.

وعليك ـ بناء على هذا ـ أن تكف عن طلبك، فادفن أمنيتك هذه معك في القبر: أن ترى الله أو أن تصل إلى لقائه أو أن تطلبه! فاخرج بنفسك من الطلب، واترك طلبك ورغبتك التي كانت لك حتى الآن، وكل نفسك إلى الله ودعه يرد لك ويطلب لك!

وفي هذه الحالة ستكون غير واصل إلى الله، كما لم تصله قبل ولن تصله بعد، ولكنك حين خرجت وتنصلت من طلبك وإرادتك فأوليته زمامك

(١) سورة القصص الآية ٦٨.

وسلمته قيادك فسيقودك في معارج ومدارج الكمال الذي حقيقته السير إلى الله مع فناء المراحل والمنازل وآثار النفس، وأخيرا اندكاك وفناء جميع وجودك في وجود ذاته المقدسة. فالله سبحانه هو العارف بنفسه، ولست أنت العارف بالله!

إن وصول الممكن إلى الواجب أمر محال. فوجود شيئين هناك محال.

فالممكن والواجب والوصول هي جميعها ضم وضميمة تستلزم تركيب ذاته القدسية، وتنتهي أخيرا إلى حدوثه الذي ينافي قدمه سبحانه.

أما الفناء المطلق للعبد واندكاكه في ذاته تعالى، واضمحلاله في جلاله وجماله فهو أمر لا إشكال فيه! ولكن ينبغي العلم أن العبد لا يمكنه ـ ولو فني ـ الورود في تلك الذات البحتة المحضة غير المتناهية، لأنه عنوان العبد، وعنوان فناء العبد حيث لا تقبله الذات، فليس هناك غير الذات شيئا آخر، لا العبد ولا فناءه، بل هناك الذات، والذات ذات. هناك الله، والله هو الله.

كان الله ولم يكن معه شيء والآن كما كان.

وينبغي أن يعلم الجميع أن المراد بلفظ الوصول ولقاء وعرفان الذات الأحدية ليس ذلك النحو من المعاني الذي يستلزم الثنائية والبينونة، بل إن المراد بالمعرفة والمشاهدة واللقاء وأمثالها جميعا هو الاندكاك ومقام الفناء المطلق. وذلك لأن المعرفة بالله مختصة بالله وحده، فمعرفته من قبل غيره أمر محال. فالأفراد الذين لم يصلوا إلى الفناء المطلق لم يعرفوه بعد، لأن المحدود لا يعرف غير المحدود. أما الأفراد الذين وصلوا إلى الفناء المطلق فلم يعد لديهم وجود ليعرفوا الله، فإن الوجود هو وجود واحد لا غير، وذلك هو وجود الحق جل وعلا، فهو الذي يعرف نفسه، عرفها أولا كما يعرفها الآن، والآن كما كان.

إن نهاية سير كل موجود هو الفناء في الموجود الأفضل والأعلى منه، أي فناء كل ظهور في مظهره وكل معلول في علته، ونهاية سير الإنسان الكامل الذي وصلت جميع قواه وإمكاناته إلى مرحلة الفعلية هو

الفناء في الذات الأحدية والفناء في ذات الله سبحانه والفناء في هو والفناء في ما لا اسم له ولا رسم له. فهذه هي غاية سير كل موجود وغاية السير المتصورة في الإنسان الكامل وغاية سير الأنبياء والمرسلين والأئمة الطيبين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والمراد والمقصود الصحيح من المعرفة ونتيجة السلوك والسير نحو مقامه المقدس جل شأنه والسير العملي العرفاني والبحوث العلمية للعرفاء بالله علت أسماؤهم، لا شيء آخر سواه. فتأمل يا أخي في هذا المقام فإنه من مزال الأقدام. وهبك الله هذا بمحمد وآله أجمعين».

وفي نهاية الخواطر تحقق أنهما في الحقيقة واحد، وأن أول وآخر ما يجب نفيه هو نفسه، لأنها سوى الله، ولا حكومة إلا لله. قال الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1]. فهو محتجب لفرط ظهوره، كالبحر يحتجب عن الأسماك لفرط ظهوره. ولا ضد لله، وكل شيء يعرف بضده، وكل شيء ظاهر لنا بسبب ضده، ولولا الظلمة لما عرفنا النور، ولولا الشر لما عرفنا الخير. فالأشياء تعرف بأضدادها، فكيف لنا الوصول إلى الله وإلى معرفته، إلا بمعرفة النفس. فقد قال الرسول الأعظمﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

ثم كيف الوصول إلى لقاء الله ورؤيته، إلا بمحو النفس والإندكاك في حضرته. فهو الظاهر وهو الواحد الأحد الصمد، وتطلع الأنوار من طلعته الجلالية الجمالية، التي فاقت كل كمال وجمال وحسن وملاحة، وتيمت العارف بحبها وهواها. فاستعذب العارف ذلته أمام عزتها وجبروتها، لأنه شهد وراءها معنى يدق عن إدراك عين بصيرته. فتيم في هواها وأحب الذلة في حضرتها. ولولا حجاب الكون لما استعمل كلمة «أنا» ـ إذا كان يعني بها نفسه ـ فهل النفس إلا شيء سوى الله؟ وهل يقبل العارف بشيء سوى الله؟ تعالى العارف عن الشرك بالله علوا كبيرا.

(١) سورة المؤمن الآية ١٦.

ولا تتحقق الرؤية في دعوى الثنوية، وإذا محيت هذه الدعوى ثبتت الرؤية، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[1]. ولقد سما العارف بجمع الجمع عن خلافة الأرض وخلود السماء، وعن الدنيا والآخرة. كما قال الرسول الأعظمﷺ: «الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا، وكلاهما حرام على أهل الله». فما حاجة الواصل المتصل بالدنيا والآخرة وبالأرض والسماء؟

فلما تحققت الرؤية جعل الحس دكا، وخر الولي صعقا. فالعارف يعرف بربه لا بشخصه. وهل صفاته إلا للتسمية مجازا، وأسماء ذاته إلا جوازا لأسرار بها تسر الروح؟ وفي دك الصفات والأسماء، وظهور التجليات الربانية، تتحقق المعجزات. فما سير عيسىعليه السلام على الماء إلا إحدى هذه المعجزات. ولقد قال الرسول الأعظمﷺ: «لو زاد يقينه لطار في الهواء». وكذلك المعجزات التي تحققت على يدي نوح وإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وسليمان وعيسى عليهم السلام. وحتى تلك التي تحققت على يدي من كان عنده علم من الكتاب، والذي أحضر عرش بلقيس من سبأ.

وسيد الأكوان من دخل في عبودية الله، ويتحقق على يديه السلطان على الطبيعة والأكوان. وفي الحديث القدسي: «لولاك لما خلقت الأفلاك». وكذلك الذين تبعوه ودخلوا في عبودية الله، فهم أسياد الطبيعة والأكوان. ولكنهم احتجبوا بالصفات حتى لا تحرق مظاهر الذات. وألسنة الأكوان تشهد بالتوحيد، فكان الله ولم يكن معه شيء والآن كما كان.

والحديث الشريف: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت بصره الذي يبصر به، وسمعه الذي يسمع به، ولسانه الذي

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٣.

ينطق به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يسعى بها، فبي يبصر وبي يسمع وبي ينطق وبي يبطش وبي يسعى، وإن استعانني أعنته، وإن دعاني أجبته» أكبر دليل على ما نقول، وتثبت تجليات الله في عبده، الذي أقامه الله بصدق العبودية بين يديه. ومن نوره أشرقت مشكاة ذاتهم، وأشهدوا كونهم هناك فكانوا.

ولله در الشاعر يصف لقاء الله وشهوده والإندكاك في حضرته:ـ

ومطلع أنوار بطلعتك التي ... لبهجتها كل البدور استسرت
ووصف كمال فيك أحسن صورة ... وأقومها في الخلق منه استمدت
وسر جمال عنك كل ملاحة ... به ظهرت في العالمين وتمت
وحسن به تسبى النهى دلني على ... هوى حسنت فيه لعزك ذلتي
ومعنى وراء الحسن فيك شهدته ... به دق عن إدراك عين بصيرتي
لأنت منى قلبي وغاية بغيتي ... وأقصى مرادي واختياري وخيرتي
ومن درجات العز أمسيت مخلدا ... إلى دركات الذل من بعد نخوتي
ولو عز فيها الذل ما لذ لي الهوى ... ولم تك لولا الحب في الذل عزتي
فوصفي إذ لم تدع باثنين وصفها ... وهيئتها إذ واحد نحن هيئتي
وما شان هذا الشأن منك سوى السوى ... ودعواه حقا عنك إن تمح تثبت
كذا كنت حينا قبل أن يكشف الغطا ... من اللبس لا أنفك عن ثنوية
أخال حضيضي الصحو والسكر معرجي ... إليها ومحوي منتهى قاب سدرتي
فلما جلوت العين عني اجتليتني ... مفيقا ومني العين بالعين قرت
سمت بي لجمعي عن خلود سمائها ... ولم أرض إخلادي لأرض خليفتي
وفي شهدت الساجدين لمظهري ... فحققت أني كنت آدم سجدتي
وعاينت روحانية الأرضين في ... ملائك عليين أكفاء سجدتي
وفي صعق دك الحس خرت إفاقة ... لي النفس قبل التوبة الموسوية
كذاك بفعلي عارفي بي جاهل ... وعارفه بي عارف بالحقيقة
ظهور صفاتي عن أسامي جوارحي ... مجازا بها للحكم نفسي تسمت

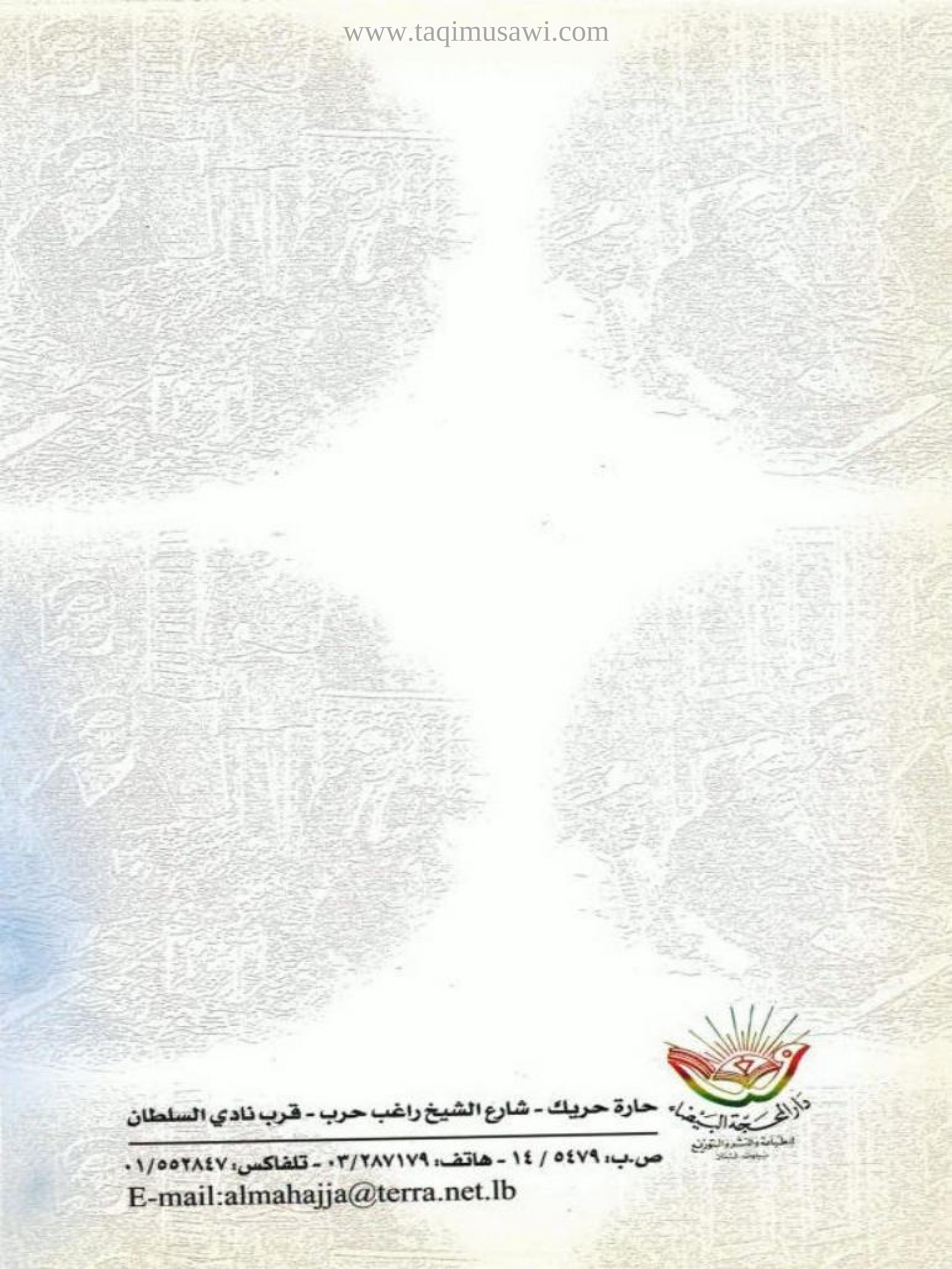
وأسماء ذاتي عن صفات جوانحي ... جوازا لأسرار بها الروح سرت
وتعرفها من قاصد الحزم ظاهرا ... سجية نفس بالوجود سخية
وأحضر ما قد عز للبعد حمله ... ولم يرتدد طرفي إلي بغمضة
وما سار فوق الماء أو طار في الهوا ... أو اقتحم النيران إلا بهمتي
ومني لو قامت بميت لطيفة ... لردت إليه نفسه وأعيدت
بذاك علا الطوفان نوح وقد نجا ... به من نجا من قومه في السفينة
وغاض له ما فاض عنه استجادة ... وجدا إلى الجودي بها واستقرت
وسارت ومتن الريح تحت بساطه ... سليمان بالجيشين فوق البسيطة
وقبل ارتداد الطرف أحضر من سبا ... له عرش بلقيس بغير مشقة
وأخمد إبراهيم نار عدوه ... وعن نوره عادت له روض جنة
ولما دعا الأطيار من كل شاهق ... وقد ذبحت جاءته غير عصية
ومن يده موسى عصاه تلقفت ... من السحر أهوالا على النفس شقت
ومن حجر أجرى عيونا بضربة ... بها ديما سقت وللبحر شقت
ويوسف إذ ألقى البشير قميصه ... على وجه يعقوب إليه بأوبة
وفي آل إسرائيل مائدة من الـ ... سماء لعيسى أنزلت ثم مدت
ومن أكمه أبرا ومن وضح عدا ... شفى وأعاد الطين طيرا بنفخة
ولا تحسبن الأمر عني خارجا ... فما ساد إلا داخل في عبوديتي
ولولاي لم يوجد وجود ولم يكن ... شهود ولم تعهد عهود بذمة
فلا حي إلا عن حياتي حياته ... وطوع مرادي كل نفس مريدة
ولو أنها قبل المنام تجردت ... لشاهدتها مثلي بعين صحيحة
وتجريدها العادي أثبت أولا ... تجردها الثاني المعادي فأثبت
وإياك والإعراض عن كل صورة ... مموهة أو حالة مستحيلة
فطيف خيال الظل يهدي إليك في ... كرى اللهو ما عنه الستائر شقت
تجمعت الأضداد فيها لحكمة ... فأشكالها تبدو على كل هيئة
صوامت تبدي النطق وهي سواكن ... تحرك تهدي النور غير ضوية

ولولا احتجابي بالصفات لأحرقت مظاهر ذاتي من ثناء سجيتي
وألسنة الأكوان إن كنت واعيا شهود بتوحيدي بحال فصيحة
وجاء حديث في اتحادي ثابت روايته في النقل غير ضعيفة
يشير بحب الحق بعد تقرب إليه بنفل أو أداء فريضة
وموضع تنبيه الإشارة ظاهر بكنت له سمعا كنور الظهيرة
تسببت في التوحيد حتى وجدته وواسطة الأسباب إحدى أدلتي
ووحدت في الأسباب حتى فقدتها ورابطة التوحيد أجدى وسيلة
وجردت نفسي عنهما فتجردت ولم تك يوما قط غير وحيدة
رأوا ضوء نوري مرة فتوهموه نارا فضلوا في الهدى بالأشعة
ومن نوره مشكاة ذاتي أشرقت علي فنارت بي عشائي كضحوتي
فأشهدتني كوني هناك فكنته وشاهدته إياي والنور بهجتي

مصادر الكتاب

- **الروح المجرد**: لسماحة العلامة آية الله السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني
- **الشمس الساطعة**
- **صفحات من تاريخ الأعلام في النجف الأشرف**: للعلامة السيد محمد حسن نجل السيد علي القاضي قدس سره
- **قدوة العارفين**: لعبد الرحمن حاتم
- **التائية الكبرى المسماة بنظم السلوك**: لابن الفارض
- **أسوة عارفان**: تأليف محمود طيار مراغي وصادق حسن زاده
- **الزوايا الخفية للحياة**: للعارف الكبير صادق العنقاء قدس سره
- **أصول الكافي**: للعلامة الكليني
- **دعاء عرفة**: للإمام الحسين عليه السلام
- **دعاء الندبة**: المنسوب للإمام الحجة عليه السلام
- **الحديث القدسي**
- **ما هو سر الحياة**: للمؤلف
- **وإذا مرضت فهو يشفين**: للمؤلف
- **السموات السبع**: للمؤلف
- **ألف باء العرفان**: للمؤلف

الفهرس



حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان
ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail:almahajja@terra.net.lb